التِّبْيَان

شَرْح

أَخْلَاقِ حَمَلَةِ القُرْآنِ



اسم الكتاب : التبيان في شرح أخلاق حملة القرآن
للإمام المحدث : أبي بكر محمد بن الحسين الآجري
رقم الإيداع: ٢٠٢٠/٦١٠٥١.
نوع الطباعة: ٢ لون .
عدد الصفحات: ١٩٢.
القياس: ١٢X١٧.

تجهيزات فنية:
مكتب دار الإيمان للتجهيزات الفنية
أعمال فنية وتصميم الغلاف أ / عادل المسلماني .





١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية .
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٤٤٦٤٩٦

١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية .
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٢٢٢٠٠٢

dar_aleman@hotmail.com

دار الإيمان المتحدة
أمام مستشفى الصوفي - أسفل مدارس اليمن الحديثة
مقابل بنك سبأ - شارع رداع - محافظة ذمار
جوال: ٧٧٥٣٠٩٩٣٥

التبيان
شرح
أخلاق حملة القرآن

للإمام المحدث أبي بكر محمد بن الحسين الآجري
المتوفى سنة ٣٦٠ هـ

إعداد

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر
غفر الله له ولوالديه






بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وَحْدَهُ لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فإنَّ كتابَ «أخلاق حملة القرآن» للإمام أبي بكر محمد بن الحسين الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ المُتَوَفَّى عام ستين وثلاث مائة، كتابٌ مباركٌ، عظيمُ النفع، كبيرُ الفائدة في بابِ: آداب حملة كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وأخلاقِهم، معدودٌ في أوائل المصنَّفات في هذا الباب العظيم، أملاه رَحِمَهُ اللَّهُ في المسجد الحرام بمكَّةَ عام أربع وخمسين وثلاث مائة؛ أي: قبل وفاته بسِتٍّ سنوات.

ومن المعلوم أنَّ القرآنَ كتابُ خُلُقٍ وأدبٍ وتربيةٍ؛ ولهذا كان على أهل القرآن وحملتِه أن يُلزموا أنفسَهم بآدابه، وأن يُجاهدوا أنفسهم على التَّحلِّي بها؛ ليكونوا بذلك من أهل القرآن حقًّا وصدقًا، والتزامًا وتأدُّبًا.

وقد سُئِلتْ أُمُّ المؤمنين عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن خُلُقِ رسول الله ﷺ؛ فقالت: «ألسْتَ تقرأُ القرآنَ؟ فإنَّ خُلُقَ نبيِّ الله ﷺ كان القرآنَ». [أخرجه مسلم في صحيحه رقم: (٧٤٦)]

وهذا بابٌ شريفٌ من العلم ينبغي أن تتوافر الهِمَمُ على العناية به؛ لأن الناسَ إذا كان حظُّهم من القرآن مجردَ القراءة؛ لم يَظْهَرْ عليهم القرآن لا في خُلُقٍ ولا عَمَلٍ، بينما إذا أُخذ القرآنُ مأخذَ التَّعلمِ والتدبُّرِ والتفقُّهِ والمجاهدةِ للنَّفْس على العمل به؛ ظهر عليهم ذلك، وظهرت عليهم هداياتُ القرآن.

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

فهذه الهداياتُ المباركاتُ إنَّما تَظهرُ على العبد إذا عُني بالتأدُّب بآداب القرآن، والتخلقِ بالأخلاق العظيمة التي دعا إليها، والعنايةِ بهداياته العظيمة.

ولذا كتب الإمامُ الآجريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الكتابَ العظيمَ المبارك الذي ينبغي على حملة القرآن على وجه الخصوص أن يقرؤوه قراءةً دقيقةً ومتأنيةً؛ حتى يفيدوا ممَّا حواهُ من خيرٍ عظيمٍ، ونفعٍ كبيرٍ، وفوائدَ جليلةٍ.

وكذلك من لم يكن من حملة القرآن وحفظته إذا قرأ هذا الكتابَ أفاده كثيرًا حتى يَسلُكَ المسلَكَ القويم، وينهجَ المنهجَ السليم، ولربَّما كان هذا الكتاب طريقًا له لمزيد عناية بكتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على جادة سوية، ونهج قويم.

وينبغي إشاعة هذه الآداب ونشرها في المقارئ ودور القرآن ومدارس التحفيظ؛ ليعمَّ نفعها، ولتتحقَّق البركة المرجوَّة، والخير المنشود، والله الموفِّق وحدَهُ لا شريك له

وأسألُ اللهَ الكريمَ أن ينفعَنا بما حواه هذا الكتابُ من توجيهاتٍ عظيمةٍ، وآدابٍ رفيعةٍ، وأخلاقٍ عاليةٍ، وأن يجعلَ ما نتعلَّمُه حجةً لنا لا علينا، وقد يسَّرَ الله التعليقَ عليه بتعليقات يسيرة، أرجو الله أن يكون فيها معونة على حسن الاستفادة منه، والانتفاع به، ومِنَ الله وحدَه جَلَّ وَعَلَا نستمنحُ التوفيقَ، ونستمدُّ العونَ[(١)].

وأسأل اللهَ أن يجزيَ خير الجزاء وأوفاه الأخوة الفضلاء الذين اجتهدوا في خدمة هذا الكتاب تصحيحًا وتنقيحًا، والعمل على تهيئته للطباعة والنَّشر، وأن يجعلَ ذلك في موازين حسناتهم، إنه سميعٌ مُجيب.

وصلى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

---

(١) وأصل هذا الكتاب دروسٌ ألقيتُها في مسجد النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شهر رمضانَ الفضيل لعام ١٤٣٥هـ، وقد اجتهد بعضُ الفضلاء في تفريغها وتنسيقها، فقُمتُ بمراجعتها، وإضافةِ بعض الفوائد عليها، واللهَ أسأل أن يجزيَ كُلَّ مَن اجتهد في إخراج هذه المادة ونشرِها بين المسلمين خيرَ الجزاء.

قال الإمامُ الآجريُّ رحمه الله :

«أحقُّ ما استُفْتِحَ به الكلامُ؛ الحَمْدُ لمولانا الكريم[١]، وأفضلُ الحمد ما حَمِدَ به الكريمُ نفسَهُ، فنحن نَحمَدُهُ به[٢]:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾[٣] ﴿١﴾ ....

---

(١) بدأ المؤلِّفُ رحمه الله بحمد الله سبحانه، وهو أحقُّ ما بُدئ به الكلامُ، وأولىٰ ما يُبدأُ به، والله سبحانه افتتح كتابَه بالحمد، وافتتح عددًا من سُوره بالحمد.

(٢) **قوله**: «**فنحن نحمدُهُ به**»؛ أي: بما حَمِدَ به نَفسَه في كتابه.

(٣) لمَّا كان موضوعُ هذا الكتاب عن آداب حملة القرآن وأخلاقِهم ناسب البدءُ بهذا الحمد لله تعالى على منَّتِهِ العظيمة، وفضلِه الكريم بإنزال هذا الكتابِ على رسوله ﷺ، مُشتَمِلًا على ما فيه هدايَةُ الخَلْق وصلاحُهم وفلاحُهم، وهذه أكبرُ النِّعَم وأفضلُها على الإطلاق.

والمرادُ بعبدِه: مُحمد ﷺ، وهو آخِرُ المُرسَلين، وخاتَم النبيِّين.

والمُراد بالكتاب: القُرآن، وهو خاتَم الكتب المُنَزَّلة، وآخِرُ الكُتُب عهدًا بالله جل وعلا، وهو أعظَمُ الكُتُب وأجلُّها وأفضلُها.

ووصَفَ تبارك وتعالى هذا الكتابَ بوصفين؛ بأنَّه لم يجعل له عِوَجًا، وبأنَّه قَيِّمٌ.

أمَّا وصفُه بأنَّه **لم يَجعلْ له عوجًا**؛ أي: أنَّ أخبارَه لا كذبَ فيها، وأوامِرَهُ لا ظُلم فيها، فهو كتابٌ لا عِوَج فيه؛ فلا كذبَ في أخباره، ولا ظُلم في أوامرِهِ.

ومعنىٰ وصفه بأنه **قيِّم**؛ أي: مستقيمٌ، وأخبارُه أخبارُ فضلٍ وخيرٍ، تُفضِي بالعبد إلىٰ كلِّ فضيلة ورِفعة، وأوامرُه أوامرُ صلاحٍ وزكاةٍ؛ تُفضي بالعبد إلىٰ عالي الدرجات، ورفيع الرُّتب، وهداياتهُ صراطٌ مستقيم؛ تُفضي بمن لَزِمها إلىٰ جنَّاتِ النَّعيم.

قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١) ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾.

و﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ (٣) وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ (٤) وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ (٥) ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا (٦)

---

(١) فهو كتابُ نِذارةٍ وبِشارةٍ: نِذارةٌ؛ لمَن عصىٰ وأعرض وتكبَّرَ وجَحَدَ وعاند مِن العذاب الشديد الذي أعدَّه اللهُ ﷻ للمُعرِضين المُعاندين المستكبرين الظالمين.

وبِشارةٌ؛ لمن وفَّقهم اللهُ ﷻ للإيمان به، وبما أَمر به، ولزومِ طاعته ﷻ، وعبادتِهِ، وفِعْلِ الأعمالِ الصَّالحات.

(٢) أي: الجنَّة، والفوز برضوان الله ﷻ، خالدين في هذا النَّعيم أبد الآباد.

(٣) أي: مُلكًا وعبيدًا؛ فما في السَّموات والأرض كُلُّه مُلْكٌ لله، ومَن في السموات والأرض كلُّهم عبيدٌ لله ﷻ، وطَوعُ تدبيرِهِ وتسخيرِهِ ﷻ، لا خُروجَ لأحدٍ منهم عن تدبيره ﷻ، فهو المُدبِّرُ، وهو المُسخِّرُ لا شريك له.

(٤) خَصَّ الحمدَ في الآخرة مع أنَّ الحمدَ لله في الأُولىٰ والآخرة؛ لأنَّ الآخرةَ يظهرُ فيها مِن حمْدِهِ، والثناءِ عليه ما لا يكونُ في الدنيا.

(٥) أي: أفعالُه كلُّها عن حِكمَة؛ يضع الأشياءَ مواضِعَها، و «﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴾» أي: المُطَّلعُ علىٰ بواطن الأمور، وخفايا الأشياء، كما هو مُطَّلِعٌ علىٰ ظاهِرِها وعلَنِها.

(٦) في هذا بيانُ إحاطةِ علمِهِ وسَعَتِه، كما قال ﷻ: ﴿ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق:١٢]، وكما قال ﷻ: ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [طه:٩٨].

فقوله: «﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾» أي: يعلمُ كلَّ ما يلج في الأرض؛ من بُذورٍ وأمواتٍ، إلىٰ غير ذلك، لا يخفىٰ عليه منه شيءٌ، **وقوله:** «﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾» أي: من ثِمارٍ ونباتٍ =

﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾[(١)]، أحمدُهُ على قديم إحسانه[(٢)]، وتواتُرِ نعمِهِ[(٣)]، حَمْدَ مَنْ يعلم أنَّ مولاه الكريمَ علَّمَهُ ما لم يكن يعلمُ[(٤)]، ....

= ومياهٍ، وغيرِ ذلك. وقوله: «﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾» أي: وما يَنزِلُ من السَّماء مِن مطر أو ملائكة، وقوله: «﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾» كعُرُوج الملائكة، وصُعودِ الكَلِمِ الطَّيب والأعمال.

(١) ختَم الآيةَ بهذين الاسمين، وفيهما ثبوتُ الرَّحمَة والمغفرة صفتين لله تعالىٰ، فهو سبحانه يغفرُ الذُّنوبَ جميعًا، وهو جَلَّ وَعَلَا بالمُؤمنين رحيم.

(٢) لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قديمُ الإحسان، وأبَدِيُّ الإحسان، لم يزل ولا يزال مُحسِنًا، موصوفًا بالإحسان، وليس المرادُ بالإحسان هنا: المُحسَن به، وإنَّما المرادُ وصفُهُ القائمُ به جَلَّ وَعَلَا، فهو لم يَزل ولا يزال بالإحسان موصُوفًا؛ نظيرُ قولِه ﷺ في الدعاء: «**أعوذُ بِاللهِ العظيم، وبِوجهِهِ الكريمِ، وسُلطانِهِ القدِيمِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيم**»[أخرجه أبو داود في سننه رقم: (٤٦٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم: (٤٧١٥)].

فالسُّلطانُ هنا: وصفٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والقِدَمُ هنا المرادُ به: القِدَمُ المُطلَق.

والقِدَمُ له إطلاقان:

أ - القِدَمُ المطلقُ؛ مثلما دَلَّ عليه اسمُ الله الأوَّل؛ أي: الذي ليس قَبلَه شيءٌ.

ب- القِدَمُ النِّسبي، كقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس:٣٩].

(٣) أي: وأحمَدُه علىٰ تواترِ نِعَمه، **والمُراد بالتَّواتر**: أي: التَّوالي والتَّتابع، ولا يزالُ العبدُ في نعمة تَتبَعُها نعمةٌ، نِعَمٌ لا تُعَد مُتَواليةً علىٰ العِباد بغير حصر، ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

(٤) كما في الآيةِ الكريمة: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

وهذا الاعترافُ بالمِنَّة ونسبتُها إلىٰ المُنعِم جُزءٌ من حمد الله تعالىٰ وشُكرِهِ علىٰ نعمائه، كما في الحديث: «**أبوءُ لكَ بِنعمَتِكَ عليَّ**» [أخرجه البخاري في صحيحه رقم: (٦٣٠٦)]. =

وكان فضلُه عليه عظيمًا، وأسأله المزيدَ من فضله(١)، والشكرَ على ما تفضَّلَ به من نعمه، إنه ذو فضلٍ عظيم(٢).

وصلَّى اللهُ على سيدنا محمد عبدِه ورسولِه، ونبيِّه، وأمينِه على وَحْيِه وعباده؛ صلاةً تكون له رضًا، ولنا بها مغفرةٌ(٣)، وعلى آله أجمعين، وسلَّم كثيرًا طيِّبًا».

أما بعدُ: فإني قائل -وبالله أَثِقُ لتوفيق الصواب من القول والعمل، ولا قوةَ إلا بالله العلي العظيم-:

= ولهذا ينبغي على العبد كلما ازدادَ علمًا ألَّا ينظرَ إلى نفسه، ولا إلى قوةِ حافظتِه وذاكرتِه، وذكائِه وجدارتِه، وغير ذلك، وإنَّما يَحمدُ الذي علَّمه ما لم يكن يَعلمُ؛ وإلا فكَم من أناس عندهُم حافظةٌ أقوى مِن حافظته، ونشاطٌ أقوى من نشاطه؛ ولم يتيسَّر لهم ما تيسَّر له، فهذا مَحضُ فضل الله ﷻ على العبد، فلا يَنس فضلَ الله ﷻ عليه.

(١) **وفي سؤاله هذا:** اعترافٌ بما تفَضَّل اللهُ به عليه من نِعَمٍ، وما يَسَّر له مِن عِلْمٍ وخيرٍ، وسُؤاله المزيدَ من فضله، فحَمِدَ اللهَ على الموجُودِ من النِّعَم، وسَأله المزيدَ.

وحمدُ الله تعالى وشكرُه على نعمائه يوصَفُ بأنه حافظٌ وجالب؛ حافظٌ للنِّعَم الموجودة، وجالبٌ للنِّعم المفقُودةِ، والله ﷻ يقُول: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

(٢) أي: وأسأله أن يوفِّقني للشُّكر، وهذا فيه أنَّ شكرَ النِّعمِ نعمةٌ من الله تعالى.

ولهذا قال الشَّافعي رحمه الله: «الحمدُ لله الذي لا يُؤدَّى شكرُ نعمةٍ من نِعَمه إلا بنعمةٍ منه تُوجب على مؤدِّي ماضي نِعَمه بأدائها، نِعمَة حادثة يجب عليه شُكرُه بها».[الرسالة ص٧].

أي: لا يُمكنُ أن تَحمَدَ الله على نعمةٍ إلا بنعمة الشُّكرِ، والشُّكرُ نفسُهُ نِعمَةٌ تستوجب الشُّكرَ.

(٣) أي: يرضى بها الله ﷻ، وتكون لنا بها مغفِرةٌ؛ أي: نحن العباد المُصلُّون المُسلِمون.

أنزلَ اللهُ ﷻ القرآنَ على نبيه ﷺ[(١)]، وأَعْلَمَهُ فضلَ ما أَنزل عليه، وأَعْلَمَ خلقَه في كتابِه، وعلى لسانِ رسوله عليه الصلاة والسلام أنَّ القرآنَ عصمةٌ لمن اعتصم به[(٢)]، وهدى لمن اهتدى به[(٣)]، وغنى لمن استغنى به[(٤)]، وحِرْزٌ من النار لمن اتَّبعه[(٥)]، ونورٌ لمن استنار به[(٦)]، وشفاءٌ لما هو في الصُّدور[(٧)]، ....

---

(١) كما وَرَدَ ذلك في آياتٍ كثيرة سيُشير المصنِّف رحمه الله إلى شيء منها.

(٢) أي: مانعٌ من الهلاك، فمن اعتصَم بالقرآن نجا وسَلِم، كما قال اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران:١٠٣].

(٣) وقد ورَدَ هذا المعنى في آياتٍ كثيرة؛ منها: قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٩].

(٤) فمَن استغنى بالقرآن عن غيره؛ كان غِنًى له.

وحقيقة الغِنى: غنى النَّفسِ، وإلا فالمالُ لا يُحقِّق الغِنى عند صاحِبِهِ؛ لأنَّ الإنسانَ -في الغالب- مهما جَمَعَ مِن المال فلا تزال نفسُهُ تتطلَّعُ إلى الزيادة.

وفي الحديثِ: «**لو كان لابنِ آدمَ وادٍ مِن ذَهَبٍ، أَحَبَّ أَنَّ له واديًا آخَرَ، ولن يملأَ فاهُ إلَّا التُّرَابُ، واللهُ يتُوبُ على مَنْ تاب**». [أخرجه البخاري:(٦٤٣٩)، ومسلم: (١٠٤٨)، واللفظ له].

(٥) أي: واقٍ من النَّار وجُنَّةٌ، لكن ليس لكلِّ أحد؛ وإنَّما لِمَن اتبع القرآنَ وعَمِلَ بهداياتِه.

(٦) كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

(٧) أي: مِنَ الأمراض مِن شُبُهات وشهوات؛ **والشُّبهاتُ** قادحةٌ في العلم والإيمان، **والشَّهواتُ** قادحةٌ في الإرادة والعمل، والقرآن شفاءٌ من هذا وهذا لِمَنْ وفَّقه الله سبحانه وتعالى لحُسن مداواةِ قلبِه بالقرآن.

وهدى ورحمةٌ للمؤمنين[(١)].

ثم أمر اللهُ الكريمُ خلقَه أن يؤمنوا به[(٢)]، ويعملوا بمحكمه: فيُحِلُّوا حلالَه، ويحرِّموا حرامَه، ويؤمنوا بمتشابهه[(٣)]، ....

---

(١) قوله: «وهُدًى»: أي: للعلم النافع، والعمل الصَّالح، وقوله: «ورحمةٌ»: فيه تنبيهٌ على ما يترتَّب على العمل بهدايات القرآن من خيرٍ وبركاتٍ وإحسانٍ وإنعامٍ في الدنيا والآخرة.

(٢) أي: بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة:١٣٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦].

(٣) فالقرآن فيه آياتٌ مُحكماتٌ، وفيه آياتٌ متشابهاتٌ، كما قال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾.

فالآيات المُحكمات، وصفها اللهُ بأنَّها أمُّ الكتاب، أي: عليها المُعَوَّل وإليها المرجع، وطريقةُ الراسخين في العلم أنهم يُرجِعُون المتشابه إلى المُحكم، فيزولُ التشابُه، فيُحِلُّون حلاله، ويُحرِّمون حرامه.

أمَّا طريقةُ أهل الزَّيغ فهي الإعراض عن المُحكم، واتِّباع ما تشابَه منه؛ لقصدٍ فاسد، ونِيَّة سيئة؛ ابتغاءَ الفتنة وابتغاء تأويله.

فأهلُ الإيمان يَعْمَلُون بمُحكَمه، ويُؤمنون بمُتشابهِهِ، ولا يَرُدُّون شيئًا من القرآن، وما اشتَبَه عليهم من القرآن اجتهَدُوا في رَدِّه للمُحكَم ليَفقهوه، وإنْ لم يتَّضِح لهم لم يُكذِّبوا بشيءٍ منه.

والتشابُه الذي في بعض آيات القرآن ليس تشابهًا مُطلقًا؛ بل هو تشابه نسبيٌّ، ينجلي أمرُه للراسخين في العلم بما آتاهم الله من بصيرة وحُسْنِ فهمٍ؛ ولهذا جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: «أنا مِنَ الرَّاسخين في العِلمِ الذين يعلمون تأويلَهُ». [تفسير ابن كثير (٢/ ١١)]. =

ويعتبروا بأمثالِه[١]، ويقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.

ثم وعدَهُم علىٰ تلاوته والعملِ به النجاةَ من النار، والدخولَ إلىٰ الجنة[٢]، ثم ندب خَلْقَه ﷻ إذا هم تَلَوا كتابه أن يتدبروه، ويتفكروا فيه بقلوبهم[٣]، وإذا سَمِعُوه من غيرهم أحسنوا استماعَه، ثم وعدهم علىٰ ذلك الثوابَ الجزيلَ، فله الحمد[٤].

= ويقول مُجاهد بن جبر رحمه الله -وهو من علماء التابعين-: «عَرَضتُ القرآنَ علىٰ ابنِ عبَّاسٍ ثلاثَ عرضاتٍ، أُوقِفُهُ علىٰ كُلِّ آيةٍ، أَسألُهُ فيما نزلَتْ؟ وكيفَ كانت؟» [أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٢٧٩].

(١) فالقرآن اشتمل علىٰ أمثال ضَرَبها اللهُ سبحانه وتعالى للناس، وهي موضعُ اعتبار وادِّكار، فعلىٰ المَرْء إذا مَرَّت عليه أن يُحسِنَ فَهمَها وعَقلَ معناها، والله سبحانه وتعالى يقُول: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

قال بعضُ السَّلَفِ: «إذا سمعتُ المَثَلَ في القُرآنِ فلمْ أفهَمْهُ بكَيتُ علىٰ نفسي؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ يقُولُ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾». [تفسير ابن كثير ١/ ٢٠٨].

(٢) فلا نجاةَ من النَّار، ولا دخول للجنَّة إلا بالاعتصام بكتاب الله العظيم، وحبلِهِ المتين.

(٣) كما قال ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [محمد:٢٤]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون:٦٨]، وقال: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩].

(٤) لكي يَحصُلَ لهم الانتفاعُ، وتتحقَّقَ لهم الفائدةُ، وذلك بحُسن الاستِماع، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

قال شيخُ الإسلام رحمه الله: «فاستماعُ آيات الله والتزكِّي بها أمرٌ واجبٌ علىٰ كلِّ أحدٍ، فإنه لا بدَّ لكلِّ عبدٍ مِن سماعِ رسالة سيِّدِهِ التي أَرسلَ بها رسولَه إليه». [«مجموع الفتاوىٰ» (١٥/ ٣٩٠)]

ثم أَعْلَمَ خلقَهُ أن مَن تلا القرآن، وأراد به متاجرةَ مولاه الكريمِ، فإنه يُرْبِحُهُ الرِّبح الذي لا بعده ربح، ويُعَرِّفُه بركةَ المتاجرة في الدنيا والآخرة».

قال أبو بكر: «جميعُ ما ذكرتُه، وما سأذكره -إن شاء اللهُ-، بيانُه في كتاب الله تعالى، وفي سنة رسوله ﷺ، ومن قول صحابته رضي الله عنهم، وسائرِ العلماء، وأنا أذكر منه ما حضرني ذِكْرُهُ -إن شاء الله تعالى-(١)، والله المُوَفِّق في ذلك.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ(٢) وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ(٣) وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ(٤) ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ(٥)﴾ [فاطر:٢٩-٣٠].

---

(١) بدأ المصنفُ رحمه الله من هذا الموضع بذِكر الأدلة على ما قَدَّمَهُ من معانٍ.

(٢) أي يتلونه حقَّ التِّلاوة، وينتظمُ في ذلك: القراءةُ، والفهمُ لما يُقرأ، والعملُ به، فكلُّ هذا يُعتبر من تلاوة القرآن، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة:١٢١]، فالتلاوةُ عملٌ بالدِّين، واتِّباعٌ للقرآن، واستمساكٌ بما جاء به.

(٣) التنصيصُ على الصلاة دليلٌ على أنها أفضلُ الأعمال، وأجَلُّ ما يكون في باب تلاوة القرآن والعملِ بالقرآن، وفي الآية عطفٌ للخاصِّ على العامِّ فإقامةُ الصلاةِ تلاوةٌ للقرآنِ؛ لأنها عملٌ بالقرآن.

قال ابنُ تيمية رحمه الله: «فاتِّباع الكتاب يتناوَلُ الصَّلاةَ وغيرها، لكن خصَّها بِالذكر لمزيَّتِها». [«العبودية» (ص٧٥)].

(٤) أي: يرجون بهذه التلاوةِ، وإقامة الصلاة، وبذل المال الذي آتاهم الله في السرِّ والجهر «﴿تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾» أي: التجارة الرَّابحة التي لا خُسران فيها.

(٥) قوله: «﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾» فما كان منهُم من سيئات فإنه يغفرُها لهم، وما كان منهم من حسنات فإنه يَشكُرها، فهو سبحانه وتعالى يَشكُر القليلَ، ويتجاوز عن الكثير.

وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (١) ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢) ﴾ [الإسراء: ٩].

---

(١) أورد ؒ هذه الآيةَ العظيمةَ في وصف القرآن، وبيانِ كمال هداياتِ القرآن، وأنَّ كُلَّ هداية في القُرآن فهي هدايةٌ للتي هي أقومُ.

وهذا فيه دلالةٌ علىٰ كمال القرآن وعظمتِه، وكمالِ هداياتِه، ومَن حَصَلَ عنده اشتباهٌ في شيء مِن هدايات القرآن فهذا راجع إلىٰ قُصُورٍ في فهمِهِ، وقلَّة في علمِهِ.

وقد كتبَ الإمامُ المُفسِّر الشيخُ محمد الأمين الشنقيطي ؒ في تفسير هذه الآية كلامًا مِن أبدع وأحسن ما يكونُ في هدايات القرآن، وأخذ يُعدِّد أشياءَ مِن هدايات القرآن، وخَصَّ بالذِّكر بعضَ الهدايات التي يشكِّكُ فيها بعضُ الناس، مثل: تعدد الزوجات، وتفضيل الرجل علىٰ المرأة في الميراث، وما يتعلق بالرِّق، وبيَّن كمالَ القرآن في هداياته بتلك الأمور، وما في ذلك مِن الخير والبركة والمنفعة، وفصَّل تفصيلات بديعة نافعة جدًّا.

[«أضواء البيان» (٣/ ١٧)].

وجمع الشيخُ عبد العزيز السَّلمان ؒ هداياتِ القرآن في ضوء هذه الآية، في كتابه: «الأنوار الساطعات لآيات جامعات»، فذكرَ ألفين وثمان مائة هداية.

(٢) في هذه الآية بيان أنَّ الناسَ مع هذه الهدايات علىٰ قسمين؛ مهتدين، وضالين، وقد ذَكَرَ اللهُ مآل كلِّ قِسم فقال: «﴿ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾»، فهؤلاء هم الذين اهتدَوا بالقرآن، وقوله ﷻ: ﴿ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ هؤلاء الذين لم يَهتدوا بالقرآن وكان جزاؤهم العذاب الأليم.

ثم أخبر ﷻ أنَّ مَن اهتدىٰ بهداية القرآن، وانتفع بها، فهدايتُه لنفسه، ومَن ضلَّ فضلالُه عليه، أمَّا الله ﷻ فلا تنفعُهُ هدايةُ مَن اهتدىٰ، ولا يضُرُّه ضلال مَن ضَلَّ، فقال: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [الإسراء: ١٥] =



وقال **وَجَلَّ**: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (١)﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال **وَجَلَّ**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ(٢) مِّن رَّبِّكُمْ (٣) وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ (٤)

= وفي الحديث عن النَّبيِّ ﷺ فيما روىٰ عن اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أنَّهُ قال: «... **يا عبادي، إِنَّكُم لن تبلُغُوا ضَرِّي فتضُرُّوني، ولن تبلُغُوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكُم وآخِرَكُم، وإِنسَكُم وجِنَّكُم، كانوا علىٰ أتقى قلبِ رجُلٍ واحِدٍ مِنكُم، ما زادَ ذلك في مُلكِي شيئًا، يا عبادي، لو أنَّ أوَّلَكُم وآخِرَكُم، وإِنسَكُم وجِنَّكُم، كانوا علىٰ أفجرِ قلبِ رجُلٍ واحِدٍ، ما نقص ذلك مِن مُلكِي شيئًا**». [أخرجه مسلم في صحيحه رقم: (٢٥٧٧)]

(١) هذه الآيةُ الكريمةُ فيها بيانُ مكانة القُرآن وعظيمِ شأنِهِ، فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعلَ فيه الشفاءَ للمُؤمنين، وخَصَّ المؤمنين؛ لأنهم يُقبِلُون علىٰ هداياته، ويحرصون علىٰ الانتفاع به، والاستشفاء بكتاب الله وَجَلَّ، بخلاف الظالمين؛ إمَّا بالإعراضِ عن الإيمان بالقُرآن أصلًا، أو بالإعراض عن العمل بكتاب الله وَجَلَّ، فإنَّهم لا ينتفعون به، ولهذا قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾؛ لأنَّ قلوبهم لم تُقبِل علىٰ القرآن، ولم تحرص علىٰ الاستشفاء به والانتفاع.

(٢) الوعظُ: هو بيانُ الحُكْمِ مقرونًا بالترغيب والتَّرهيب، فالقرآن موعظةٌ؛ لأنَّه جمع بين الأوامِرِ والنواهِي، وبين الترغيبِ والتَّرهيبِ، والبِشارةِ والنِّذارَةِ، والرجاءِ والخوفِ.

(٣) **وقوله**: «﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾» فيه زيادةُ شرفِ هذا الكتاب العظيم، وأنَّ ما فيه من وعظٍ وترغيبٍ وترهيبٍ ورجاءٍ وخوفٍ كُلَّه من الله وَجَلَّ؛ تزكيةً للعبادِ وهِدايةً وصلاحًا.

(٤) أي: شفاءٌ لما فيها مِن أسقام وأمراض، **وأمراضُ القلب نوعان:**

* مرض الشُّبهات: وهي الأمراض التي تقدح في عقيدة الإنسان وإيمانه.
* ومرض الشَّهوات: وهي التي تقدح في إرادة الإنسان وعمله.

والقرآن شفاءٌ مِن كلا المرضين.

وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (١)﴾ [يونس: ٥٧]».

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ (٢) وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (٣) ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ (٤) ....

(١) **فالهداية** بما دلَّ عليه القرآن من عِلْمٍ وعمل، **والرحمة**: بما يترتَّب علىٰ العلم بالقرآن والعمل به من آثار طَيِّبة، وثمارٍ مباركةٍ، وعوائدَ حميدة علىٰ العاملين به في الدنيا والآخرة.

(٢) لأنَّ فيه الحُجَجَ السَّاطعات، والبيِّنات الواضِحات التي تقومُ بها الحجةُ، وتزُول المعذرةُ، ولهذا فإنَّ مَن بَلَغَه القرآنُ فقد قامت عليه الحُجَّةُ؛ لقوله تعالىٰ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾،

فالقرآن بُرهانٌ، وحُجَّةٌ واضحةٌ علىٰ وجوب توحيد الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وإخلاصِ الدِّين له، وإفرادِه وحدَه جَلَّوَعَلَا بالعبادة، وهذا هو مقصودُ القرآن الذي لأجلِهِ أُنزل، وفيه براهينُ واضحةٌ ودلائلُ بينةٌ علىٰ ضرورة توحيد الله تعالىٰ، وذلك لا خفاءَ فيه ولا التباس.

(٣) أي: ضياءٌ يُهتدىٰ به، ويَستبينُ به صاحبُه طريقَ الهداية، وتنجلي عنه ظُلمات الجهل والضَّلال، والباطل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورىٰ: ٥٢].

(٤) ذكَرَ جَلَّوَعَلَا الإيمانَ به والاعتصامَ به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذه الآيةُ نظير قولِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٨٧].

والاعتصامُ بالله: هو صدقُ اللجوءِ إليه، وتمامُ التوكلِ عليهِ، وتفويضُ الأمر إليه.

وقد وردَ الاعتصام في نصوص الوحيين علىٰ وجهين:

- اعتصامٌ بالله تعالىٰ، كما في هذه الآية.

- واعتصامٌ بحبل الله، كما في الآية الثانية التي أوردها المصنِّفُ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾.

=

فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء:١٧٤-١٧٥].

وقال ﷻ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران:١٠٣]، **وحبلُ الله تعالى: هو القرآن**(١).

وقال ﷻ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ (٢) كِتَابًا مُّتَشَابِهًا (٣) مَّثَانِيَ (٤) ....

= **ولا نجاة للخَلْق إلا بهذين الاعتصامين:**

١- اعتصَامٌ بالله، بتفويضِ الأمور إليه، وحُسْنِ التوكل عليه ﷻ، وتمامِ الاستعانة به.

٢- واعتصامٌ بحبله؛ بالتَّمسك بكتاب الله وسُنَّةِ نَبيِّه ﷺ، ودينه وصراطه المستقيم.

(١) عن زيد بن أرقم رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**كتابُ الله حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السماءِ إلى الأرض**». [أخرجه الترمذيُّ (٣٧٨٨) وصححه الألبانيُّ في «الروض النضير» (٩٧٧)]

(٢) فلا أحسنَ حديثًا مِن القرآن في حُسْنِ مبانيه، وتمام معانيه ودِلَالاتِه، وكمالِ هداياتِه، فلا يتطرقُ إليه خطأٌ، ولا يأتيه الباطل مِن بين يديه، ولا مِن خَلْفِه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد.

(٣) **التشابهُ الذي وُصِفَ به القرآنُ نوعان:**

التشابُه العامُّ: وهو ما وُصِفَ به القرآنُ كُلُّه في قوله: ﴿كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾، ومعنى كونِ القرآن كُلِّه متشابهًا، أي: متجانسٌ، يُؤيِّد بعضُه بعضًا، ويَشْهدُ بعضُه بعضًا، وليس فيه تناقُضٌ ولا اضطِرابٌ، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

التشابُه الخاصُّ: كما في قوله: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾، فالمراد به: التشابُه في معاني بعض الآيات بأن يخفى على بعض الناس دون بعض؛ لكون معناها ليس ظاهرًا لكُلِّ أحد.

(٤) **قوله**: «﴿مَّثَانِيَ﴾»، أي: تُثَنَّى فيه القَصَصُ، والأخبارُ، والأوامرُ، وأوصافُ الربِّ وبيانُ عظمتِه وجلالِه؛ وتُكرَّر لتُفهَمَ وتُعقَلَ.

تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ (١) ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ (٢) ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ (٣) وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[الزمر: ٢٣].

وقال ﷻ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ (٤) لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ (٥) وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ (٦)﴾. [ص: ٢٩]

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ (٧) ....

---

(١) فالقُرآن فيه مواضِعُ تشتملُ علىٰ تخويفٍ وتهديدٍ، وقوارع وزواجر، وذكرِ العقوباتِ، والسُّخط والانتقام، والنَّار وأهوالها، فإذا قرأ أهلُ الإيمان تلك الآياتِ لَحِقَ قلوبَهم من الخوف ما لَحِقَها؛ حتىٰ إنَّ جُلودَهُم تقشعِرُّ مِن خشية الله تعالىٰ وخوفًا مِن عقوبته.

(٢) أي: لما في القرآن مِن آياتِ الرَّجاء والرَّحمة والثَّواب، فالمؤمنون مع القرآن بين الخوفِ والرجاء، وبين الرَّغبة والرَّهبة، تمرُّ عليهم آية الوعيد فيَخافون، وتَمُرُّ آيةُ الوعْدِ فيَرجُون رحمة الله، كما قال ﷻ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾[الحجر: ٤٩-٥٠].

(٣) فيه: أنَّ الهدايةَ مِنَّةٌ إلهيَّة، وتوفيقٌ ربَّاني، وتفضُّلٌ مِن الله ﷻ علىٰ مَن شاء مِن عباده، فهو يَختصُّ برحمته من يشاء.

(٤) أي: عظيمُ البركة، كثيرُ الخير والفائدة والمنفعة، فيه صلاحُ العباد ورفعتُهم في دنياهم وأُخرَاهم، فهو كتابٌ مباركٌ.

(٥) أي: يتأمَّلوا في دلالاته ليتحَقَّقَ لهم الانتفاعُ والارتفاعُ.

فالقرآن لا تتحقق الفائدةُ المرجُوَّة منه إلا بالتدبُّر، ثُمَّ تأتي الثمرةُ، وهي العملُ بالقرآن؛ فيكون المرءُ بذلك من أهل القُرآن.

(٦) فيُعمِلُون ألبابَهم وعقولَهم؛ تذكُّرًا وتفكُّرًا وتأمُّلًا في معاني القرآن ودلالاتِه.

(٧) فأنزل الله ﷻ كتابه بلسان عربي مُبين، ونوَّع ﷻ في أساليب الوعيد؛ فتارة بالتهديد وتارة بالتخويف، وهكذا.

لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ (١) أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا (٢)﴾ [طه:١١٣].

ثم إنَّ الله تعالى وعد لمَنِ استمع إلى كلامِه، فأَحْسَنَ الأدبَ عند استماعه بالاعتبارِ الجميلِ، ولزومِ الواجبِ باتِّباعه، والعملِ به، أن يبشِّرَه ﷻ منه بكلِّ خير، ووعَدَهُ على ذلك أفضلَ الثَّواب(٣)، فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ (٤) ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ (٥) فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ (٦) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ (٧)﴾ [الزمر:١٧- ١٨].

---

(١) وذلك بوقُوفهم على ما في القُرآن من وعيد وتهديد وتخويف؛ فيتَّقون اللهَ ﷻ، ويتقون عُقوبتَه، ويتَّقون يومَ الرُّجوع إليه، والنَّارَ التي أعدَّها اللهُ ﷻ للظَّالمين.

(٢) أي: تغيُّرًا وصلاحًا بذكر الله، والإقامةِ على طاعته ﷻ.

(٣) أي: أنَّ مَن أكرمه الله بحُسن الاستماع والإنصات والتأمُّل لمعاني القرآن ودلالاته وهداياته، ثم عَقَل عن الله تعالى الخطابَ، وفَهِمَ المُراد، ثُم جاهد نفسَه على العمل بالقرآن الكريم؛ كان بذلك من أهلِ القرآن الذين هم أهلُ الله وخَاصَّتُه، الذين وعدَهُم الله ﷻ بكل خير وفضل وثوابٍ في الدنيا والآخرة.

(٤) هذه البشارة تشملُ كُلَّ خير ورِفعَة وفلاح وسعادة في الدنيا والآخرَةِ. لأنَّ **القاعدة عند أهل العِلم**: أن حَذفَ المُتعَلق يُفيد العموم. [انظر: «القواعد الحِسان» للسعدي (ص٤٣)]

(٥) أي: القُرآن الكريم، أي: يُحسنُون استماعَهم للقرآن، وتَدَبُّرهم معانيه، ومُجاهدتهم لأنفسهم؛ لعَقلِ دلالاته وهداياته.

(٦) أي: يعملون به، ويقتدون بهداياته كما قال ﷻ: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [سورة الزمر:٥٥].

(٧) قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: الذين يستمعون القولَ فيتبعون أحسَنَهُ، وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾،أي: هؤلاء هُم الذين مَنَّ الله ﷻ عليهم بهذه الهِداية العظيمة، هم أُولُو العقول الرَّصينَة والألباب.

وقال ﷻ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤-٥٥].

قال محمد بن الحسين: «فكُلُّ كلام ربنا حَسَنٌ لمَنْ تلاه، ولمن استمع إليه، وإنَّما هذا -والله أعلم- صفةُ قومٍ إذا سمعوا القرآنَ يتَّبعون من القرآن أحسنَ ما يتقربون به إلى الله ﷻ**، ممَّا دلَّهم عليه مولاهم الكريمُ[(١)]، يطلبون بذلك رضاهُ، ويرجُون رحمَتَه، سمعوا اللهَ** ﷻ **قال:** ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

فكان حُسْنُ استماعِهم يبعثُهُم على التذكر فيما لهم وعليهم[(٢)]، وسمعوا اللهَ ﷻ **قال:**﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[(٣)].

---

(١) قوله: «**فكُلُّ كلامِ ربِّنا حَسَنٌ لِمَن تلاهُ، ولِمَنِ استمَع إليه**...» وذلك لأنَّ ما في القُرآن من أوامرَ ونَواهٍ مُتفاضلة؛ فهم يجاهدون أنفسَهم على ضبط الواجباتِ والفرائض والبُعدِ عن المُحرَّمات، ثم لا يكتفون بذلك، بل يبحثون أيضًا عن الرِّفعَة والعُلو في هذا الباب، فيُجاهدون أنفُسَهم على المسابقة بالخيرات، والمنافسة في فِعل الرَّغائب والمُستحبَّات، فَهُم يستمعون القولَ فيتَّبعون أحسنَه.

(٢) حسن الإنصات والاستماع والتدبر والتأمل سبيل للاهتداء بالقرآن والانتفاع به، أمَّا إذا هَذَّ القرآنَ هَذَّ الشِّعر -وسيأتي ذَمُّ من كان كذلك-، ولم يفكِّر أصلًا في أن يَعقلَ عن الله الخِطاب، فمِثْلُ هذا لا تتحققُ له هداياتُ القرآن؛ لأنَّ هداياتِ القرآن تحتاجُ من العبد إلى حُسن إنصات، وحُسن تدبُّرٍ لكلام الله ﷻ؛ ليتمَّ له بذلك عقلُ معاني القرآن، ومن ثَمَّ الاهتداء بهدايات القرآن، فيَعرف ما له وما عليه.

(٣) قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالإيمانُ بالوَعْدِ والوعيد وذكرُهُ شرطٌ في الانتفاع بالعِظات والآيات والعِبر، يستحيلُ حُصُولُه بدونه». [«مدارج السالكين» (١/ ٤٤٦)]

وقد أخبرنا اللهُ ﷻ عن الجن في حُسْنِ استماعِهم القرآنَ، واستجابتِهم لما ندبهم إليه، ثُمَّ رجعوا إلىٰ قومِهم، فوعظُوهم بما سمِعوا من القرآنِ بأحسنِ ما يكون من الموعظة(١).

قال اللهُ ﷻ: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾(٢) ﴿١﴾.....

---

(١) أورَدَ رَحِمَهُ اللهُ هذا المثالَ العظيمَ في بيان أهميَّة حُسن الاستماع للقرآن، وكيف أنَّ حُسنَ الاستماع يفتحُ للعبد –بإذن الله ﷻ– بابَ الهداية والرِّفعة في الدنيا والآخرة، فذَكَرَ قصة هؤلاء النَّفر من الجنِّ، الذين صَرَفهم اللهُ إلىٰ نبيه محمَّد ﷺ ليستمِعوا القرآن.

والنبيُّ ﷺ مبعوثٌ للثَّقلين: الإنس والجِنِّ؛ **أمَّا دعوته ﷺ للإنسِ**: فالأمر فيها واضحٌ؛ حيث كان يأتيهم في مجالسهم، وبُيوتهم، وأماكن اجتماعهم، ويدعوهم لدين الله ﷻ.

وأما الجنُّ: فهم خلقٌ آخرُ يَرَون الإنس، والإنس لا يَرونهم، ولهذا لمَّا كان مبعوثًا إلىٰ الثَّقَلَيْن، هيَّأ اللهُ ﷻ ما يتحقَّق به بلوغُ دعوته؛ فيَصرف إليه من الجنِّ مَن يستمعون تلاوتَه وكلامَه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ويَرجعون رسُلًا ودعاةً إلىٰ أقوامِهم، كما ورد في الآية.

ثمَّ لو تأملتَ في هذه الحادثة لوجدتَ أنَّ هؤلاء النَّفر من الجنِّ مكثوا لحظاتٍ قلائلَ؛ فأحسنوا الاستماع، فانتفعوا ونفعوا، وكم من إنسَانٍ سَمِعَ القرآنَ! ولكن مَن يُحسِنُ استماع القرآن؟، ومَن يُحْسِنُ التأمُّلَ والتدبُّـرَ؟!

فهؤلاء في مجلس واحد أحسنوا استماعَ القرآن؛ فبقي عملُهم العظيم، وموقفُهم الجليل ذِكرًا يُتلىٰ في كلام الله ﷻ، وتحوَّلوا إلىٰ دعاة إلىٰ دين الله وإلىٰ توحيد الله بقوة، كما سترىٰ في الآيات التي ساقها المصنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) بهذا وَصَفوا القُرآن بقولهم: ﴿قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾،أي: عجيبًا في جمال مبانيه، وكمال معانيه، وعِظَمِ دلالاته، وجمال مقاصده وغاياته، بما يُبهرُ العقولَ، ويدعو من يستمعُ إليه إلىٰ حُسنِ الإيمان والتَّصديق، وتمام الانقياد والقَبول.

﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ (١) فَـَٔامَنَّا بِهِۦ (٢) وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا (٣)﴾ [الجن:١-٢].

---

(١) وصفوه بأنه كتابُ هداية إلىٰ الرُّشدِ، **والرُّشدُ:** كلمةٌ جامعَةٌ في مدلولها، دالَّةٌ علىٰ الكمال في العِلمِ والعمل، فيما يدعو إليه من علم وما يدعو إليه من عملٍ؛ لأنَّ الرُّشدَ تارةً يُذكَرُ مقرونًا بالهداية والهدىٰ، وتارةً يُذكرُ وَحدَه كما في هذه الآيةِ.

فإذا ذُكرَ مقرُونًا بالهداية، فالهدايةُ أو الهُدىٰ يُرادُ به: العلمُ النَّافعُ، والرُّشدُ يُرادُ به: العملُ الصَّالحُ، وإذا ذُكِرَ الرُّشدُ وَحْدَه شَملَ الأمرين معًا؛ فكلمةُ الرُّشدِ كلمةٌ جامعةٌ تَجمعُ تمام العلمِ وتمام العمل.

(٢) فلم يقولوا: (ثُم آمنَّا)، بل عَطَفوا بالفاء التي تُفيد الفوريَّةَ، أي: أنَّهم أَقبلوا بسرعة علىٰ هذا القرآن والإيمان به، وتحقق لهم التأثُّرُ الفوري، والانتفاع به.

(٣) هذا دليلٌ واضحٌ علىٰ قوة إيمانِهم وتمكنِه من قُلوبهم، ويؤكِّدُ ذلك قولُهم: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ فالله ﷻ يهدي القلبَ بالقرآن، وقد يبلغ الإنسان في ذلك مرتبةً عظيمةً.

وهذا أيضًا نستفيدُ منه أنَّ الإيمانَ قد يبلغُ قوةً عظيمةً جدًّا في القلب في لحظات، إذا مَنَّ اللهُ علىٰ هذا القلب وفَتَحَ عليه حُسنَ الاهتداء بهدايات القرآن، فإنه يقف علىٰ البراهين التي تستولي علىٰ القلب، ويكون لها سلطةٌ عليه، فهؤلاء النَّفرُ ما إنِ استمعوا إلىٰ القرآن حتىٰ وُجِدَ عندهم هذا الإيمانُ القويُّ المبنيُّ علىٰ البُرهان.

وانظُر مثالًا شبيهًا بهذا وقريبًا منه: وهو إيمانُ السَّحرة الذين جَمَعَهُم فرعونُ، وكانُوا خَلقًا كثيرًا، فقال بعضُ المُفسِّرين –والله أعلم بذلك–: إنَّ عدَدَ مَن جَمَعهم من السَّحرة بلغوا سبعين ألفًا، وقيل غير ذلك [تفسير الطبري ١٦/ ١٠٧].

وكانوا من كبار السَّحرة وعتاولتِهم، وأهل الباع الطويل في السِّحر، ولكن لمَّا رأوا تلك الآيةَ الباهرةَ، والحُجةَ الظاهرةَ، والبُرهانَ القاهرَ السَّاطعَ البَيِّنَ، وهُم أهلُ خبرةٍ ودرايةٍ، يُميِّزون بين السِّحر والتخييل، وبين هذه الحقيقة التي بَهَرتهم ورَأوها.

=

وقال ﷻ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ[(١)] فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ[(٢)] ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ[(٣)] ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣١].

وقد قال الله ﷻ في سورة ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾[(٤)]، ....

= ففي أوَّل النهار في ضُحىٰ يوم الزِّينة -قيل: يوم العيد- كانوا كفرةً أشرارًا، وفي آخر النهار صاروا مُؤمنين بَرَرة، بل كان إيمانُهم أقوىٰ ما يكون، حتىٰ إنَّ فرعونَ لمَّا تهدَّدَهُم بالقتل وتقطيع الأيدي والأطراف وتصليبهم في جُذُوع النخل، لم يُبالوا بذلك التهديد، بل ثَبَتُوا علىٰ إيمانهم، وقالوا لفرعون: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾.

وهذا يفيدُ أن القرآنَ له تأثيرٌ، وهدايات القُرآن وحُجَجه لها تأثير عظيم جدًّا على القلوب، وأن الحُجةَ والبُرهانَ يستوليان علىٰ القلب؛ فيتمكَّن الإيمانُ منه تمكُّنًا عجيبًا.

(١) قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾، هذا بدايةُ التوفيقِ الإنعام؛ وهو حُسن الإنصات والاستماع.

(٢) أي: من مجلس واحد وَلَّوا إلىٰ قومهم مُنذِرين، وصاروا دُعاة.

(٣) وَصَفُوا القرآنَ بأنه يهدي إلىٰ الحقِّ وإلىٰ طريق مستقيم، فوصفوه بأنه كتاب هداية، وهدايتُه للحقِّ وإلىٰ الطريق المستقيم المُفضِي إلىٰ جنَّات النعيم.

(٤) **المجيدُ هنا**: وَصفٌ للقرآن، والمَجْدُ في كلامِ العربِ: الشَّرَف الواسِعُ.

ورجُلٌ ماجدٌ: مِفضال كثِيرُ الخيرِ شريفٌ، والمجِيدُ: فعِيل مِنهُ للمُبالغَةِ، وقِيلَ: هو الكرِيمُ الفِعال. [النهاية في غريب الحديث ٤/ ٢٩٨].

فالقُرآنُ فيه سَعَةٌ في معانيه، ودِلالاتِه، وحُجَجِه، وبيناتِه، وخيراتِه، وبركاتِه، ومنافعِه العظيمة، وفوائدِه الغزيرة؛ فهو كتابٌ مجيدٌ.

ما دلَّنا على عظيم ما خَلَقَ مِنَ السَّموات والأرض، وما بينهما من عجائب حكمته في خَلقه(١)، ثُمَّ ذكرَ الموتَ، وعظَّمَ شأنه(٢)، وذكرَ النَّارَ وعظَّمَ شأنها (٣) ، وذكر الجنة، وما أَعَدَّ فيها لأوليائه، وقال -عزَّ مِنْ قائلٍ-: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، إلى آخر الآية(٤).

---

(١) بيَّن اللهُ ﷻ في هذه السُّورة ما يدلُّ على عظَمتِه، فعَدَّد ﷻ أنواعًا من المخلوقات؛ دعوةً للعِباد أن يتفكَّروا في هذه المخلوقات، تفكُّرًا يهديهم لعَظَمة خالقِها، وكمال مُبدِعها.

(٢) كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.

(٣) كما في قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، وهذا فيه بيانٌ لسَعَة النَّار، وأنَّها مهما يُلقَ فيها تَطلب الزيادةَ، تقولُ: «هل من مزيد»، والله وعدَها أن يَملأَها، ووَعَدَ الجنَّة أيضًا أنْ يملأها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

وجاء في الحديث عن نبيِّنا ﷺ قال: «**لا تزالُ جهنَّمُ تقُولُ: هل مِن مَزِيدٍ، حتَّى يَضَعَ ربُّ العِزَّةِ فيها قَدَمَهُ، فتقُولُ: قَطْ قَطْ وعِزَّتِكَ، ويُزوَىٰ بعضُها إلى بعضٍ**». [أخرجه البخاري رقم: (٦٦٦١)، ومسلم رقم: (٢٨٤٨)، واللفظ للبخاري].

ومعنىٰ قوله ﷺ: «**فتقول: قَطْ قَطْ**»؛ أي: حسبي ويكفيني.

ومعنىٰ (**يُزوَىٰ**)؛ أي: يُجمَعُ ويُضَمُّ، فتلتقي وتنضمُّ علىٰ مَن فيها، وهذا هو امتلاؤُها.

وأمَّا الجنَّةُ فإنه يَبقَى فيها فضلٌ؛ فيَخلُق اللهُ ﷻ خَلقًا فيُسكِنُهم فضلَ الجنَّةِ، قال ﷺ: «**ولا يزال في الجنة فضلٌ حتى ينشئ اللهُ لها خَلْقًا، فيسكنَهم فضلَ الجنَّة**». [أخرجه البخاري (٧٣٨٤)، ومسلم (٢٨٤٨)، واللفظ له].

(٤) كما في قوله ﷻ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

ثم قال بعد ذلك كُلِّهِ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾(١) [ق:٣٦].

فأخبر -جَلَّ ذِكْرُه- أن المستمعَ بأذنيه ينبغي له أن يكون مُشاهِدًا بقلبه ما يتلو، وما يسمعُ؛ لينتفِعَ بتلاوته للقرآن، وبالاستماع ممن يتلوه(٢).

ثم إنَّ اللهَ ﷻ حَثَّ خلقَه على أن يتدبَّروا القرآنَ(٣)،فقال ﷻ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾(٤) [محمد:٢٤].

---

(١) أي: بعد هذا البيان الذي في أوَّل السُّورة من الدَّعوة إلى التأمُّل والتفكُّر في هذه المعاني المُوقِظَةِ للقلوب، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾، ليس لكلِّ أحدٍ، وإنَّما ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾، أي: يَعقِلُ، ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾، بالإنصات وحُسْنِ الاستماع ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾، أي: حاضر القلب، مُنتَبِهٌ، مُتيقِّظٌ.

(٢) ومن ذلك-مثلًا- قولُ حنظلة الأسدي رضي الله عنه في وصف مثل هذه الحال: «نكُونُ عِندَ رسُولِ اللهِ ﷺ يُذَكِّرُنا بالنَّارِ والجنَّةِ، حتَّى كأنَّا رأيُ عينٍ...» [أخرجه مسلم (٢٧٥٠)].

أي: كأنَّا على حالِ مَن يراها بعينه، وهذه مُشاهدةٌ بالقلب.

(٣) يُبيِّن الإمام الآجُرِّيُّ رحمه الله أهميَّةَ العناية بتدبُّر القرآن، وأنَّ التدبُّر للقُرآن مِفتَاحُ الفهم عن الله تعالى وعَقل الخِطَاب، ومِن ثَمَّ الامتثال والاتباع، فهي أمورٌ ينبَني بعضُها على بعض.

(٤) ولهذا جاء في القرآن في مواضِعَ منه حَثٌّ على ذلك، ومن ذَلكَ هاتان الآيتان اللتان ساقهُما المُصنِّف رحمه الله: وهما قول الله ﷻ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾، وقول الله ﷻ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾.

ومثلهما قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾، وقولُه تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

=

وقال ﷻ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا [(١)] ﴾.

= وقولُ الله تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾، هذا فيه حَثٌّ علىٰ تدَبُّر القرآن من أجل أن يُعقَل الخطاب عن الله ﷻ، ويُفهَم المُراد.

وقَوله ﷻ: ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾»، أي: أنَّ ما علىٰ القُلوب مِن أقفال وحُجُبٍ تحُولُ بين العبد وبين فَهم القرآن وتَدَبره، فإذا فُتِحَت الأقفالُ ورُفعت الحُجُب؛ حَصَل التدبُّرُ، و عَقْلُ الخطاب.

وفي هذا يقُول ابن القيم ؒ: «فَلو رُفعتِ الأقفالُ عن القُلوب لباشَرتها حقائقُ القُرآن، واستنارَت فيها مصابيحُ الإيمان». [«مدارج السالكين» (٣/ ٤٣٧)].

وهذه الأقفالُ والحُجُب: هي الغفلةُ والالتهاءُ بالدنيا، وعَطَبُ القلب بمرض الشُّبهة أو مرض الشَّهوة، فإنَّ هذه كُلَّها حواجزُ وحوائلُ، فتحتاج من العبدِ إلىٰ مُجاهدة للنَّفس؛ لتصفية القلب من هذه الأدران، ومُجاهدته علىٰ الاستشفاء بالقرآن، بحيثُ يتوبُ إلىٰ الله ﷻ من الذنُوب التي تُمرِض القلوبَ وتُسقِمُها، ويُجاهد نفسَه علىٰ فهم كلام الله ﷻ حتىٰ يَعقِلَ عن الله الخطابَ، وحتىٰ يعمَل بهذا القرآن الذي إنما أُنزل ليعمَلَ به.

(١) في هذه الآية أمرٌ بتدبُّر القرآنِ كلِّه؛ المُتشابه منه والمُحكَم؛ **فتدبُّر المُحكم** بفهم معناه، وعقْلِ دلالته، والعمل بهداياته.

وتدبُّر المتشابه يكون بردِّه إلىٰ المحكم ليتبيَّن معناه، وليس كما يفعل مَن في قُلوبهم زَيغٌ؛ فإنَّهم يتتبَّعون المتشابه ﴿ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ [آل عمران:٧].

وإذا كان النَّاسُ يحرصون علىٰ فهم الكتب المؤلَّفة في علوم الدُّنيا كالطِّب والهندَسَة، ونحوهما، فلا يكتفون بمجرَّد قراءتها، بل يجتهدون في فهمها علىٰ أكمل وجْهٍ؛ ليتمكَّنوا من الانتفاع بمعانيها، فكيف الأمرُ بكتابِ الله العظيم الذي أنزَلَهُ رحمَةً وشفاءً وهدايةً وصلاحًا للعِباد؟!

قال محمد بن الحسين: ألا ترون -رحِمَكُم اللهُ- إلىٰ مولاكم الكريمِ؛ كيف يحُثُّ خلقَهُ علىٰ أن يتدبَّروا كلامَه، ومَنْ تدبَّرَ كلامَه عَرَفَ الرَّبَّ ﷻ، وعَرَفَ عظيمَ سُلطانِه وقدرته(١)، وعَرَفَ عظيمَ تفضُّلِه علىٰ المؤمنين، وعَرَفَ ما عليه من فَرْضِ عبادته(٢)، فألزَمَ نفسَهُ الواجِبَ، فحَذِرَ ممَّا حَذَّرَه مولاهُ الكريمُ، ورَغِبَ فيما رَغَّبه(٣)، ومَنْ كانت هذه صفتُه عند تلاوتِه للقرآنِ، وعند استماعِه مِن غيرِه(٤)، ....

---

(١) فإنَّ أعظَم ما اشتمل عليه القرآنُ هو معرفة الله ﷻ، ومعرفة أسمائه الحسنىٰ، وصفاته العُلا.

(٢) فالأمورُ التي اشتمل عليها القرآنُ، وتدورُ عليها معانيه ثلاثة:

الأمرُ الأوَّلُ: التعريفُ بالربِّ المعبود ﷻ، وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو تعريفٌ بهِ؛ حتىٰ تُقبِلَ القلوبُ إليه تعظيمًا وإجلالًا ومحبةً ورجاءً وخوفًا.

والأمرُ الثَّاني: التعريفُ بالطَّريق المُوصِل إليه؛ باتِّباع المأمورات، واجتناب المنهيات.

والأمرُ الثَّالث: بيانُ ما أعدَّه اللهُ من ثوابٍ لمن أطاعَهُ، وعقابٍ لمن عَصاه.

فهذه مُحتويات القرآن جُملةً، وأعظمُ ما فيه: التعريفُ بالرَّب ﷻ، ولهَذا كانت سُورَة الإخلاص تَعدِلُ ثلثَ القرآن؛ لأنها أُخلِصَت لبيان صفة الربِّ سبحانه وتعالىٰ.

(٣) ولهذا يحتاجُ قارئُ القرآن أنْ يتأمَّل كتاب الله في المواضع التي ترد فيها الأوامرُ والنَّواهي، ليجتهدَ في امتثال المأمور، واجتناب المحظور.

قال عبدُ اللهِ بن مسعُودٍ رضي الله عنه: «إذا سَمِعتَ اللهَ يقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ فَأَرْعِها سَمعَكَ؛ فإِنَّهُ خيرٌ يَأمُرُ بِهِ، أو شَرٌّ يَنهَىٰ عنه». [أخرجه نعيم بن حمَّاد في الزهد (٣٦)]

(٤) فالتدبُّرُ يكونُ عند التلاوة، وعند الاستماع أيضًا، وفي جميع الأوقات؛ لتحصلَ الفائدة وتُفهمَ المعاني، ويُعقلَ الخطاب الربَّاني. =

كان القرآنُ له شفاءً[١]**، فاستغنىٰ بلا مال**[٢]**، وعزَّ بلا عَشِيرة**[٣]**، وأَنِسَ بما يَسْتَوحِشُ منه غيرُه**[٤]**، ....**

= وأولىٰ الأوقات للتَّدبر والتفكُّر في القرآن عند أداء الصَّلوات الخمس المكتوبة؛ لأنها أعظم الأركان بعد التوحيد، كما جاء في الحديث القدسي: «**ما تقرَّبَ إليَّ عبدي بِشَيءٍ أَحَبَّ إِليَّ ممَّا افترَضتُ عليه**». [أخرجه البخاري رقم: (٦٥٠٢)]

ولا شكَّ أنَّ المُجاهدةَ علىٰ تدبر القرآن في الصلاة يعتبر من أنفع الأسباب في تحقيق الخُشوع فيها، وحُضور القلب، وهذا ممَّا يُحقِّق للعبد كمالَ الثَّواب وعظيمَ الأجر في صلاته، فليس للمرءِ من صلاته إلا ما عَقَل منها.

قال شيخُ الإسلام ابنُ تَيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وما وَردَ مِن الفَضلِ لقارئ القُرآن يَتناولُ المُصلِّي أعظَمَ ممَّا يتَناولُ غيرَه». [«مجموع الفتاوىٰ» (٢٣ / ٢٨٢)]

(١) هذا تنبيه من المُصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ أنَّ الاستشفاءَ بالقرآن لا يقتصرُ علىٰ الأمراض الحسيَّة، بل الاستشفاءُ بالقرآن يعمُّ الأمراض المعنوية أيضًا؛ كأمراض الشَّهوات، والشُّبهات، والتَّفريط في الطَّاعات ... وغير ذلك من الأمراض، وتدبُّرِ كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وتأمُّلَه، والعمل بما فيه علاج لذلك كُلِّه.

(٢) قوله: «**فاستغنىٰ بلا مال**»؛ أي: أغناه اللهُ تعالىٰ بما آتاه من قُرآن وفَهمٍ له وتدبُّرٍ لمعانيه.

استغنىٰ؛ أي: كان القُرآن غنًى له، وأعظمُ الغنىٰ غنَى القلب، وغنَى القلب ثمرةٌ من ثمار فَهم القُرآن وتَدبُّرِه والعنايةِ به.

(٣) أي: كان ذا عِزَّة ومَنعة وهيبة، كما قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن خاف الله أخافَ الله منه كلَّ شيء، ومن لم يَخَف الله خافَ من كل شيء» [أخرجه البيهقي في الشعب (٢/ ٣٠٤)]

(٤) أي: لا يُصيب قلبَهُ الوحشةُ؛ لأنَّ عنده الأنسَ بكتاب الله جَلَّ وَعَلَا أينما كان وأينما حَلَّ.

وكان همُّه عند التلاوةِ للسُّورة إذا افتتَحَها: متىٰ أتَّعِظُ بما أتلو؟ ولم يكنْ مرادُه متىٰ أَختِمُ السُّورةَ؟[(١)]

وإنَّما مرادُه: متىٰ أَعْقِلُ عن اللهِ -جَلَّتْ عظمتُه- الخِطابَ؟ متىٰ أَزْدَجِرُ؟ متىٰ أَعْتَبِرُ؟[(٢)]

لأنَّ تلاوةَ القرآنِ عبادةٌ، والعبادةُ لا تكون بغفلةٍ[(٣)]، واللهُ المُوَفِّق لذلك.

---

(١) هذه علامةٌ ذكَرَها رَحِمَهُ اللَّهُ لأهلِ تدبر القرآن، فيكون مرادُهُم عندما يَبدؤون السُّورةَ: أنْ يَفهمُوا ما دَلَّت عليه، وأن يَعقِلوا الخطابَ الذي تضمَّنته، وأنْ يفهموا المُراد، وليس همُّهم متىٰ ختمُ السورة؟

(٢) لأنَّ من الناس مَن يقرأ السُّورةَ إلىٰ تمامها، ويَمُرُّ بأوامِرَ كثيرةٍ في السُّورة ويمرُّ بنواهٍ كثيرة، وكأنها لا تَعنيه، أو كأنها خطابٌ لغيره، أو ليست مطلُوبةً منه، وإنَّما المطلُوبُ منه مُجَردُ القراءة فقط لهذه الآيات.

وهذا معنىٰ قولِ الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّما أُنزِلَ القُرآنُ ليُعمَلَ بِهِ فاتَّخَذَ النَّاسُ قِراءَتَهُ عَمَلًا» [اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي ص:٧٥].

فالمَنهجُ الصحيحُ والمسلكُ القويمُ عندما يَقرَأ: هو أن يقرأ القرآن ليَعقِل عن الله مراده، ويتدبَّر هداياته، فيجعل همَّه عند التلاوة: (متىٰ أتعظ بما أتلو وأعتبر؟) ولا يكون همُّه: (متىٰ أختم السُّورة؟).

فالقُرآن فيه زواجرُ، وفيه مواعظُ، وعِبر وعِظَات، فالمقام يَحتاجُ إلىٰ مجاهدَة للنَّفس علىٰ تحقيق هذه المعاني.

(٣) بل لا بُدَّ في العبادة من حضور القلب، وقد بيَّن العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ الثِّمار والفوائد التي تُجنَىٰ من تدبُّر القُرآن، في فصل عظيم جدًّا من كتاب «مدارج السالكين» (١/ ٤٤٩)، أسوقُهُ لأهميته:

=

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَصل: وأما التأمُّل فِي القُرآن:

فهو تَحديقُ ناظِرِ القلب إلىٰ معَانيه، وجمع الفِكرِ علىٰ تَدَبُّره وتَعقُّله، وهو المقصُود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر.

قال الله تعالىٰ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩].

وقال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤].

وقال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ ﴾ [المؤمنون:٦٨].

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [الزخرف:٣].

وقال الحَسَن: «نَزلَ القُرآن ليُتَدبر ويُعمَل به، فاتَّخذُوا تلاوَته عَمَلًا».

فليس شَيء أنفعَ للعبد في معَاشه ومعاده، وأقربَ إلىٰ نجَاته: من تدبُّر القرآن، وإطالَة التأمُّل، وجَمع الفكر علىٰ معَاني آياته، فإنها تُطلع العَبدَ علىٰ معَالم الخير والشَّر بحَذَافيرهما، وعلىٰ طُرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومَآل أهلهمَا، وتتُل في يَده مفاتيحَ كنوز السَّعادة والعُلوم النَّافعة، وتُثبت قواعد الإيمَان في قلبه، وتشيد بُنيانه وتُوطِّد أركَانَه، وتُريه صُورَة الدنيا والآخرة والجنَّة والنَّار في قَلبه، وتُحْضِرُه بين الأمم، وتُريه أيَّام الله فيهم، وتُبصِّره مَواقع العِبَر، وتُشهِدُه عدلَ الله وفَضلَه، وتُعرِّفه ذاتَه وأسماءَه وصفاته وأفعَاله، وما يحبه وما يُبغضُه، وصراطه الموصل إليه، وما لسَالكيهِ بعد الوصُول والقُدُوم عليه، وقَواطع الطريق وآفَاتها.

وتُعرِّفه النفسَ وصفاتها، ومُفسدات الأعمال ومُصَحِّحاتها، وتُعرفه طريقَ أهل الجنة وأهل النار وأعمَالهم وأحوالهم وسِيمَاهم، ومَراتب أهل السَّعادة وأهل الشقَاوَة، وأقسَام الخَلق، واجتمَاعهم فيمَا يَجتَمعون فيه، وافتراقهم فيما يَفترقُون فيه.

= **وبالجُملَة**: تُعَرِّفُهُ الربَّ المَدعُوَّ إليه، وطَريق الوصُول إليه، وما له من الكَرَامة إذا قَدِمَ عَليه» ا.هـ.

فبين ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ **في الكلام السابق المحَاور الثلاثةَ التي تَدُور عليها معَاني القرآن، وهي:**

الأول: «تُعرفه الربَّ المدعو إليه».

الثَّاني: «وطريقَ الوصُول إليه».

الثَّالث: «ومَا له من الكَرَامة إذا قَدِم عليه».

ثُم قَال رَحِمَهُ اللَّهُ في تتمَّة كلامه السابق: «**وتُعرِّفه في مُقَابل ذلك ثَلاثة أُخرَىٰ**:

- ما يدعو إليه الشيطان.
- والطريق الموصلة إليه.
- وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه سِتَّة أمورٍ ضَروري للعَبد معرفتها ومُشاهدتها ومُطالعتها.

فتُشْهِدُه الآخِرَةَ حتىٰ كأنَّه فيها، وتُغَيِّبُهُ عن الدنيَا حتىٰ كأنه ليس فيها، وتُميز له بين الحَق والباطل في كل ما اختَلَفَ فيه العالَم، فتُريه الحق حقًّا والبَاطل باطلًا، وتُعطيه فُرقانًا ونُورًا يُفرِّق به بين الهُدىٰ والضلال والغَي والرشاد، وتُعطيه قوةً في قلبه، وحيَاة وسَعَة وانشراحًا وبَهجة وسُرورًا، فيَصير في شأنٍ والناسُ في شأنٍ آخَرَ.

فإن معَاني القرآن دائرةٌ علىٰ التَّوحيد وبَرَاهينه، والعلم بالله ومَا لهُ من أوصافِ الكمَال، وما يُنَزَّه عنه من سِمَات النقص، وعلىٰ الإيمَان بالرسُل، وذكر بَرَاهين صِدقِهم وأدلة صِحَّة نُبُوتهم، والتعريف بحُقُوقهم، وحُقوق مُرسِلِهم، وعلىٰ الإيمَان بمَلائكته وهُم رُسُله في خَلقه وأمرِهِ، وتَدبيرهم الأمور بإذنِهِ ومَشيئَته، وما جُعِلُوا عليه من أمر العالم العُلوي والسُّفلي، وما يختص بالنَّوع الإنساني منهم من حين يَستقر في رَحِم أمه إلىٰ يوم يُوافي ربَّه ويقدم عليه. =

حدَّثنا أبو بكر عبدُ الله بنُ محمَّد بن عبد الحَميد الواسِطيِّ قال: ثنا زيدُ بن أَخْزَم قال: ثنا محمدُ بنُ الفَضْل قال: ثنا سعيدُ بن زيد عن أبي حَمْزَةَ عن إبراهيمَ عن علقَمَةَ عن عبد الله يعني ابن مَسْعود قال: لا تَـنـثُرُوه نَثْرَ الدَّقَل[1]، ....

= وعلىٰ الإيمان باليَوم الآخر، وما أعدَّ الله فيه لأوليائه من دَار النَّعيم المُطلَق التي لا يَشعُرون فيها بألمٍ ولا نَكدٍ ولا تَنغيص، وما أعَدَّ لأعدائه مِن دار العِقاب الوَبيلِ التي لا يُخالطها سُرور ولا رخَاء ولا راحَة ولا فرح، وتفَاصيل ذلك أتَم تفصيل وأبينه.

وعلىٰ تفاصيل الأمر والنَّهي، والشَّرع والقَدَر، والحَلال والحَرام، والمَوَاعظ والعِبَر، والقصص والأمثال، والأسباب والحِكَم، والمبادئ والغاياتِ في خلقه وأمرِهِ.

فلا تزالُ معَانيه تُنهِضُ العبد إلىٰ ربِّه بالوَعد الجَميل، وتُحذِّره وتُخوِّفه بوَعيده من العَذاب الوَبيل، وتَحُثه علىٰ التضَمُّر والتخفف للقاء اليَوم الثقيل، وتَهديه في ظلم الآراء والمَذاهب إلىٰ سَوَاء السبيل، وتصُدُّه عن اقتحَام طُرُق البدَع والأضَاليل، وتَبعَثُه علىٰ الازديَادِ من النِّعم بشُكر ربِّه الجَليل.

وتُبصِّره بحُدودِ الحَلالِ والحَرام، وتُوقفه عليها لئَلَّا يتعدَّاها فيقَع في العناء الطويل، وتثبت قَلبه عن الزَّيغ والمَيلِ عن الحق والتَّحويل، وتُسهِّل عليه الأمور الصعَاب والعَقبات الشاقَّة غايةَ التسهيل، وتُناديه كلما فَترَت عزَمَاته ووَنَىٰ في سَيره: تقدم الرَّكبُ وفاتك الدَّليل، فاللحَاق اللحاق والرَّحيل الرَّحيل.

وتَحدو به وتَسير أمامه سيرَ الدليل، وكلمَا خرج عليه كَمينٌ من كمَائن العدو أو قاطع من قُطَّاع الطريق، نادَته: الحَذر الحَذر، فاعتَصِم بالله واستَعِن به، وقُل: حَسبي الله ونعمَ الوَكيل.

وفي تأمُّل القُرآن وتَدَبره وتفَهُّمه أضعَاف أضعَاف ما ذَكرنَا من الحِكَم والفَوَائد». اهـ

(١) أي: لا تنثروا القُرآن **نثرَ الدَّقَل؛ والدَّقَل هو**: التَّمر اليابس، وإذا كان الدَّقَلُ الذي هو التمر اليابس في عِذقِه ثُم هُزَّ العِذقُ بشِدَّة انتثَر التمرُ الذي فيه. =

ولا تَهُذُّوه هذَّ الشِّعْرِ[(١)]، قِفُوا عند عجائبِه[(٢)]، وحرِّكوا به القُلوبَ[(٣)]، ولا يكن هَمُّ أحدِكم آخرَ السُّورة[(٤)]».

= أي: لا يكُن شأنُكم مع القرآن كمَثَلِ الذي بيده عِذقٌ يابس -وهو من رديءِ التمر-، ثمَّ نَفَضَهُ بشدَّة، فإنَّه سيتناثر ويتساقط هنا وهناك.

ومقصوده: الحثُّ علىٰ العناية بآيات القرآن، وتدبُّرِها علىٰ مهلٍ؛ وألا تُقرأ علىٰ عجلٍ دون تفكُّر وتعقُّل لمضامينها.

(١) بأن يُؤتَىٰ به بِسُرعة وهَذرَمَة؛ والتي لا ينتفع معها بالقراءة، وقد تسبب خللًا في الحروف.

(٢) لأنَّ القرآن مَليءٌ بالعَجائب في عِظَم دَلالاته ومَعانيه ومَقاصده وجمال حُجَجِه وقوَّتها.

(٣) أي: حَرِّكوا قُلُوبَكُم بقراءة القُرآن، ولا يمكنُ للقلوب أن تتَحرَّك إلا بتَدبُّر القُرآنَ.

(٤) أي: عندما يبدَأ التلاوة لا يكن هَمُّه: متىٰ أختمُ السورة؟، وليكن همُّه: متىٰ أعقل وأتعظ وأنتفع وأزدَجر وأعتبر؟

وصحَّ أنَّ رَجُلًا قال لابنِ مَسعُود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِنِّي لَأَقرأُ المُفَصَّلَ فِي ركعَةٍ، فقال عبدُ اللهِ: هذًّا كهذِّ الشِّعرِ! إِنَّ أَقوامًا يقرَؤون القُرآنَ لا يُجاوِزُ تَراقِيَهُم، ولكِن إذا وقعَ فِي القَلبِ فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعَ...» [أخرجه مسلم في صحيحه رقم:(٨٢٢)].

فهذا يعني أن الرَّجُلَ يقرأ قراءةً سريعَةً مُتعجِّلةً قد تخلُو من التدبُّر والتفكُّر وفهم المعاني، فقال له ابنُ مَسعُود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «هذًّا كهَذِّ الشِّعر! إنَّ أقوامًا يقرَؤون القرآنَ لا يجاوزُ تَراقِيَهم».

وهذا وَصفٌ وَصَفَ به النبيُّ ﷺ الخوارجَ، فقال ﷺ للصَّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: «**يَخرُجُ فيكُم قَومٌ تحقِرونَ صلاتَكم مع صلاتِهم، وصِيامَكُم مع صِيامِهِم، وعملَكُم مع عملِهِم، ويقرؤون القُرآنَ لا يُجاوِزُ حناجِرَهُم، يمرُقُونَ من الدِّينِ كما يَمرُقُ السَّهمُ منَ الرَّمِيَّةِ...**» [أخرجه البخاري (٥٠٥٨) ومسلم (١٠٦٤) واللفظ للبخاري].

المقصود: أنَّ قراءَتهم أكثر من قراءة الصَّحابة، لكن لا حظَّ لهم من القرآن تدبُّرًا وعملًا.

وحدَّثنا أبو بكر أيضًا، قال: ثنا الحسنُ بنُ محمد بن الصبَّاح الزَّعْفراني، قال: ثنا عبدُ الوهاب بن عطاء، قال: سمعتُ أبا عُبَيدةَ النَّاجي يقول: إنه سَمِعَ الحَسَنَ يقول: الْزَمُوا كتابَ الله ﷻ[(١)]، وتتبَّعُوا ما فيه مِنَ الأمثال[(٢)]، ....

---

(١) أي: الزموه تَدَبرًا وتأمُّلًا ومُجاهدة للنَّفس علىٰ فَهمه والعَمَل به.

(٢) وذلك لأن الله ﷻ ضَرب فيه من أنواع الأمثال الكثير، وأعظمُها في بيان التَّوحيد، وفي القُرآن أمثالٌ كثيرةٌ جدًّا خاصَّة في بيان التوحيد الذي هو أعظم مَقصد وأجَل مطلب، كما دَعا ﷻ عبادَهُ في كتابه إلىٰ حُسن التأمُّل في هذه الأمثال، وحُسن الاستماع، مثل قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ [الحج:٧٣].

ومثل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٥]، ونظائر ذلك في القُرآن من الأمثال كثيرةٌ جدًّا، وقال ﷻ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾.

وانظر إلىٰ تَمثيل الإيمان وحاله في قلبِ المُؤمن بالنَّخلة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

فإذا أردتَ أن تعرف الإيمانَ ورسُوخ أصله في قَلب المؤمن، وامتداد فرعه، وتنوع ثمراته، وتَفَرع فروعه؛ فانظر إلىٰ النخلة التي جَعلها الله ﷻ مثلًا للمُؤمن.

فعن عبد اللهِ بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال: بينا نحنُ عِندَ النَّبيِّ ﷺ جُلُوسٌ إذا أُتِيَ بِجُمَّارِ نخلَةٍ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ مِنَ الشَّجَرِ لما برَكتُهُ كبركَةِ المُسلِم**، فظننتُ أنَّهُ يعني النَّخلَةَ، فأَردتُ أَن أقُولَ: هيَ النَّخلَةُ يا رسولَ اللهِ، ثُمَّ التَفَتُّ فإذا أنا عاشِرُ عَشَرَةٍ أنا أَحدَثُهُم فَسَكَتُّ، فقال النَّبيُّ ﷺ: **هي النَّخلَةُ**» [أخرجه البخاري (٥٤٤٤)، ومسلم (٢٨١١)، واللفظ للبخاري]. =

وكونوا فيه مِن أهل البَصَر(١).

ثمَّ قال: رَحِمَ اللهُ عبدًا عَرَضَ نفسَهُ وعمَلَهُ على كتابِ الله تعالى(٢)**، فإن وافقَ كتابَ الله حَمِدَ اللهَ، وسألَه الزِّيادةَ**(٣)**، وإن خالفَ كتابَ الله -جَلَّتْ عظمَتُه- عَتَبَ نفسَهُ، ورَجَعَ من قَريب»**(٤).

= وفِي رواية: «**أَخبِروني بِشجَرَةٍ تُشبِهُ -أو: كالرَّجُلِ- المُسلِمِ، لا يَتَحاتُّ ورقُها، ولا ولا ولا، تُؤتِي أُكلَها كُلَّ حِينٍ**»، قال ابنُ عمرَ: فوقعَ فِي نَفسي أَنها النَّخلَةُ، ورأَيتُ أبا بكرٍ، وعمرَ لا يتكلَّمانِ، فكَرِهتُ أَن أتكَلَّمَ، فلمَّا لم يقولُوا شيئًا، قال رسولُ اللهِ ﷺ: **هِيَ النَّخلَةُ**». [أخرجه البخاري (٤٦٩٨)، ومسلم (٦٤)، واللفظ للبخاري].

فَحَثَّ رحمه الله هنا على تأمُّل أمثالِ القرآن؛ لِما في تأمُّلها من فائدة عظيمة، وثَمَرة كبيرة؛ لأن من شأن المَثَل أن يجعل الأمورَ المعنوية بمثابة الأمور الحِسِّية المُشاهدة، فيجعله كالواقع الذي تراه.

وقد جمع العلامةُ ابن القيِّم رحمه الله أمثالَ القرآن في كتابه «إعلام الموقعين» وشرحها شرحًا نافعًا نفيسًا.

(١) قوله: «**وكُونوا**» أي: في القُرآن وفي تلاوَتكم له من أهل البَصَر؛ أي: الذين يَستبصرُون، وهم مَن لَهُم بَصيرة وفَهم وعَقل لكلام الله سبحانه وتعالى.

(٢) هذه طريقَة عَظيمَة جدًّا في إصلاح النَّفس وتَزكيتها؛ أن يَعرِضَ المَرءُ نفسَه على القرآن.

(٣) يعني: إن وجَد أقوالَه وأعماله مُوافقةً لكتاب الله؛ «**حَمِدَ الله وسأله الزيَادَة**»؛ مِن فَضله.

(٤) أي: حاسَبها وعاتبها ورجع؛ لأن عنده فُرصةً لمُعاتبة النفس ومُحاسبتها، فإن كان من النَّوع الأوَّل؛ حَمِدَ الله سبحانه وتعالى، وسأل الله المَزيد من فضله، وإن كان عندَه تَفريط أو تَقصير عاتَبَ نَفسَه ورجَع من قَريب.



حدَّثنا أبو عبد الله أحمدُ بن الحسن بن عبد الجبار الصُّوفي قال: ثنا شجاعُ بن مَخْلد ثنا ابن عُلَيَّة قال: ثنا زِياد بن مِخْراق، عن معاويةَ بن قُرَّة، عن أبي كِنانة: «أن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه جَمَعَ الذين قرؤوا القرآن، وهُمْ قَرِيبٌ من ثلاث مائة، فعَظَّمَ القرآنَ(١)، وقال: إنَّ هذا القرآنَ كائنٌ لكم ذُخْرًا(٢)، وكائنٌ عليكم وِزْرًا(٣)، فاتَّبِعوا القرآنَ، ولا يَتَّبِعْكم، فإنه مَنِ اتَّبعَ القرآنَ هَبَطَ به إلى رِياضِ الجنة(٤)، ....

---

(١) أورد رحمه الله هذا الأثر عن أبي مُوسىٰ الأشعري رضي الله عنه: أنه جمَع الذين قرَؤوا القرآن -وهم قريب من ثلاث مائة- فعَظَّم القُرآن.

وهذا يُستفادُ منه: أن الطلابَ الذين يجتمعون علىٰ حِفظِ القرآن، ويُوفَّق من يُوفَّق منهم لخَتم القُرآن حفظًا: يحتاجون إلىٰ مثل هذا الوَعظ وهذا التَّذكير وهذا التَّنبيه؛ لأن القرآن كما قال صلى الله عليه وسلم: «**والقرآنُ حُجَّةٌ لَكَ أو عَلَيكَ**» [أخرجه مسلم (٢٢٣)]

وقالَ قتادَةُ رحمه الله: «لَم يُجالِس هذا القُرآنَ أَحَدٌ إلَّا قامَ عَنهُ بِزيادَةٍ أَوْ نُقْصانٍ».

أي: زيادَةٌ في الإيمان، أو نُقصانٌ في الإيمان، زيادةٌ في الإيمان إنْ أقبلَ على القرآن وائتَمَر به وعَمِلَ به، وإلا قامَ منه بنُقصان؛ لأنه يَرىٰ الأوامرَ ويَرىٰ النَّواهيَ ولا يُبالي، وكأنها لا تَعنيه؛ فيكُون ما قَرأه حُجَّةً عليه.

(٢) أي: يوم تَلقَون اللهَ تعالىٰ تَجدُون أجرَهُ وثوابه، تَجدون عظيم المآب وجميلَ الثواب؛ لأنه ذُخر لكم عند الله تبارك وتعالى.

(٣) فهو وزرٌ باعتبار آخر؛ فمَن عَظَّم القرآنَ وتَدبَّره وعَمل به؛ كان القُرآنُ له ذُخرًا، ومَن أعرَضَ عن القُرآن، وعن العَمَل به، وعن تَدَبُّره، وكان حَظُّه من القُرآن مُجرَّد التلاوة؛ لا يتَّعظ ولا يَنزجِرُ؛ كان عليه وزرًا.

(٤) فهُمَا رجُلان: إما رَجل **اتَّبعَ القُرآنَ**؛ أي: تَدَبُّرًا وامتثالًا، أو **اتَّبعَه القُرآنُ**؛ أي: بما تضَمَّنَه القُرآن من وعيدٍ.

=

ومن اتَّـبَعه القرآنُ زَجَّ في قفاه(١)، فقذفَه في النَّار».

أخبـرنا أبو محمد يحيىٰ بن محمد بن صاعد: أنا الحسين بن الحسن المَرْوَزي أنا ابنُ المبارك أنا سالم المَكيُّ، عن الحسن قال: مَن أحبَّ أن يعلمَ ما هو؛ فليَعْرِضْ نفسَه علىٰ القرآن(٢)».

وحدثنا أبو محمد أيضا: حدثنا الحسين قال: حدثنا عبد الله قال: حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء وقَيس بن سعد، عن مجاهد في قول الله تعالىٰ: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة:١٢١]، قال: «يعمَلُون به حقَّ عملِه(٣)».

= فالقرآنُ فيه وعيدٌ وعُقوبات ذَكَرها الله ﷻ في كتابه، وتَهدَّد بها مَن خالف أمرَه، فمن لم يَعمل بتلك الأوامر، ويَنزجِر عن تلك النَّواهي التي رآها وشاهدها؛ اتَّبعَه القرآن.

(١) قوله: «**ومَن اتَّبعَه القُرآنُ**»، يعني: أنه يقرَأ القرآنَ ولكنه لا يعمَل بما فيه؛ فيَرىٰ النَّواهي التي في القُرآن؛ وعليها الوعيد الشَّديد ولا ينتهي، فاتَّبَعَه القرآن بقَوارعه وزَواجره وتَهديده ووعيده والعقوباتِ التي ذُكِرَت، «**زَجَّ في قفاه**»؛ أي: دفعَهُ من قفاه، «**فقَذَفه في النَّار**».

(٢) قوله: «**مَن أَحبَّ أَن يَعلَمَ مَا هُوَ**» أي: ما حظُّه من الإيمَان، وما قَدرُه من الدِّين، وما مَكَانته، وما مَنزلته، وما شأنُه، فَليَعرِض نفسَه علىٰ القرآن:

فمِن خِلال عَرضِه نَفسَه علىٰ القرآن يَعرفُ مَن هو، فإذا وجَد نفسه عامِلًا بالقُرآن، ومُوَافقًا لمَا في القُرآن؛ فَليَحمد الله علىٰ فَضله عليه، وليسأله المَزيدَ من فَضله.

(٣) فسَّر مُجَاهد رَحِمَهُ اللهُ التلاوةَ بالعَمَل، وجاء نحو هذا المعنىٰ عن عِكرِمَةَ رَحِمَهُ اللهُ قال فِي قَوْلِهِ: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾: «يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِهِ، أَمَا سَمِعتَ قَولَ اللهِ تعالىٰ: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾؟ قَالَ: إِذَا تَبِعَهَا» [«تفسير الطبري» (٢/ ٤٩٢)]، فمن معاني التلاوة أيضًا: الاتباع.

فقولُه تعالىٰ: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾؛ أي: يَعملون به ويَتَّبعونه. =

أخبرنا أبو عبد الله أحمد بنُ الحسن بنِ عبد الجبار الصُّوفي قال: حدثنا شُجاع بن مَخْلد قال: حدثنا أبو معاوية الضَّريرُ، قال: حدثنا عبدُ ربِّه بنُ أيمن، عن عطاء قال: «إنَّما القرآن عِبَرٌ[(١)]».

وقبلَ أنْ أذكرَ أخلاقَ أهلِ القرآن، وما ينبغي لهم أن يتأدَّبوا به؛ أذكُرُ فضلَ حَمَلةِ القرآن، ليرغَبُوا في تلاوته، والعملِ به، والتواضُعِ لمَنْ تعلَّمُوا منه، أو عَلَّمُوه[(٢)].

= **ومعلومٌ أنَّ الاتباع يسبقُه أمران:** القراءة، والتدَبُّر للقُرآن، فإذا حَصَلتِ القراءةُ وحصلَ التدبُّرُ: أثمَر بإذن الله ﷻ العملَ والامتثالَ للقُرآن الكَريم.

فالعملُ بالقرآن يُعَد تلاوةً للقُرآن، إذا صَلَّيتَ فصلاتك تلاوةٌ للقرآن، وإذا صُمتَ فصيامك تلاوةٌ للقرآن، وإذا حججتَ بيتَ الله واعتمرتَ، فحَجُّك واعتمَارُك تلاوةٌ للقرآن، وإذا تصدَّقتَ، وبَرَرتَ والديك، ووَصَلتَ رحمَك، وصدقتَ في حديثك كُلُّ هذا يُعَدُّ تلاوةً للقرآن.

فليسَت التلاوةُ مُجرَّدَ القراءة لحُرُوفه، ولا مُجَرَّدَ الفَهم لمعانيه؛ بل أيضًا العملُ بالقرآن، فالعملُ بالقرآن يُعَد تلاوة للقُرآن.

(١) قوله: «**إنَّما القُرآن عبر**»، أي: فيه مَواعظ وعِبر؛ فيه مَا يعتبر به المُعتبِر، ويتَّعظ به المُتَّعظ، كما قال تعالىٰ: ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ** ﴾ [يوسف:١١١].

ولكن الاعتبارَ بعِبَر القرآن، والاتِّعاظَ بمَوَاعظه لا يتَهيأ لكُل أحدٍ، ولا يَحصُل لكُلِّ أحَد؛ وإنما يحصُل لمَن وَفَّقه الله لحُسن التدبُّر للقُرآن عند تلاوَته، أو عندَ سَمَاعه.

(٢) يعني: بين يَدَي ذِكرِ أخلاقِهم أَذكُر شيئًا من النصُوص والأدلَّة في فَضل حَمَلة القُرآن؛ تحفيزًا للهمم، وتَقويَةً للرَّغبة في تلاوَة القرآن، والعمل به، والتَّواضع لمن تَعَلَّمُوا منه أو عَلَّموه.

بابُ فَضْل حَمَلَةِ القرآن[١]

حدَّثنا أبو العباس حامِدُ بن محمد بن شُعيب البَلْخيُّ قال: ثنا يعقوب الدَّورقيُّ: ثنا عبد الرحمن بن مَهْدي، عن عبد الرحمن بن بُـدَيل، عن أبيه، عن أنس بن مالك ﵁ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لله مِنَ الناس أَهْلُون» قيلَ: مَنْ هم يا رسولَ الله؟ قال: «أهلُ القرآن: هُم أَهْلُ اللهِ وخاصَّتُه».

أخبرنا أبو بكر عبدُ الله بنُ محمد بن عبد الحَميد الواسِطيُّ: ثنا زِياد بنُ أيوبَ: ثنا أبو عُبيدة الحَدَّاد: ثنا عبد الرحمن بن بُدَيل، عن أبيه، عن أنس بن مالك ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لله أَهْلِين» قيلَ: مَنْ هم يا رسول الله؟ قال: «أهلُ القرآن هُمْ أهلُ

(١) عقد الإمام الآجري ﵀ هذه التَّرجمة بيَانًا لمَا لحمَلة القرآن من فضَائل عظيمَة، ومنَاقب جَليلة دَالَّة علىٰ عظيم مَكَانتهم، ورَفيع منزلتهم، وعُلوِّ قَدرهم، وما يَنَالُونه علىٰ حَملهم لكتاب الله ﵎ من أجورٍ عظيمة، وخيراتٍ عَمِيمَة في الدنيَا والآخرة.

والمراد بقَوله: «فضلِ»، أي: فضَائل حملة القرآن؛ لأنَّ المُفرَد إذا أُضيف يُفيد العموم.

وقوله ﵀: «حَمَلة القُرآن»: لا يُراد بحَمَلة القرآن من حَفظُوا حروفَه حفظًا مجرَّدًا عن الفَهم والعَمل، وإنَّما يُراد بهم: أهله عِلمًا وعملًا، العَالِمُون بالقرآن، العَامِلون به، وأمَّا مَن أقام حروفَهُ، ولكنَّه أضاع حدودَ القرآن، وأهملَ العمل به؛ فلا يكونُ من أهله.

وقد قال الله ﷻ عن اليَهُود: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ [الجمعة:٥]، أي: لم يَعمَلوا بها، فسَمَّىٰ عدمَ العَمل بها عدَمَ حَملٍ لها، فعُرِف بذلك أنَّ الحَملَ لا يَكُون بمُجَرد حفظِ حُروفه مع تضييع حُدُوده؛ بل لابد من العمل.

ولهذا؛ تأمَّل قَول الله ﷻ لنبيِّه نوح ﵇ فيما يتعلَّق بابنه: ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ﴾ [هود:٤٦]، وفي قِراءة: ﴿إِنَّهُۥ عَمِلَ غَيرَ صَـٰلِحٍ﴾، فلم يجعلْهُ اللهُ من أهله؛ لأنه لم يعمل العمل الصالح.

الله وخاصَّتُه»(١). [أخرجه أحمد (١١٨٧٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢١٦٥)]

---

(١) ثم أورَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ حديثَ أنس بن مَالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من طريقَين أنَّ رسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لله مِنَ النَّاسِ أهلُونَ»، وفي الرِّوايَة الأُخرىٰ قَالَ: «إنَّ لله أهلِينَ» قال الصحَابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: من هُم؟

أي: مَن هُم هؤلاء الذينَ يُوصَفون بأنهم أهلُ الله، والذين هم خاصة الله جَلَّ وَعَلَا؟

فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَهلُ القُرآنِ هُم أَهلُ اللهِ وَخَاصَّتُه»، أي: مَن كانوا مِن أهلِهِ عِلمًا وعملًا، ولا يكون المرءُ من أهل القرآن إلا بالجمع بين العلم والعمل -كما تقدَّم-.

فَلَو وُجِدَ -مثلًا- شخصٌ حَفظَ آيات التَّوحيد؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزمر:٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء:٣٦].

ثمَّ هو في بعض دعائه ومناجاته يتوجَّه إلىٰ غير الله مُستغيثًا وسَائلًا وطالبًا ومُلتجِئًا، فلا شكَّ أنَّه ليس من أهل تلك الآيات السابقة التي يحفظها.

ولو أنَّ شخصًا حفظَ الآياتِ الآمِرة بإقامَة الصَّلاة والمُحَافظة عليها، كقوله تعالىٰ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨].

وقوله تعالىٰ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النور:٣٦-٣٧].

ثم يتهَاونُ بالصَّلاة؛ فيُصلِّي ويُضَيِّع، أو يتهَاون بصَلاة الجمَاعة، فلا يشهد جمَاعة المسلمين، فإنَّه لا يكون من أهلها حقًّا وصِدقًا.

وهكذا الأمر في آياتِ برِّ الوَالدَين، وصِلَة الأرحام، كقوله سُبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ

= ﴿ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [الرعد:٢١]. وقوله سبحانه: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ [محمد:٢٢] ونظائرها من الآيات.

فلو حفظها وهو عَاقٌّ لوالدَيه، وقاطِع لذوي الرَّحم، فأنَّى له أن يكون من أهل تلك الآيات التي حفِظَ حروفها!!

وهكذا في الآيات الآمِرَة بالصِّدق والآيات الآمِرَة بالأمَانَة، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء:٥٨].

ثم لا يكُونُ صَادقًا، ولا يكُونُ أَمينًا، فهذا ليس من أهلها -ولو ضبط حفظها، وأتقن تجويدها وترتيلها-؛ لأنه لم يعمل بها.

ونظائِر هذا كَثيرةٌ جدًّا، فالقرآنُ لم يُنزَّل لمُجَرد إقامة حُرُوفه، وحفظه حفظًا مُجَردًا؛ بل أُنزل ليُفهم وليُعمَل به.

فالمراد بقوله في الحَديث: «**هُم أهلُ الله وخَاصَّته**»، أي: الذِين يعمَلون به.

ولهذا جاء في «الصحيح» حَديثٌ مُفسِّرٌ لهذا الحديث ومُبين له، وهو حديث النَّواسِ بنِ سَمعَانَ ﵁: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**يُؤتَى بِالقُرآنِ يوم القيامةِ وأَهلِهِ الذين كانوا يعملون بِهِ تَقدُمُهُ سُورَةُ البقرةِ، وآلُ عِمرانَ**». [أخرجه مسلم (٨٠٥)]

فقوله: «**يؤتى بالقُرآن يومَ القيامة وأهلِهِ**»، أي: ويُؤتى بأهلِهِ، «**الذين كانُوا يعملُون بهِ**»: فعُرِف من ذلك أنَّ المرءَ لا يكونُ من أهل القُرآن إلا إذا عَمل به.

قال الإمامُ ابن القيِّم ﵀ في تَقرير هذا المَعنى: «ولهذا كان أهلُ القرآن هم العَالِمُون به، والعَامِلُون بما فيه، وإن لم يَحفَظُوه عن ظَهرِ قَلب، وأمَّا من حَفِظَه ولم يَفهَمه، ولم يَعمَل بمَا فيه فَلَيس من أهلِهِ، وإن أقَامَ حُرُوفَه إقامَةَ السَّهم». [«زاد المعاد» (١/ ٣٢٧)]. =

حدثنا أبو جعفر أحمدُ بن يحيىٰ الحُلوانيُّ قال: ثنا يحيىٰ بن عبد الحميد الحمانيُّ: ثنا حمادُ بن شعيب، عن عاصم، عن زِرٍّ، عن عبد الله بن عمرو ﵄، عن النبيِّ ﷺ قال: «يُقال لصاحِبِ القرآنِ[(١)] يومَ القيامة: اقْرأْ[(٢)] وارْقَ في الدَّرجات[(٣)] ورتِّل كما كنتَ ترتِّلُ في الدنيا[(٤)]

= أي: وإن حفظَه حفظًا مُتقنًا؛ بأن يَقرأَ القرآن من أوَّله إلىٰ آخِره لا يُسقط منه حَرفًا، فإنه بذلك لا يكونُ من أهله ما لم يكُن عاملًا بالقُرآن الكريم.

فالحاصِلُ: أنَّ أهل القُرآن الذين هم أهلُ الله وخَاصَّتُه، هُم مَن أكرَمَهُم الله ﷻ بالجَمع بين العلم بالقرآن؛ معَانيه ودِلالاته، والعمل بالقُرآن، ومجَاهدة النفس علىٰ الائتمار بأوامره، والانتهاء عن نَوَاهيه، والقُرآن إنما أُنزل ليُعمَلَ به.

(١) **صَاحب القُرآن**: هو من يُلازِمُ القرآن عنَايةً بتدبُّره؛ وعنايةً بالعمل به، يَقرأ القرآن، ويَتَّبعُ القرآنَ ائتمَارًا وامتثالًا، فهَذه هي الصُّحبة لكتاب الله تعالىٰ.

(٢) **قوله**: «اقْرَأْ»: أمرٌ بقراءة القرآن، وهذا الأمرُ له بقراءة القرآن في الجنَّة، فيُؤمر في الجنَّة بأن يَقرأَ القُرآن، ومن المَعلُوم أنَّ الجنَّة ليسَت دَارَ تكليفٍ، وإنمَا هي دارُ تَنَعُّم ونَيل الثواب؛ ولهَذا قال أهلُ العلم: إنَّ أمرَ صَاحب القرآن بقراءة القرآن إنَّما هو قراءَةٌ علىٰ وَجه التَّنعُّم والتلذُّذ، فهو يقرأ مُتنَعِّمًا مُتلذِّذًا، يقرأ ويَرقَىٰ في دَرَج الجنة، مثلمَا يُلهَمُون التسبيحَ وذِكرَ الله ﷻ في الجنَّة.

(٣) أي: في دَرَجَات الجنَّة، وهذا فيه تفَاضُل أهلِ الجنَّة في دَرَجات الجنة بحَسبِ أعمالهم، ومن جُملة أعمَالِهم: عنايتُهم بالقُرآن، ولهَذَا قال الله ﷻ: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾.

(٤) أي: لا تستعجل في القراءة، ولا تَهُذَّ القراءة للقُرآن هَذًّا، ولكنِ اقْرأ ورتِّل كما كنتَ تُرتل في الدنيا، وهذا من تَوفيَة الأعمال للعباد، بالدرَجات ورِفعَة منَازل في جنات النَّعيم، فكُلٌّ بحسب عمله، فقرَاءة القرآن وتَدَبُّره، ومُجَاهَدَة النفس علىٰ العمل به؛ مِنْ جملة العمل الذي يرتقي به العبدُ في درج الجَنة. =

فإنَّ منزلتَك عندَ آخر آيةٍ كنتَ تقرؤُها».

وأخبرنا أبو عبد الله أحمدُ بن الحسن بن عبد الجبار الصُّوفي قال: ثنا شجاع ابن مَخْلد: ثنا الفَضْل بنُ دُكَين ثنا سفيان، عن عاصم، عن زِرٍّ، عن عبد الله بن عمرو ﭭ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**يُقالُ: اقْرأْ وارْقَ ورَتِّل كما كنتَ ترتِّلُ في الدنيا، فإنَّ منزِلَك عندَ آخر آيةٍ كنت تقرؤُها**» [أخرجه أبو داود (١٤٦٤) وصححه الألباني].

قال محمد بن الحسين: ورُوِيَ عن أمِّ الدَّرداء[(١)] أنها قالت: سألتُ عائشةَ ﭫ عمَّن دَخَلَ الجنةَ ممَّن قرأَ القرآنَ: ما فَضْلُهُ على مَن لم يَقْرَأْهُ؟ فقالت عائشةُ: «**إنَّ عددَ دَرَجِ الجنَّة بعدَدِ آي القرآن، فمَنْ دَخَلَ الجنة ممَّن قرأَ القرآنَ فليسَ فوقَه أحَدٌ**». [أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٨٥٨)، وضعفه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥/ ٢٨٣)].

= قال الإمامُ ابنُ القيم ﷺ في بيانه لمَعنى قوله ﷺ: «**اقرأ وارقَ فإنَّ مَنزلتَك عندَ آخر آية كُنتَ تَقرؤهَا**»: «يَحتملُ شيئَين: أن تكونَ مَنزلتُه عندَ آخرِ حِفظِه، وأن تكُونَ عندَ آخرِ تِلاوَته لمَحفُوظِه». [حادي الأرواح (ص٦٧)].

وهذا فيه تفاوت؛ لأنه قد يَحفظُ ولكن لا يتلُو ما يحفظ، ولا يَعتني به، ففي المَعنى الثاني: «عندَ آخر تلاوتِهِ لمَحفوظه»، أي: أنه مُعتَنٍ بما يَحفَظ تَكرارًا ومُداوَمةً على العنَاية به.

(١) أورد المُصَنِّف ﷺ هذا الحَديثَ عن أم الدَّرداء، وصدَّره بهذه الصيغة: «رُوي»، وهي تُعرف بصيغة تَمريض وتَضعِيف -في الغَالب- للحديث، والحديثُ ضعيف، لم يَثبُتْ موقوفًا عن عائشَة، ولم يثبت أيضًا مَرفوعًا عن النبي الكريمِ ﷺ.

وجاء في الحَديث الذي قبله أنَّ فضل من قرأ القرآن، أنه يرتَقي في دَرج الجنة، ويُقال له يوم القيامَة في الجنَّة: «**اقرَأ وارقَ ورَتِّل كما كُنتَ تُرَتِّل في الدُّنيا، فَإنَّ منزلتكَ عندَ آخِر آيةٍ كُنتَ تقرَؤها**»

حدَّثنا أبو الفَضْل جعفرُ بنُ محمد الصَّنْدَليُّ ثنا الحسن بنُ محمد الزَّعْفَرانيُّ ثنا علي بن عاصم، عن إبراهيمَ الهَجَري، عن أبي الأحْوص، عن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تعلَّمُوا هذا القرآنَ واتْلُوه**[(١)] **فإنكم تُؤجَرون على تلاوتِه بكُلِّ حَرْفٍ عشرَ حسناتٍ، أما إني لا أقولُ: ﴿الٓمٓ﴾ حرفٌ، ولكن ألفٌ حرفٌ، ولامٌ حرفٌ، وميمٌ حرفٌ، إنَّ هذا القرآنَ مَأْدُبَةُ الله**[(٢)]**، فتعلَّمُوا مِن مَأْدبةِ الله ما اسْتَطَعْتُم**[(٣)]**، إنَّ هذا القرآنَ هو حَبْلُ الله**[(٤)]،

---

(١) **التعلُّمُ**: يتناولُ تَعلُّمَ الحروف حِفظًا لها، وتعلُّم المَعاني فَهمًا لها، وكذلك الشأن في التَّعليم للغير، يكون للحروف وللمعاني، كما قال النبي ﷺ قالَ: «**خَيرُكُم مَن تَعلَّمَ القُرآن وعَلَّمَهُ**». [أخرجه البخاري (٥٠٢٧)]

وأمَّا قوله ﷺ: «**بلِّغُوا عَنِّي ولو آيةً**» [أخرجه البخاري (٣٤٦١)]، فإبلاغ القرآن علىٰ نوعين؛ إبلاغ حُرُوفه تحفيظًا وضبطًا، وإبلاغ معانيه تفهيمًا وعَقْلًا.

ولهَذَا يُخطِئُ من يتصدَّرُ لدعوة النَّاس ولا يكون له فِقهٌ في القرآن، ولا يعرف معانيه وأحكامه، فيقول علىٰ الله ﷻ بغير علمٍ، ويخوض في الآيات بخلاف مراد الله ﷻ بها، ويظنُّ أنَّ هذا هو الإبلاغ!

قال أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ ﵁: «أَيُّ أَرضٍ تُقِلُّني، وَأي سَمَاءٍ تُظِلُّني، إن قُلتُ فِي آيَةٍ من كتابِ اللهِ بِرَأيِي، أَو بِما لا أَعلَمُ». [أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» (١/ ١٦٨)]

(٢) المَأدُبة: هي القِرَىٰ وما يُعَدُّ للضَّيف، ويكون فيها مَا لَذَّ وطابَ وحَسُن.

(٣) أي: جَاهِدُوا أنفُسَكُم علىٰ تعَلُّم القرآن ما استطعتم إلىٰ ذلك سَبيلًا.

(٤) أي: السَّبب المُوصِل إلىٰ رضوَان الله والجَنَّة، والله ﷻ يقُول: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ﴾، فمِمَّا قيل في مَعاني حَبل الله: إنه القُرآن [انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٨٩)].

فالقُرآن: حبلٌ مَمدودٌ؛ طَرَفُه الأدنىٰ في الدنيا، وطَرفُه الأعلىٰ في الجنَّة، فَمَن تمَسَّك بهذا الحَبل ولَزمه أفضَىٰ به يوم القيامة إلىٰ جنَّات النَّعيم.

هو النورُ المُبينُ(١)، والشفاءُ النافعُ، ونجاةُ مَن تَبعَهُ(٢)، وعِصمَةُ مَن تمَسَّك به(٣)، لا يَعوَجُّ فَيُقَوَّمُ(٤)، ولا تنقضي عجائبُه(٥)، ولا يَخْلَقُ عن كَثْرةِ الرَّدِّ(٦)». [ضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٦٨٤٢)].

وأخبرنا أبو عبد الله أحمد بن الحسين بن عبد الجبار الصُّوفي: ثنا شجاع ابن مَخْلَد: ثنا حجاج بن المِنْهال: ثنا حمَّاد بن سَلَمة، عن عطاء بن السائب، عن أبي الأحْوَص، وأبي البَخْتَري: أن ابن مسعود قال: «تعلَّمُوا القرآنَ واتْلُوه فإنكم تُؤجرون به(٧)، ....

---

(١) قوله: «**هو النُّور المُبين**»، قد مرَّت بعضُ الآيات في وَصف القرآن بأنه نُور؛ وذلك لأنه يُضِيءُ لصاحبه في الظلمات، فيَهتَدي به، ويُميِّز بين الهُدىٰ والضلال، وبين الحَق والباطل، والكُفر والإيمان، فهو نُورٌ لصاحبه، وهو النور المُبينُ، والشِّفاء النَّافع لما في الصدور، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ [الإسراء:٨٢].

(٢) أي: من اتَّبع القُرآن كان من أَهلِ النجَاة، ومن لم يَتَّبع القرآن كان من أهل الهَلَكَة.

(٣) أي: عصمَة له من الهَلاك، وقَد قالَ الله ﷻ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾.

(٤) فالقرآن لا عِوَج فيه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا﴾ [الكهف:١-٢].

(٥) أي: مليئًا بالعَجائب التي لا تَنقَضي في معانيه ودِلالاتِهِ وهِدَاياته المُبَاركات، كما قال تعالىٰ عن قول الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾.

(٦) أي: مَن يقرَؤه ويُكرِّر قراءَته لا يَمَلُّ من قرَاءَته، ولا يصبحُ مثل الشَّيء البالي؛ لأن الأشياء إذا أُكثر من استعمَالها صارت باليَةً قديمة مُستَهلكة، يُبحَث عن غيرها، فالقُرآن الكريم لا يَخلَق من كَثرة الرَّد، مَهما قرأه لا يزال يتَذَوق من معانيه، ويقفُ علىٰ عجائبه، وتُبهِرُه كنوزُ القرآن.

وإسنادُ هذا الحديث ضعيفٌ غير ثابت؛ لأن فيه إبراهيم الهَجري، لينُ الحَدِيث، كما قال الحافظ ابن حجر في «التقريب» (ص٩٤).

(٧) قوله: «**فَإِنَّكُم تُؤجَرُونَ بِهِ**»؛ أي: بتلاوَتِكم للقُرآن.

إنَّ بكلِّ اسْمٍ منه عشرًا[١]، إني لا أقول بـ: ﴿الٓمٓ﴾ عَشْرٌ، ولكن بالألف عَشْرٌ، وباللام عَشْرٌ، وبالميم عَشْرٌ».

حدَّثنا أبو بكر عبد الله بن أبي داود: ثنا أبو الطاهر أحمد بن عمرو: ثنا ابنُ وَهْب: أخبرني يحيىٰ بن أيوب، عن خالد بن يزيد، عن ثَعْلبَةَ بن أبي الكَنُود، عن أبي الكَنُود، عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: «مَنْ جَمَعَ القرآنَ[٢] فقد حَمَلَ أمرًا عظيمًا، لقد أُدْرِجَتِ النُّبوةُ بين كَتِفَيه غيرَ أنه لا يُوحىٰ إليه؛ فلا ينبغي لحاملِ القُرآن أن يَحُدَّ مع مَن يحدُّ[٣] ولا يَجْهَلَ مع مَن يَجْهَلُ لأنَّ القرآنَ في جَوفِه[٤]».

---

(١) المُراد بـالـ: (اسم) أي: حَرف من حُروف القُرآن، كما تقدَّم في الأحاديث السابقة.

(٢) المراد بجمع القرآن؛ أي: جَمعه في صَدره، حفظًا لحُروفه، وفَهمًا لمَعَانيه ودِلالاته، وهذا قد حمَل أمرًا عظيمًا، وخيرًا جَزيلًا.

(٣) معنىٰ الحَدِّ: هو الطَّيْشُ والعجلة في الأمور.

(٤) قوله: «**لأن القُرآن في جوفه**» هذا تَعليلٌ لقوله: «**أُدرجَت النبوة بين كتفَيه**»، كما قال تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩].

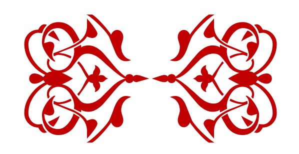
قال الإمامُ ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولكِن لأَتباعِ الأَنبياءِ حَظٌّ مِنَ الخَيرِ علىٰ سَبيلِ التَّبَع».

[«تفسيره» (١/ ٧٠١)]

ويوضِّح ذلك قَولُ النَّبي ﷺ: «...**وإنَّ العلماءَ ورثَةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لم يُوَرِّثُوا دِينارًا، ولا دِرهَمًا، وَرَّثُوا العِلمَ، فمَن أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وافِر**» [أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، وحسَّنه الألباني].

فهذا الأثرُ فيه فضل مَن جَمع القرآن في صَدرِه؛ حفظًا لحُروفه، وعنايةً بمَعَانيه، وفهمًا لدَلالاته، وشغلًا لأوقاته بهَذا الكتاب العَظيم.

وحدَّثنا أبو بكر بن أبي داود أيضا ثنا أبو الطاهر أنا ابن وَهْب أخبرني مَسْلَمة بن علي، عن زيد بن واقد، عن مكحول، عن أبي أُمامة الباهِليِّ يرفَعُهُ قال: «مَنْ قرأَ رُبُعَ القرآن فقد أُوتيَ رُبُعَ النُّبوة، ومَنْ قرأَ ثُـلُثَ القرآن فقد أُوتيَ ثُـلُثُ النُّبوة، ومَنْ قرأَ ثُـلُثَي القرآن فقد أُوتيَ ثُـلُثَي النُّبوة، ومَنْ قرأَ القرآنَ فقد أُوتيَ النبوةَ غيرَ أنه لا يُوحَى إليه[1]».



(١) هذا الإسناد فيه مَسلمَة بن عَلي، وهو مَتروك كما في «التَّقريب» (رقم:٦٦٦٢)، فإسنَاد هذا الأثر غير ثَابت بل ذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢٥٢).

وتقدَّم في الأثر الذي قَبله قَوله: «أُدرِجَتْ النُّبوة بين كَتفَيه»، وهذا على المعنىٰ الذي ذكره ابنُ كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: أنَّ لأتباع الأنبياء حظًّا بالتبعيَّة والاهتداء بهَدي الأنبياء، فَهُم وُرَّاث الأنبياء، وحَمَلة الإيمان والدعوة والهدىٰ والقُرآن الذي قام علىٰ حَمله أنبياء الله ورُسُله.

بابُ فضلِ مَن تعلَّمَ القرآنَ وعلَّمَه[١]

حدَّثنا أبو شُعيب عبد الله بنُ الحسن الحَرَّانـيُّ قال: ثنا عليُّ بنُ الجَعْد: أنا شُعْبةُ، عن عَلْقَمةَ بن مَرْثَد قال: سمعتُ سعدَ بنَ عُبيدةَ يُحدِّثُ عن أبي عبد الرحمن السُّلَمي، عن عثمانَ ﵁ -قال شعبةُ: قلتُ له: عن النبي ﷺ؟ قال: نعم- قال: «خَيرُكُم مَن تعلَّمَ القرآنَ وعَلَّمَهُ[٢]». [أخرجه البخاري (٥٠٢٧)]

---

(١) أي: ما يترتب علىٰ تعَلُّم القرآن وتَعلِيمه من فضَائل وخيرات وبركاتٍ في الدنيا والآخرة، فالقرآنُ الكريمُ هو كتاب الهِدَاية، وكتابُ السَّعادة، وكتاب الفَلَاح، مَن أكرَمَه الله ﵎ بتعلم القرآن وتَعليمه فهذا إكرَامٌ له بالسَّعادة والفلاح في الدنيا والآخرة؛ لأنَّ القرآن بَابُها.

(٢) هذا حديثٌ عظيمٌ جدًّا في بيان فَضلِ تعَلُّم القرآن أولًا، وفضلِ تعليمه بعد ذلك.

وفي رواية أخرىٰ للبخاري (٥٠٢٣): «**إنَّ أَفضَلَكُم مَن تَعَلَّم القُرآنَ وَعَلَّمَهُ**»، فهذا فيه إثبَات الخَيريَّة والأفضليَّة لمن أكرمه الله ﷻ بتعلم القرآن وتعليمه.

وذَكَر العلماءُ ﵏ أنَّ تعلُّمَ القرآن وتعليمه يشمل تعلُّم حروفِ القرآن لضبط التلاوة وإتقانهَا، ويتضَمَّن أيضًا تَعلم معَاني القرآن، لفَهم الدِّلالة ومَعرفَة المَقصُود، فكلٌّ منهُما داخلٌ في قَوله: «**خَيرُكُم مَن تَعَلم القُرآن وعَلَّمَه**».

فكانَت تلك طريقَة الصَّحَابة ﵃، فإنَّهم كانوا يُدركُون ﵃ أنَّ القرآنَ أُنزل لتُتَدَبَّـرَ آياتُه، وتُفهم معانيه، وتُعقَل دلالاته، لذلك كانوا يَجمَعون لأنفسهم بين ضَبطِ الحروفِ وإتقان تلاوتها، وفهمِ المَعَاني والدِّلالات.

وصحَّ عن أبي عبد الرَّحمَن السُّلمي ﵀ -وهو من التابعين- قال: «حدَّثنا مَن كان يُقرِئُنا من أصحابِ النَّبيِّ ﷺ، أنَّهُم كانُوا يقترِئُونَ من رسولِ اللهِ ﷺ عشرَ آياتٍ، فلا يأخُذونَ في العَشرِ الأُخرىٰ حتَّىٰ يعلمُوا ما في هذِهِ منَ العِلمِ والعملِ، قالُوا: فَعلِمنا العِلمَ والعَمَلَ» [أخرجه أحمد (٢٣٤٨٢)].

=

قال أبو عبد الرحمن: «فذلك أَقعدَني مَقْعَدي هذا»، فكان يعلِّمُ مِن خِلافة عثمان إلى إِمْرةِ الحَجَّاج(١).

= فقول النبي ﷺ في هذا الحديث: «**خَيرُكم مَن تعَلَّم القُرآنَ وعَلَّمه**» يشملُ تعَلُّم الألفاظ ضَبطًا لها، وتعلم المعاني فهمًا للدِّلالات، وتَدَبُّرًا لكلام الله ﷻ.

قال ابن القيِّم رحمه الله: «وتعَلم القرآن وتَعليمه يتناول تعلُّم حُروفه وتعليمها، وتعَلم معَانيه وتَعليمها، وهو أشرفُ قِسمَي تعَلُّمِه وتَعْليمه -يَقصدُ: تَعلم المَعاني-؛ فإن المَعنىٰ هو المَقصُود، واللفظ وَسيلةٌ إليه، فتعلم المَعنىٰ وتعليمه تَعلم الغايةِ وتعليمها، وتعلم اللفظِ المُجَرد وتعليمه تَعلم الوسَائل وتعليمها، وبَينَهما كمَا بَينَ الغَايات والوَسَائل». [«مفتَاح دَار السعادة» (١/ ٧٤)]

(١) أي: أنه منذُ سمع هذا الحَديث: «**خَيرُكم مَن تعلَّم القرآن وعَلَّمه**»؛ انشَرح صَدرُه لهذا الأمر وجَلس لتعليم القُرآن، فيَقُول ذاكرًا سببَ جُلُوسه الطَّويل الذي امتدَّ ما يَقرب من أربَعين سنةً.

وهذا يُفيدنا فائدَةً عظيمة؛ وهي: سُرعة استجابة السَّلف؛ من الصَّحابة ومن اتَّبعهم بإحسان، ومُسَارعتهم للخيرات، فإن الواحدَ منهم إذا أخذ الفَائدة وفهمها وضَبَطها، دخل في العمل مبَاشرة، بصَبرٍ ومُصَابرة ومُرابطة، مُستعينًا بالله ﷻ.

أما حال كثير منَّا: أنهُ إذا سمعَ الفائدة أو المَوعظَة ربَّما يتفاعل معها يومًا أو يَومَين أو ثلاثة أيام، ثم ينساها؛ حيث تأتيه أمورٌ من المَشَاغل الدنيوية وتُنسيه!

فالمرءُ إذا سمع المَوعظة، يحتاج إلى أمرين:

الأول: الاستعانة بالله، وهو نِعمَ المُعين سبحانه وتعالىٰ.

الثَّاني: مُجَاهدةُ النَّفس، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

حدَّثنا أبو جعفر أحمد بنُ يحيى الحُلْوانيُّ ثنا فَيضُ بنُ وُثَيق ثنا عبد الواحد بنُ زياد، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن النُّعمان بن سعد، عن عليِّ بن أبي طالب ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيرُكُم مَن تعلَّمَ القرآنَ وعَلَّمَهُ». [أخرجه الترمذي (٢٩٠٩)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي بما قبله، وانظر: السلسلة الصحيحة (١١٧٣)]

حدثنا أبو خُبَيب العباس بن أحمد البَرْتي ثنا عبد الله بن معاوية الجُمَحِيُّ: ثنا الحارث بن نَبْهان ثنا عاصم بن بَهْدَلة، عن مصعب بن سعد، عن أبيه ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيرُكُم مَن تعلَّمَ القرآنَ وعَلَّمَهُ»، وأَخَذَ بيدَي وأَقعَدَني في مَجلسٍ أُقْرِئُ[١].

[أخرجه البزار في مسنده (١١٥٧)، وانظر: السلسلة الصحيحة (١١٧٣)]

حدثنا أبو الفضل جعفر بن محمد الصَّنْدَليُّ ثنا زهير بن محمد قال: أنا عبد الله بن يزيد المُقْرِئ قال: ثنا موسىٰ بن علي بن رَباح قال: سمعت أبي يقول: سمعتُ عُقْبَةَ بن عامر ﵁ يقول: خَرَجَ إلينا رسولُ الله ﷺ ونحن في الصُّفَّةِ فقال: «أيُّكُم يُحِبُّ أن يغدوَ[٢] إلىٰ بُطْحان أو العَقِيق[٣] فيأتي كلَّ يومٍ بناقتين[٤]، كَوْماوَين زَهْراوَين[٥]، ....

---

(١) القائل: «وأخذَ بيدي» هو عاصم بن بهدلة، إمام القرَّاء في زمانه، وهو أحدُ القُراء السبعة، قال الإمام أحمد: «كان رجلًا صالحًا، وأنا أختارُ قراءَته» [«العلل ومعرفة الرجال» (٣/ ١٢٠)]

وقوله: «وأقعدني في مجلسٍ أُقرئ» أي: أخذَ مُصْعَبُ بن سعد بيدِ عاصم بن بهدلة فأجلسَه مجلسَ إقراء القرآن وتعليمِه، والدَّالُّ علىٰ الخيرِ كفاعله.

(٢) أي: يخرج في الصَّباح الباكر إلىٰ بُطحان والعَقيق.

(٣) قوله: «بُطحَان أو العَقيق»: واديَان مَعرُوفان في المدينَة.

(٤) لعل النبيَّ ﷺ خصَّ هَذَين المَوضعَين بالذِّكر، لأنه مكان لتَجمُّع الإبل، أو فيهما سوقٌ لبيع الإبل وشِرَائها.

(٥) قوله: «كوماوين»: الناقة الكَوماء؛ أي: عظيمَةُ السَّنام. =

فيأخُذُهُما في غَيرِ إِثمٍ[(١)]، ولا قَطْعِ رَحِمٍ؟[(٢)]» قال: قلنا: كُلُّنا يا رسولَ الله يُحِبُّ ذلك، قال: «فلأنْ يغدُو أحدُكم إلى المسجدِ[(٣)] فيتعلَّمَ آيتين مِن كتاب الله خيرٌ له من ناقَتين، وثلاثٌ خيرٌ له من ثلاثٍ، وأربعٌ خيرٌ له من أربعٍ، ومِن أَعْدادِهِنَّ من الإِبل[(٤)]». [أخرجه مسلم (٨٠٣)]

= **وقوله**: «**زَهراوين**»: الناقَةُ الزَّهراء: التي تميل إلىٰ البياض من كَثرة سِمَنِهَا.

والمعنىٰ: أيُّكم يُحِب أن يَذهَب إلىٰ هذا المَكان الذي تتجمَّع فيه النياقُ، ويأخذ كلَّ يَوم ناقتين سَمِينَتَين؟!

(١) أي: من غَير أن يكون أخَذَها سَرقةً، أو غشًّا، أو احتيالًا، أو نحو ذلك، فيأخُذها حلالاً بدُون إثم.

(٢) أي: ولا يُولِّدُ أخذُه لها -وكَثرة هذه النِّيَاق التي يأخذها كلَّ يوم- شحناء بينه وبَين قَرَابته، أو تقَاطُعًا، فكثيرٌ من النَّاس تقع بينهم الفِتنَة، والشَّحناء والحَسَد، إذا عُرِفَ أحدُ قرابتهم بكثرَة مالٍ؛ فيحَسُدُونه وقد يؤذونه.

(٣) أي: يَذهب بَاكرًا إلىٰ المَسجد.

(٤) فالمسلم الذي يحفظُ آيتين من كتاب الله، ويجاهد نفسه علىٰ فَهم معانيهما، خيرٌ له من ناقتين كومَاوين زهراوين، وتعلم ثلاثِ آيات خيرٌ له من ثلاث نِياق، وأربعِ آيات خير له من أربعٍ، ومن أعدادِهِنَّ من الإبل.

وهذا الحَديثُ فيه: ترغيبٌ وتَزهيد؛ ترغيبٌ في القرآن، وبيان للفَضل العظيم الذي يُحصِّله من يُعنَىٰ بكتاب الله عناية يَوميَّة، وفيه تَزهيدٌ في الدنيا، ومتاعها.

وفيه: أن المُسلم لابدَّ أن يكون له حظٌّ من القرآن في كلِّ يوم؛ تعَلُّمًا للحروف وللمعاني، ولو آيةً أو آيتين أو ثَلاثًا، فإنَّ قليلًا من الآيات مع المُداومة يكون بالسَّنوات كثيرًا.

بابُ: فَضْلِ الاجْتِماعِ في المساجِدِ[1] لدَرْسِ القرآن[2]

حدَّثنا الفِريابيُّ ثنا إِسحاق بن راهويه أخبرنا جَرِير -يعني: ابن عبد الحَميد-، عن الأعْمَشِ، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «ما تجالَسَ[3] قومٌ في بيتٍ من بُيُوت الله ﷻ[4]، ....

---

(١) أي: مَا يترتَّب علىٰ الجُلوس في المساجد -التي هي بيوت الله ﷻ- من الفضائل؛ لأنَّ قولَه: «فَضْل» مُفردٌ مُضاف فيفيدُ العموم.

(٢) أي: لمُدَارسة القرآن وتعلمه وتَدَارسه، وهذه المُدَارسة تتناولُ أمرَين:

الأوَّل: أن يجتمعَ مَجمُوعة علىٰ أحَدِ المُتقنين للقرآن قراءةً وضبطًا، يُقْرِؤُهُم واحدًا واحدًا، ويُصَحِّح لهم التلاوة، ويُقَوِّم لهم قراءةَ القرآن.

الثَّاني: أن يُجالِسُوا عالمًا بَصيرًا فيشرح لهم المَعاني، ويبين لهم الدِّلالات، فإنَّ جميع ما سبقَ من تَعَلُّم القُرآن ومُدَارسته؛ إمَّا لضَبط حُروفه، وإما لضَبط مَعَانيه ودِلالاته، فالترجمَةُ تتناول ذلك كلَّه.

(٣) **قوله**: «**تجالَس**»: هذه صيغةُ (تفَاعَلَ) تعني اشتراكَ اثنين فأكثر في أَمر، ولعلَّ المعنىٰ هنا يتَضمَّن تشجيعَ بَعضهم بَعضًا علىٰ المدارسة، وترغيبَ بعضهم لبَعض؛ لأن الإنسَانَ لا يَزال مُحتَاجًا إلىٰ من يُشَجِّعه، ويشُدُّ من عَضُده للتعلُّم والمُذَاكرة، بالسُّؤال عنه، ومتَابعَة أحواله، والاهتمَام بشُؤونه.

والأخ الناصِحُ يَنفَعُ أخاه نفعًا عظيمًا، ويكون مِعوَانًا له علىٰ المُواصلة في الطلب والتحصيل، والمُداومة علىٰ الدرس والمذاكرة، ونحو ذلك.

(٤) **قوله**: «**في بَيتٍ مِن بُيُوتِ اللهِ ﷻ**»: ذكر بعضُ أهل العِلم أن هذا خَرج مَخرَج الغالب، وإلا لو أن التدارُس كان في مَدرسة علميَّة، أو في بيتٍ من البيوتِ؛ فإنه يُرجَىٰ -بإذن الله- أن ينَالُوا هذه الفضَائل.

=

يتلون كتابَ الله(١)، ويتدارَسُونه بينهم(٢)، إلا حَفَّتْ بهم الملائكةُ(٣)، ....

= لاسيَّمَا وأنَّ الحديثَ جاء في بعض ألفَاظه في «صحيح مسلم» (٢٧٠٠): «**لا يقعُدُ قَومٌ يذكُرونَ اللهَ إلَّا حفَّتهُمُ الملائكةُ، وغَشِيَتهُمُ الرَّحمَةُ، وَنَزَلَت عَلَيهِم السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَن عِندَهُ**»، ولم يَذكُر: «في بيت من بيوت الله».

فهذا التدارُس للقرآن إن كان في المسجد فلا شَكَّ أنه أفضَل، وأجمَعُ للخير وأكمَل، لكن لو كان في بَيتٍ أو في مَدرسة، أو نحو ذلك؛ فإنه يُرجَىٰ أن تحصل هذه الفضَائل.

ولهَذا قالَ الحافظ النَّووي رحمه الله: «وَيُلحَقُ بِالمسجِدِ في تحصيلِ هذه الفضيلة: الاجتماع في مَدرسة ورِباطٍ ونحوِهِمَا -إن شاء اللهُ تعالىٰ-، ويَدُلُّ عليه الحديثُ الذي بَعدَهُ؛ فَإِنَّهُ مُطلَقٌ يَتَنَاوَلُ جَمِيعَ المَوَاضِعِ، وَيَكُونُ التَّقييدُ فِي الحَدِيثِ الأَوَّلِ خَرَجَ علىٰ الغالِبِ؛ لا سِيَّمَا فِي ذَلِكَ الزَّمانِ، فلا يكونُ له مَفهومٌ يُعمَلُ بِهِ». [شرح مسلم (١٧/ ٢٢)]

(١) أي: يتلو وَاحد منهم والبَقيَّة يسمعُون، أو يتلُو واحدٌ ويشرحُ عالِمٌ المعنىٰ ويُفسِّر الآيات، فهذا اشتراكٌ من الجميع في التلاوة وفي القِرَاءة، فالكلُّ له نَصيب فيها بين تَالٍ وسَامع، وتعمُّ الفائدةُ الجميع.

(٢) المُدارَسة تكون بفَهم المعَاني، وعَقل الدلالات، والتفقُّه في الآيَات.

(٣) أي: أنَّ الملائكةَ تَحُف هذا المَجلسَ من أطرافه وجوانبه، ولو كانَ من يجتمعون علىٰ درس القرآنِ في بيُوت الله لا يرون الملائكةَ، إلا أن المسلمَ من ذلك علىٰ يَقين؛ لأن ذلك خبرٌ صادق عن الرسُول الكريم ﷺ، فهم -يَقينًا- يحُفُّون مجَالس درس القرآن ومُذاكرته بأجنحَتهم.

وجاء في الحَديث: «**من سلَكَ طرِيقًا يلتمِسُ فيه علمًا، سَهَّلَ اللهُ له طرِيقًا إلىٰ الجَنَّةِ، وإِنَّ الملائكَةَ لتضَعُ أَجنِحَتها رِضًا لِطالِبِ العِلمِ**». [أخرجه أبو داود (٣٦٤١) وصححه الألباني] =

وغَشِيَتْـهُم الرحمةُ[(١)]، وذَكَرَهم اللهُ فيمَنْ عندَهُ[(٢)]، ....

= وفي الحَديث: «**إنَّ لله ملائكَةً سَيَّاحينَ في الأرضِ فُضُلًا عن كُتَّابِ النَّاسِ، فإذا وجَدُوا أَقوامًا يذكُرونَ اللهَ تنادَوا: هَلُمُّوا إلىٰ بُغيَتِكُم، فَيَجيئُونَ فَيَحُفُّونَ بِهِم إلىٰ سماءِ الدُّنيا...**» [أخرجه الترمذي (٣٦٠٠)، وصححه الألباني]، فهذا الحَفُّ من المَلائكة هو رِضًا بصَنيعِ هؤلاء؛ لاجتمَاعِهم علىٰ العلم والذكر.

(١) أي: رَحمَة الله ﷻ، ولهَذا كم يحصُل في مجالس الذِّكر والمُذَاكرة والمُدَارسة في بُيُوت الله ﷻ من تنزُّل الرَّحمَات، وكم من إنسَان أكرَمَه الله ﷻ ورَحِمَه في مَجلس ذكر؛ فَخَرج منه بفائدَةٍ، وخَرَج منه بعلم وخَير وفضيلة بَقِيَت معه حياتَه كلها!

فانظر إلىٰ الرَّحمة ما أعظمَها، فقد تَجد شَخصًا غافلًا، وأكرَمَه الله بحضور مجلس ذِكر، ثم سَمع كلمةً أيقظتْ قلبَهُ، وكانت سببًا لصلاحِه وهدايتِه.

وقد تجدُ شَخصًا عاشَ سِنين طوالًا من عُمُره علىٰ البدعة والضَّلالة، ثم أكرمه الله بحضُور مجلس سُنَّة فتَحَول من البدعة إلىٰ السُّنَّة، بل قد تجدُ أشخاصًا نَشأوا علىٰ شِركيَّات قد كبر الواحد منهم عليها، ثُم أكرَمَه الله ﷻ بحُضُور مجلسٍ تُبيِّن فيه العقيدَةُ الصَّحيحة والتَّوحيد، فتحوَّل عن ذلك الضلال، فهَذه رَحمَة من رحمات الله ﷻ.

وكم من شَخصٍ كان عندَه خَلَل في جَانبٍ مُعيَّن من التعبُّد أو الأخلاقِ أو المُعَاملات؛ فأكرَمَه الله ﷻ فحَضَر مَجلس ذِكرٍ وعِلمٍ فَسَمع فيه ما يُوقِظُ قَلبَه، وحَصَل التحوُّل، فهَذَا كُله من الرَّحمة، ولهذا جاء في آخرِ الحَديثِ: «**هُمُ القَومُ لا يَشقَىٰ بِهِم جَلِيسُهُم**»، فهي مجَالس رَحمة ومَغفرة وهداية، وسعَادة في الدنيَا والآخرَة.

(٢) **قوله**: « **وذَكَرهُم اللهُ فِيمَن عِندَه**»: وهذه الفَضيلة من أجَلِّ الفضائل وأعظمِها، فيذكرهم رب العالمين في المَلأ الأعلىٰ عندَ الملائكة الكرَام البررة بهذا الجلوس المبارك وتلاوة كلامه، ومُدارسة معانيه، وهذا يتضَمَّن رضا الله عنهم، ومحبَّته ﷻ لَهُم؛ ولهَذا يذكُرهم فيمَن عندَه. =

ومَنْ بطَّأَ به عمَلُهُ، لم يُسْرِعْ به نَسَبُهُ[(١)]».

= وفي الحديثِ عن أَبي سعيدٍ الخُدرِيِّ رضي الله عنه قال: «خَرَجَ مُعاوِيةُ علىٰ حلقَةٍ في المسجدِ، فقال: ما أجلسكُم؟ قالوا: جلسنا نذكُرُ اللهَ، قال: آللهَ ما أَجلَسَكُم إِلَّا ذاكَ؟ قالُوا: واللهِ ما أجلسنا إِلَّا ذاكَ، قالَ: أَما إِنِّي لم أَستَحلِفكُم تُهمَةً لكم، وما كان أَحَدٌ بِمنزِلتي مِن رسولِ اللهِ ﷺ أَقَلَّ عنهُ حديثًا مِنِّي، وإِنَّ رسولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ علىٰ حَلقَةٍ مِن أَصحابِهِ، فقالَ: **ما أَجلَسَكُم؟**، قالُوا: جلسنا نذكُرُ اللهَ ونحمَدُهُ علىٰ ما هدانا لِلإِسلامِ، ومَنَّ بِهِ علينا، قال: **آللهَ ما أجلَسَكُم إلا ذاكَ؟**، قالوا: واللهِ ما أجلسَنا إِلَّا ذاك، قال: **أَما إِنِّي لم أَستَحلِفكُم تُهمَةً لكُم، ولكنَّهُ أتاني جِبريلُ فأَخبرَنِي، أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُباهِي بِكُمُ المَلائكَةَ**» [أخرجه مسلم (٢٧٠١)].

والربُّ العظيمُ جَلَّ جَلَالُهُ غَنيٌّ عن مَجالسِ الناس، وطاعاتهم، وعبَادَاتهم، ولا تنفَعُه طاعة من أطَاع، ولا تَضُرُّه مَعصِيَة من عَصَىٰ، كمَا جاء فِي الحَدِيثِ القُدُسي: «**يا عِبادِي، إِنَّكُم لَن تَبلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، ولن تَبلُغُوا نَفعِي فَتَنفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَو أَنَّ أَوَّلَكُم وَآخِرَكُم وَإِنسَكُم وَجِنَّكُم كَانُوا عَلَىٰ أَتقَى قَلبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُم، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلكِي شَيئًا، يَا عِبَادِي، لَو أَنَّ أَوَّلَكُم وَآخِرَكُم وَإِنسَكُم وَجِنَّكُم كَانُوا عَلَىٰ أَفجَرِ قَلبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِن مُلكِي شَيئًا...**» [أخرجه مسلم (٢٥٧٧)].

فلا تنفعه سبحانه طاعةُ مَن أطاع، ولا تضره معصيَةُ من عَصىٰ، ولكن من كريم فَضلِهِ وعَظيم مَنِّه وجَزيل إنعامه أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُباهي بهؤلاء الملائكةَ، ويذكرهم عند مَلائكته، في اجتمَاعهم علىٰ ذكر الله وتِلاوَة كلامِهِ، ومُدَارسة معَانيه، وعَقل دلالاته والتدبُّر في مضَامِينه، فيَذكُرهم الله جَلَّ وَعَلَا فيمَن عندَهُ.

(١) فمن بطَّأ به دِينُهُ، فجاء يومَ القيامة وليس معه من الطاعات التي تثقُل بها موازينه، وتعلو به درجاته، فإنه لن يُسرعَ به نَسَبُهُ، فلو كان نَسَبُه من أعلىٰ الأنساب فلا ينفعُه النسبُ، ولا يرفع درجته. =

وحدَّثنا الفِريابيُّ أيضًا: ثنا أبو بكر بنُ أبي شَيْبَةَ: ثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما اجتمَعَ قومٌ في بيتٍ من بيوت الله، يتلُون كتابَ الله، ويتدارسُونَه بينهم، إلا نَزَلَتْ عليهم السَّكينةُ[(١)]، وغَشِيَتْهُم الرحمةُ، وحَفَّتْ بهم الملائكةُ، وذكرهُم اللهُ فيمَنْ عنده». [أخرجه مسلم (٢٦٩٩)]

حدَّثنا الفِريابيُّ ثنا مِنْجاب بن الحارث ثنا أبو الأحوص، عن هارونَ بن عَنْتَرة، عن أبيه قال: قلتُ لابن عباس رضي الله عنهما: «أيُّ العَمَلِ أفضلُ؟ قال: ذِكْرُ الله أكبرُ[(٢)]، ....

= قال تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، فالأكرم: هو الأتقَىٰ للهِ جل جلاله، فالذي يُسرع بالإنسَان: تَقواه لله، وطاعتُه له، وقيامه بعبادته.

(١) قوله: «إلا نَزَلَت عَلَيهِمُ السَّكِينَةُ»، هذه اللفظَةُ ليسَت في الرِّوايةِ الأولىٰ، والسكينة: هي الطُّمأنينة والوَقَار، فتتنزل عليهم في مجَالس القرآن ومُدَارسته.

وأولُ ما تكون السَّكينة في القلب، ثم تَنبعث إلىٰ الأعضاء بسُكون قَلبه وطمأنينة فُؤاده، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

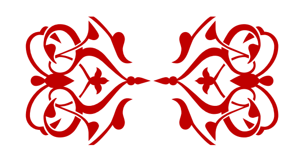
(٢) وهذا الجواب الذي أجابه الصحابي الجليل ابنُ عباس له شاهدٌ في القُرآن، وهو قَوله تعَالىٰ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥].

ويشهد له أيضًا قول النَّبي عليه الصلاة والسلام: «ألا أُنبِّئُكُم بِخَيرِ أَعمالِكُم، وأَزكاها عِندَ مَلِيكِكُم، وأَرفعها في درجاتِكُم وخَيرٌ لكُم مِن إنفاقِ الذَّهَبِ والورِقِ، وخَيرٌ لكُم مِن أَن تَلقَوا عَدُوَّكُم فَتَضرِبُوا أَعناقَهُم وَيَضرِبُوا أَعناقَكُم؟ قالُوا: بَلَىٰ. قال: ذِكرُ اللهِ تعالىٰ»

[أخرجه الترمذي (٣٣٧٧)، وصححه الألباني].

وفي الجواب السابق لابن عباس فائدةٌ عظيمة: وهي أنَّ مجالسَ الذِّكر عند السلف تشملُ مجالسَ العلم كُلَّها؛ سواء كانت لتعَلُّم القرآن أو تعَلم السُّنة أو التفقه في الدِّين، ومَعرفة الحلال والحرام، ومعاني أحاديث الرسول ﷺ. =

وما جَلَسَ قومٌ في بيتٍ من بيوت الله ﷻ، يتدارسون فيه كتابَ الله، ويتعاطونه بينهم[(١)]، إلا أَظَلَّتْهُم الملائكةُ بأجنحتِها، وكانوا أَضيافَ الله تعالى ما داموا فيه[(٢)]، حتى يَخُوضوا في حديث غيره[(٣)]».



= ولهذا صحَّ الحَديثُ عن النَّبي ﷺ أنه قال: «إِذَا مَرَرتُم بِرِيَاضِ الجَنَّةِ فَارتَعُوا، قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الجَنَّةِ يَا رَسُولَ اللهِ؟! قَالَ: حِلَقُ الذِّكرِ».

(١) قوله: «يتعَاطونَهُ بَينَهم»؛ أي: يُعطي بَعضُهم بعضًا الفَوائد والمعَاني والدلالات.

(٢) فالمُجتمعونَ على مُدَارسة القرآن وتلاوته أضيافُ الله، وعَلى مأدبة الله ﷻ، وهي خيرُ مَأدبة -كما تقدَّم ص٤٥-.

(٣) أي: حتى يَخرجُوا من كلامهم في العلم والقُرآن والفقه، إلى غيره من الأحاديث التي تتَعلَّق بالدنيا وما فيها.



باب: ذِكرِ أخلاقِ أهلِ القرآن(١)

قال محمد بن الحسين: ينبغي لمَن علَّمَهُ اللهُ تعالىٰ القرآنَ، وفضَّلَه علىٰ غيرِه ممَّن لم يُحَمِّلْهُ كتابَه، وأَحَبَّ أن يكونَ من أهلِ القرآن، وأهلِ الله ﷻ وخاصَّتِه، وممَّن وعدَه اللهُ من الفَضْلِ العظيمِ؛ ممَّا تقدَّم ذكرُنا له.

وممَّن قال الله ﷻ: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾، قيل في التفسير: يعملون به حقَّ عَمَلِه.

وممَّن قال النبيُّ ﷺ: «الذي يقرأُ القرآنَ، وهو ماهرٌ بِهِ مع الكِرامِ السَّفَرةِ، والذي يقرؤُهُ، وهو عليه شاقٌّ، له أجران(٢)». [أخرجه البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم (٧٩٨)]

وقال بِشْر بن الحارث: سمعتُ عيسىٰ بن يونس رحمهما الله يقول: «إذا خَتَمَ العبدُ، قَبَّلَ المَلَكُ بين عَيْنِيه(٣)».

---

(١) بعد أنْ قدَّم بمُقَدِّمات في فضل حَمَلَةِ القرآن، وفضل تَعلُّم القُرآن وتَعلِيمه، وفضل الجُلوس في بيُوت الله لمُدَارَسَة القُرآن، شَرَع في مَقصُود الكتاب، وهو: **بيان أخلاقِ حَمَلة القرآن.**

(٢) دلَّ الحديث علىٰ أن من يُعنَىٰ بالقرآن ويُجَاهد نَفسَه علىٰ العناية بالقُرآن، سَواء كان ماهرًا به، أم كان شَاقًّا عليه يتتَعتع في القراءة فكلٌّ منهما علىٰ خيرٍ عَظيم.

أما الماهرُ بالقرآن: فهذا مع السَّفرة الكرام البَرَرة؛ أي: مع صَفوةِ المَلائكة وخِيَارِهم.

وأما الذي يقرَأُ القُرآن وهو شَاقٌّ عليه: يعني: أنه يستمرُّ في القراءة ويُجاهدُ نفسه علىٰ القراءَةِ؛ لكنه يَجِد مشقَّة في بعض الحروف، فله في ذلك أجران؛ أجرٌ علىٰ عنايته بقِراءَة القُرآن، ومُثابرته في القِرَاءة، وأجرٌ عَلىٰ حِرصِهِ وتَحرِّيه أن يُصِيبَ القِراءَةَ الصَّحيحة وأن يَضبِطَها، فله بذَلك أَجرانِ.

(٣) هذا قولٌ لبعض أهل العِلم، لكنَّه يحتاج إلىٰ دليل، وأهل العلم يستدل لأقوالهم لا بها، و إنَّما الاستدلال يكون بكتاب الله ﷻ وما صحَّ من سنَّة رسول الله ﷺ. =

فينبغي له أن يجعلَ القرآنَ ربيعًا لقلبِه[(١)]، ....

=

وقد قال القرطبيُّ: «فمثلُه لا يُقال من جهة الرأي، فهو مرفوع»، أي: له حكم الرَّفع. [«التذكار في فضل الأذكار» (ص٨٨)]

وهذا بعيدٌ جدًّا، نعم؛ لو كان قولَ صحابيٍّ فإنه يأخذ حُكم المرفوع؛ لأنَّ هذا ليس من مَواطن الاجتهاد، ومِمَّا لا مجَال للرَّأي فيه.

أمَّا مَحبَّة الملائكة لقارئ القرآن ومن يَختمُ القرآن: فهذا أمرٌ جاء في الأدلَّة ما يَشهدُ له ويَدُل عليه.

(١) أي: من أحَبَّ أن يكونَ من أهل القُرآن فينبغي له أن يَجعل القرآن رَبيعَ قلبه، وأن يتَخَلَّق بالأخلاق الشَّريفة.

لا أن يكون حظُّه من القرآن حَظَّ من قال عَنهُم النبيُّ ﷺ: «**يقرؤونَ القرآنَ لا يُجاوز حناجِرَهُم**»، بل ينبغي أن يَحرِصَ علىٰ إيصَال القُرآن إلىٰ قَلبه ليَكون لقلبِهِ رَبيعًا.

وفي الدعَاء المأثُور عن النَّبي ﷺ قالَ: «... **أَسألُكَ بِكُلِّ اسمٍ هُوَ لك، سَمَّيتَ بِهِ نفسكَ، أو عَلَّمتَهُ أَحَدًا مِن خلقِكَ، أو أَنزلتَهُ في كِتابِكَ، أوِ استأثرتَ بِهِ في عِلمِ الغَيبِ عندَكَ، أَن تجعَلَ القُرآنَ رِبيعَ قلبِي، ونُورَ صدرِي، وجِلاءَ حُزني، وذهابَ هَمِّي**...»

[أخرجه أحمد (٣٧٠٤)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩٩)]

ومعنىٰ أن يكونَ القرآنُ ربيعَ القَلب؛ أي: مُبهجًا بأنواع الثمَار والآثار العَظيمة المُبَاركة، كما هو الشَّأن في الأرض التي أصَابها الغيثُ فأنبتَت من كل زَوج بَهيج.

ومَثَل القرآن مع القَلب كمَثَل الغَيْثِ مع الأرض: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝١٦ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد:١٦-١٧].

=

ويُعَمِّرَ به ما خَرُبَ من قلبِه[١]، يتأدَّبَ بأدب القرآن، ويتخَلَّقَ بأخلاقٍ شريفة[٢]،

= فالله تعالىٰ يُحيي الأرض المَيتة بعد موتها بالغَيث، وهذا فيه آيةٌ للنَّاس؛ فكمَا أنه ﷻ يُحيي الأرضَ الميتة بالغَيث؛ فإنه يُحيي القُلوب المَيتة بالوَحي.

وهذا تنبيهٌ من المُصنف رحمه الله: إلىٰ أن تَالي القرآن ينبغي أن يَحرصَ علىٰ أن يكونَ القرآن رَبيعًا لقلبه، لا أن يكُون حظُّه من القُرآن مُجَرَّد التلاوة باللسان، بل تظهَر آثار تلاوته علىٰ الجوارح والأركان.

(١) **وخراب القَلب يكونُ بأحَد أمرَين:**

- بالشُّبهَات المُفسدة للعلم والإيمَان.
- وبالشَّهوات المُفسِدَة للإرادة والقَصد.

فإذا دَخلتِ الشبهَاتُ والشَّهَواتُ علىٰ القَلب فَسَد التَّصوُّر وفَسَدتِ الإرادَةُ، وكلٌّ منهما خرابٌ للقلب، وإصلاحُ هذا الخرابِ يكون بالقرآن.

(٢) أي: ينبغي لِمَن وفَّقه الله لحَمل القرآن أن يتأدَّب بأخلاق هذا الكتاب العظيم الذي يَحمِلُه في صَدرِه؛ فينظُر في كُل خُلُق وأدَبٍ في كتَاب الله ﷻ، فيحرصَ علىٰ أن يكونَ له منه حظٌّ ونَصيبٌ.

وقد سُئلت أمُّ المؤمنين عائشةُ رضي الله عنها **عن خُلُقِ رسول الله ﷺ**؛ فقالت: «أَلَستَ تقرأُ القرآن؟ فإنَّ خُلُقَ نبيِّ الله ﷺ كان القرآنَ» [أخرجه مسلم في صحيحه رقم: (٧٤٦)]

أي: أنَّه ﷺ مؤتَمِرٌ بأوامر القرآن، مُنتَهٍ عن نواهيه، مُصَدِّق بكلِّ أخباره، مُتَأدب بكُل آدابه، عَامل به وبهدَاياته وتوجيهَاته العظيمة المُبارَكة.

قال العلامة ابنُ القيِّم رحمه الله: «فكان كلامُهُ مُطابقًا للقرآن؛ تفصيلًا له وتبيينًا، وعلومُهُ علومُ القرآن، وإرادتُه وأعمالُه ما أوجبَهُ وندبَ إليه القرآنُ، وإعراضُه وتركُه لما منعَ منه القرآن، ورغبتُه فيما رَغِبَ فيه، وزُهْدُه فيما زهد فيه، وكراهتُه لما كرهَهُ، ومحبَّتُه لما أحبَّه، =

يَبِينُ بها عن سائر الناسِ ممَّن لا يقرأُ القرآنَ(١).

فأولُ ما ينبغي له: أن يَستَعمِلَ تقوىٰ الله ﷻ في السِّرِّ والعلانيةِ(٢)،...............

= وسَعْيُهُ في تنفيذِ أوامرِه وتبليغِه والجهادِ في إقامته، فترجمَتْ أمُّ المؤمنين -لكمالِ معرفتِها بالقرآن وبالرَّسولِ، وحُسْنِ تعبيرها- عن هذا كلِّه بقولها: كان خُلُقُه القرآن» [«التبيان في أقسام القرآن» (ص٢١٧)]

ثم شَرَع رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان هذه الأخلاقِ.

(١) أي: يكون مُتميِّزًا به عن السُّفهاء والجُهَّال، أمَّا إن كانت أخلاقُهُ كأخلاقهم فأين القرآنُ الذي حفظه والعلمُ الذي تعلَّمَه؟!

قال سفيان بن عُيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا كان نهاري نهارُ سفيه، وليلي ليلَ جاهلٍ، فما أصنَعُ بالعلمِ الذي كتبتُهُ؟!». [أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٢٧١)]

(٢) فيستعملُ تقوىٰ الله في الغيب والشهادة، وفي حِلِّه وتَرحَاله، وفي جَميع أوقَاته، لأنَّ الله مُطَّلع عليه أينما كان.

كما قالَ النَّبي ﷺ لمُعَاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «اتَّقِ اللهَ حَيثُمَا كُنتَ» [أخرجه أحمد (٢١٥٥٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٩٧)].

وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، أي: بالعلم والاطِّلاع، وأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا تَخفَىٰ عليه خَافية في الأرض ولا في السَّماء.

وتَقوىٰ الله: أن يجعلَ العبدُ بينه وبين ما يخشَاه من سخط الله وعقابه وقايةً تَقيه، وذلك بفعل المَأمور وترك المَحظُور.

قَالَ طَلقُ بنُ حَبيبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان حقيقة التقوىٰ: «**التقوىٰ: العَمَلُ بطاعَةِ اللهِ، علىٰ نُورٍ مِنَ اللهِ، رجاءَ ثوابِ اللهِ، وتركُ معاصِي اللهِ، علىٰ نُورٍ مِنَ اللهِ، مخافَةَ عذابِ اللهِ**». =

باستِعمال الوَرَعِ في مَطعَمِه، ومَشْرِبِه، ومَلبسِه، ومَكْسبِه(١)، ....

=

قال الحافظ الذهبيُّ بعد أن ذكر كلام طلق بن حبيب: «أبدَع وأوجَز، فلا تقوَىٰ إلا بعَمل، ولا عَمَل إلَّا بِتَرَو من العِلمِ والاتِّباع، ولا ينفَعُ ذلك إلا بالإخلاصِ لله، لا ليُقال: فلانٌ تاركٌ للمَعَاصي بنُورِ الفقه؛ إذ المَعاصي يفتَقر اجتنابها إلىٰ مَعرفَتها، ويكون التَّرك خَوفًا من الله، لا ليُمدَح بتَركها، فمَن داومَ علىٰ هذه الوَصيَّة فقد فازَ».

[«سير أعلام النبلاء» (٤/ ٦٠١)]

وفيما تقدَّم تنبيهٌ إلىٰ أن التَّقوىٰ لها مَبدَأ ولها غَاية:

أما مبدأُ التقوىٰ: فهو الإيمَان، وإليه الإشارَة في قوله: «عَلَىٰ نُور من الله».

وأما غايةُ التقوىٰ: فهي الفَوزُ بالثواب، والنجَاة من العقَاب، وإليه الإشَارة في قوله: «**رجَاءَ ثَواب الله**».

وقوله: «**مَخَافة عَذاب الله**»، فهَذه حقيقَةُ التَّقوىٰ؛ **وهي**: أن يعملَ المَرءُ علىٰ إصلاح قَلبه وإصلاح حَاله بمَا يُرضي الله ﷻ؛ لينالَ بذلك عظيمَ موعُود الله وجَزيل أجره وثَوَابه، ولينجوَ بذلك من عقابِ الله وسَخَطه.

(١) هذه الأمثلة التي ذكرها المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ هي من تَقوىٰ الله؛ لأن بابَ التقوىٰ بابٌ وَاسع جدًّا.

والوَرَعُ: أن يتَجنَّبَ كلَّ ما يضُرُّه في الآخرة؛ وفيما يتعلَّق بالمَطعم والمشرب والمَكسب، فيتجنب المأكولات المُحرَّمة، والمَشرُوبات المُحرَّمة، والمَكاسب المُحرَّمة التي تضُرُّه في الآخرة.

فمِن تَقوىٰ الله ﷻ: أن يتجنَّبَ المُعَاملاتِ والمأكولات والمَشرُوبات التي حرَّمها الله ﷻ، أمَّا من كان يأكلُ ويشربُ ويكتسِبُ من الحَرام ولا يُبالي، فهذا دليلٌ علىٰ ضَعف تَقوىٰ الله وعَدم مراقبته.

=

ويكونُ بصيرًا بزمانه، وفسادِ أهلِه، فهو يحذَرُهم على دينِه(١)، ....

=

ومن الأمُور التي لابُدَّ أن يتفقَّه فيها العبدُ: أن يعرفَ الرزقَ الطيب من الخَبيث، ويعرفَ البيع الحلال من الحرام، ولابدَّ في ذلك من علم يَستضيءُ به في اكتسَابه لِرزقه، وتَحصيله لمَطعمِهِ ومَشرَبِهِ.

ومن لطيفِ ما يُروىٰ في هذا الباب-: أن محمَّد بن الحَسن تلميذ أبي حنيفةَ قال له بعض أصحابِهِ: «أَلَا تصنِّف كتابًا في الزُّهد؟ فقَال: قَد أَلَّفتُ كتابًا في البُيُوع» [«تعليم المتعلم طريق التعَلُّم» للزرنوجي (ص٢٨)].

ومعنىٰ ذلك: إذا كنت تُريدُ أن تكون زاهدًا وَرِعًا فتعلَّم دِينَك؛ اعرف البُيوعَ وما يَحِل منها وما يَحرُم؛ إذ كيف يكون وَرِعًا من لا يدري ما الذي يتورَّع منه.

كما قيل: «**كيفَ يتَّقي مَن لا يَدري مَا يَتَّقي؟!**».

فالذي لا يدري ما يتقي يدخُلُ في البيع والشراء وهو لا يَدرِي ما الذي يُجتَنَب، وما الذي جاءت الشَّريعة بالمَنع منه وتَحرِيمه، فمثل هذا كيف تتَحَقَّق فيه تقوىٰ الله؟!

ولهذا فإنَّ أساسَ الورع: العِلمُ بما يُتَورَّع منه، والعلم بمَا ينبغي أن يُجتَنب، وإلا فإن فاقدَ الشَّيء لا يُعطيه!

قَال شيخُ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «الوَرَعُ المَشروعُ: هو تَركُ ما قَد يَضُرُّ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ، وهوَ تركُ المُحَرَّماتِ وَالشُّبُهاتِ التي لا يستَلزِمُ تَركُها تركَ ما فِعلُهُ أَرجَحُ مِنها كالواجبات، فأمَّا ما ينفع في الدار الآخرة بنفسِه أو يعينُ علىٰ ما ينفعُ في الدار الآخرة، فالزهد فيه ليس من الدين؛ بل صاحبه داخل في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾» [«الفتاوىٰ» (١٠/ ٢١)].

(١) فينبغي أن يكون علىٰ مَعرفة بذلك حتىٰ يأخُذَ لنفسه الحَيطَة والحَذَر أَلَّا يَدخُل عليه من الفَسَاد ما دَخَل علىٰ الناسِ -ولاسيَّما إذا كثر فسَادُ الناس-، فيكونُ بَصيرًا بزمَانه وفسَاد أهله.

مُقبِلًا على شأنِه[١]، مهمُومًا بإصلاحِ ما فَسَدَ من أمرِه[٢]، حافِظًا للسانِه[٣]، مُمَيِّزًا لكلامِه؛ إن تكلَّمَ تكلَّمَ بعِلْمٍ إذا رأى الكلامَ صوابًا، وإن سَكَتَ سَكَتَ بعِلْمٍ إذا كان السُّكوتُ صوابًا[٤]، ....

(١) أي: فيما يَبتغي به رضوان الله تبارك وتعالى.

(٢) أي: يجعل هَمَّه أن يُصلح ما عنده من خَلَل ونَقص وقُصُور.

(٣) لا يتكلم إلا بالكَلام الذي يطمَئِنُّ أنه نَافعٌ لا مَضَرَّة فيه، كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**مَن كان يؤمِنُ باللهِ اليومِ الآخِرِ؛ فليقُل خيرًا أو ليصمُت**» [أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧)].

(٤) **قوله**: «**مُمَيِّزًا لكلامِه؛ إن تكلَّمَ تكلَّمَ بعِلمٍ**»: تمييزُ الكلام يكون قبل أن يتكلم؛ لأن الكلمَةَ إذا صَدَرت مَلَكَت صاحبَها وانفَلَتَ الأمر منه، لكن قَبل أن يتكَلَّم فهو لا يزالُ يَملك هذه الكَلمة، ويُمكنه إحكامُها والتروي قبل إخراجها.

ثُم إنكَ إذا مَيَّزت كلامَك قَبل أن تتكَلَّم سَتجد أن ما تُريد أن تتكلم به لا يَخرج عن ثلاث حَالات:

الأولى: كلامٌ يتَبيَّن لك بالتَّمييز أنه كلامٌ صَالح لا مَضَرَّة فيه، فهذا النوع من الكلام تكلَّم به ولا حَرَج.

الثانية: كلام يتبيَّن لك أنه ضَار لا مَنفعة فيه، فهذا النوع امنَع نَفسَك من الكلام به؛ حِفظًا للسانك؛ وصِيانة له؛ وخَوفًا من ربك جل وعلا.

وقد قَال النَّبيُّ ﷺ: «**...وهل يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ على وُجُوهِهِم** -أو قال: **على مناخِرِهِم**- **إلا حصائِدُ أَلسِنَتِهِم**» [أخرجه الترمذي (٢٦١٦) وصححه الألباني].

وقالَ ﷺ: «**إنَّ العبدَ ليتكَلَّمُ بالكلمةِ مِن رِضوانِ اللهِ، لا يُلقِي لها بالًا، يرفعُهُ اللهُ بها درجاتٍ، وإنَّ العبدَ ليتكَلَّمُ بالكلمةِ مِن سَخَطِ اللهِ، لا يُلقِي لها بالًا، يَهوِي بِها في جَهَنَّم**».

[أخرجه البخاري (٦٤٧٨)].

=

قليلَ الخَوْضِ فيما لا يَعْنِيه[١]، يخافُ مِن لسانِه أشدَّ ممَّا يخافُ مِن عدوِّه، يَحبِسُ لسانَه كحَبْسِه لعدوِّه[٢]؛ ليأمَنَ مِن شرِّه وسوءِ عاقبتِه.

= **الثالثة**: كلام لم يَظهر لك: هل هُو من النافع أو من الضَّار؟ فهو مشتبهٌ عليك.

وهذا يُعامَلُ وِفْقَ قولِ النبي ﷺ: «**فمَنِ اتَّقى الشُّبُهاتِ فقدِ استبرَأَ لدينه وعِرضِه**...».

[أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)].

فالذي يَشتَبه عليك ولا تدري هل هو نَافع أو ضَار؟!؛ وقد يكُون ضارًّا؛ فاتْرُكْهُ واتَّقِه، وتَكلَّم بالنافع الواضح، فإن تبيَّنَ لك فيما بعد أنَّ هذا الكلامَ نافع لا مَضرَّة فيه فتَكَلَّم به، وإن تبيَّنَ لك أنه ضارٌّ لا مَنفعة فيه؛ فتَحمدُ الله أنك لم تتعَجَّل وتتكلَّم به.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا أراد أن يتكلَّمَ فليفكِّر؛ فإن ظهرَ له أنه لا ضَرَرَ عليه تكلَّمَ، وإن ظهرَّ له فيه ضررٌ أوشَكَ فيه أَمْسَكَ». [انظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (٢/ ١٩)]

(١) لأن النبيَّ ﷺ قال: «**مِن حُسنِ إسلامِ المَرءِ تَركُهُ ما لا يعنِيهِ**»، [أخرجه الترمذي (٢٣١٧)، وصححه الألباني]، وهذا الحديث يفيدُ أن تركَ ما نُهِيَ عنه العبد، واجتنابه ما حرَّم الله داخِلٌ في أعمال الإسلام، فالإيمانُ والإسلام يدخلُ فيهما فعلُ المَأمور، وتركُ المَحظُور، فكما أنَّ فِعلَ الطاعات إسلامٌ وإيمانٌ، فكذلك اجتنَابُ المُحرَّمات يُعدُّ إسلامًا وإيمانًا.

وقوله ﷺ في الحَديث: «**تَركُه ما لا يَعْنِيهِ**»؛ لا يدلُّ على أنَّ الأمر راجعٌ إلى ميولات الإنسان وهواه، فيترك ما يشاء بحجَّة أنه لا يعنيه؛ بل كُلُّ مَا ثبتَ بأصل الشَّرع ودلَّت عليه النُّصوص فهذا مَعنِيٌّ به المسلمُ فيعملُهُ، ومَا دَلَّ الشَّرع أنه لا يعنيه فهذا يجتنبُه، فمردُّ الأمر إلى اتِّباع ما جاء في الكتاب والسُّنة.

(٢) المُراد بحَبس اللسَان: **مَنعُهُ من كُل ضَار**، وفي هذا يقول عبدُ الله بن مَسعُود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «والذي لا إله غيرُه ما على الأرضِ شيءٌ أحوجَ إلى طُولِ سَجنٍ مِن لسانٍ» [أخرجه ابنُ أبي الدنيا في «الصمت» (١٦)]؛ لأنَّ اللِّسانَ إن لم يُحبَس فإنه يترتَّب عليه شرٌّ كبيرٌ، وعاقِبَةٌ سيِّئةٌ. =

قليلَ الضَّحِك فيما يضحَكُ فيه الناسُ؛ لسوءِ عاقبةِ الضَّحِك(١)، إن سُرَّ بشيءٍ ممَّا يوافقُ الحقَّ تبسَّم(٢)، ....

= ولهذا يقُول النبي ﷺ في بيَان ثَمَرة هذا الحَبس للِّسَان: «**مَن صَمَتَ نَجا**». [أخرجه الترمذي (٢٥٠١) وصححه الألباني].

ولا يدخلُ في ذلك: ذِكرُ الله، وقرَاءة القرآن، والأمر بالمَعروف والنَّهي عن المُنكَر، فهذا لا يُحبَس اللسان عنه؛ لأنه من الخَير الذي ينفع العبد.

فحفظُ اللسَان مِلاكٌ لأمرِ الإنسَان كُلِّه؛ لأن أعضاء الإنسَان وتَحركَاته كُلها تَبَع للسَان، كمَا جاء في الحَديث أن النَّبي ﷺ قال: «**إِذا أَصبَحَ ابنُ آدمَ فإِنَّ الأعضاءَ كُلَّها تُكَفِّرُ اللِّسان** -أي: تَخضع له-، **تقولُ: اتَّقِ اللهَ فينا؛ فإنَّما نَحنُ بِكَ؛ فإِنِ استَقَمت استَقَمنا، وإنِ اعوَجَجتَ اعوججنا**». [أخرجه الترمذي (٢٤٠٧) وحسَّنه الألباني]

وقد قيل: «المَرءُ بأصغَرَيه: قَلبه وَلسَانه».

فإذا استقامَ قلبُ المرء واستقام لسَانه؛ استقام البَدَنُ كُله، وإذا اعوَج القلبُ أو اعوج اللسانُ؛ أدَّىٰ ذلك إلىٰ انحِرَاف البَدَن كله.

(١) كثيرٌ من الناس هَمُّه ودَيدنه هو الضَّحك والقَهقَهة، وهذه مَهلَكة للإنسان، وتَحول لحيَاته عن الجد والانضبَاط والاهتمامِ بمَعَالي الأمور، إلىٰ اللَّهو واللعِبِ والسَّفَه الذِي تُثمِره كثرةُ القهقهة والضَّحك.

(٢) قوله ﵀: «**ممَّا يوافق الحقَّ**»: ذكر هذا القيدَ لأنَّ ما لا يُوافق الحَق ممَّا يقع فيه كثيرٌ من الناس من الأكاذيب أو الاستهزاء ببعض الناس علىٰ وَجه المَزح والضَّحك، وغيرها من المناهي الشَّرعية؛ فلا يُشرعُ الضَّحك ولا التَّبسُّم؛ لأنه مُخالِفٌ للحقِّ، فالواجِبُ إنكاره.

وقد قال النبيُّ ﷺ: «**ويلٌ للذي يُحَدِّثُ بِالحَدِيثِ لِيُضحِكَ بِهِ القومَ فيكذِبُ، وَيلٌ لَهُ وَيلٌ لَه**» [أخرجه أبو داود (٤٩٩٠)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»].

يكره المِزاحَ خوفًا من اللَّعبِ[١]، فإن مَزَحَ قال حقًّا[٢]، باسِطَ الوجْهِ، طيِّبَ الكلام[٣].

لا يمدحُ نفسَهُ بما فيه، فكيفَ بما ليس فيه[٤]؟!

يحذَرُ من نفسِه أن تغلبَه على ما تهوىٰ ممَّا يُسْخِطُ مولاه[٥]، لا يغتابُ أحدًا[٦]، ولا يَحْقِرُ أحدًا[٧]، ولا يسبُّ أحدًا، ولا يَشْمَتُ بمُصيبةٍ[٨]، ولا يَبغي على أحدٍ[٩]،

---

(١) فيكره كثرة المِزاح خَوفًا من أن يَنقلَه الاستغراقُ فيه إلىٰ أن تتَحوَّل حياتُه إلىٰ لَعبٍ لا جِدَّ فيهَا.

(٢) ولهَذا لمَّا قيل للنَّبي ﷺ: «يا رسُولَ اللهِ، إنَّكَ تُداعِبُنا، قال: **إنِّي لا أَقولُ إلا حقًّا**».

[أخرجه الترمذي (١٩٩٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي].

(٣) أي: يَلقَىٰ إخوانَه بوجهٍ طلق مُنبَسِط، لا وجه مُقطِّبٍ عَابس أو مُنقَبض، ولا يتكَلَّم إلا بالكَلام الحَسَن الطيِّب، قال ابن عمر رضي الله عنهما: «البرُّ شيءٌ هيِّنٌ؛ وَجهٌ طليقٌ، وكلامٌ ليِّنٌ» [أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (ص٣١٦)].

(٤) وهذه من صفَات حامل القرآن العَليَّة الرَّفيعة؛ أنه لا يمدَحُ نفسَه بمَا فيه؛ فضلًا عن أن يمدَحَ نفسه بما ليس فيه.

(٥) أي: أنه في جهَاد مع نَفسِهِ، فإنَّ النَّفسَ أمَّارةٌ بالسوء، وهو علىٰ خَوفٍ من أن تغلبه نفسُهُ علىٰ أَمرٍ تَهواه وهو يُسْخِطُ الله جل وعلا.

(٦) **الغِيبَة** هي: ذِكرُك أخاكَ بما يكرَهُ، كما فسَّرها النبي ﷺ بذلك. [أخرجه مسلم (٢٥٨٩)].

(٧) فالمُسلم أخُو المسلم؛ لا يَحقِرُه، ولا يُعَامل إخوانه المُسلمين بالازدِرَاء والانتقَاص.

(٨) **الشَّمَاتة في المُصيبَة**: أن يدخُل لقَلبه الفرحُ والسرور بالمصيبة التي حَصَلت لأخيه، فهو لا يَشمَت بالمُصيبَة، بل إذا أُصيبَ أحدُ إخوَانه بمُصيبَة دعا الله له، وسَأله أن يُفرِّج هَمَّه وأن يُنفِّس كَربَه.

(٩) فلا يظلم الناس ولا يعتدي عليهم.

ولا يحسُدُه[١]، ولا يُسيءُ الظنَّ بأحَدٍ إلا بمَن يستحِقُّ[٢]، يحسُدُ بعلمٍ[٣]، ....

---

(١) **الحَسدُ**: تمنِّي زَوَال النعمَة عن الغير؛ ولهذا يُسمَّىٰ الحاسد: عَدوَّ نعمَة الله علىٰ عبَاده.

قال العُلماء: إن الحَسَد ثلاثُ مراتب:

الأولىٰ: كَرَاهية حُصول النعمَة للغَير.

والثانية: أن يتمَنَّىٰ زوالَ النعمَةِ عنه، وهذا أشد من الأول.

والثالثة -**وهي أشَدُّ منهما**-: أن يعمل علىٰ إزالتها فيُخَطِّط ويُدَبر لزوال النعمة عن أخيه.

[انظر: «بدائع الفوائد» لابن القيم (٢/ ٧٦٢)]

فهذا كُلُّه من الحسد المَذمُوم الذي يَنبغي علىٰ كلِّ مُسلم ألَّا يتصِفَ به.

(٢) فالأصلُ عند المسلم هو إحسانُ الظَّن بإخوانِهِ المُسلمين، كما قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات:١٢].

وقال عُمَر بنُ الخطَّاب رضي الله عنه: «لا تَظُنَّنَ بكلمَةٍ خَرَجَت من فِي امرِئٍ مُسلِمٍ سُوءًا وأنت تَجِدُ لها في الخَيرِ مَحمَلًا». [أخرجه المحاملي في «أماليه» (ص٣٩٥) برقم (٤٦٠)].

فالواجِبُ علىٰ المسلم أن يُحسنَ الظنَّ بإخوانه وأن يحمل أفعالهم علىٰ المَحَامل الحسَنَة، والاعتذَارات التي تُبنَىٰ علىٰ حُسن الظنِّ، إلا إنْ ظهرت أمور بيِّنة وواضحة تدعو إلىٰ إساءة الظَّن.

(٣) والمراد بالحَسد هُنا: **الغِبطَة**، وهي التي جاءت في حديث النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «**لا حَسَدَ إلا في اثنتَينِ: رَجُلٌ آتاهُ اللهُ مالًا فَسُلِّطَ علىٰ هلكتهِ في الحَقِّ، ورَجُلٌ آتاهُ اللهُ الحِكمَةَ فهو يقضي بِها ويُعَلِّمُها** » [أخرجه البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٦)]

فالغِبطَة منه تكون بعِلم؛ فلا يقعُ في نفسِهِ كراهيَة للنعمة التي حَصَلت، ولا تَمنٍّ لزوالها، ولا عمل علىٰ إزالتها، ولكنَّه يتمَنَّىٰ أن يكون مثلَ إخوانه في الخَير، ولا يغبطُ إلا في أمور الخير.

ويظنُّ بعلمٍ[١]، ويتكلَّمُ بما في الإنسان من عَيبٍ بعلمٍ[٢]،......................

---

(١) فلا يُسيءُ الظَّن بدون أمورٍ واضحةٍ بيِّنةٍ ممَّن هو أهلٌ لإساءة الظنِّ به.

(٢) تقدَّم أنَّ الكلامَ في الناس بعيبٍ موجود فيهم، هو الغِيبَة التي جاءت الشَّريعة بالنَّهي عنها، ولكن مرادُ المصنِّف رحمه الله: الغيبة التي تكون بعِلم، وهي الغيبة المباحة التي ذكرها العلماء؛ فقد نصُّوا أن الغيبةَ تجُوز في بعض الحَالات، وتَجِبُ أحيانًا إذا دعت المصلحة، وصنَّف الشَّوكانيُّ رحمه الله رسالةً بعُنوان: «**رفع الرِّيبة عما يجوز وما لا يجوز من الغِيبَة**».

وقد جمع الناظِمُ المواضع التي تُباح فيها الغيبة للضَّرورة بقوله:

الـذَّم لَيَسَ بغِـيبَـةٍ فـي سِـتَّـةٍ ... مُـتَـظَـلِّـمٍ ومُـعَـرِّفٍ وَمُـحَـذِّرِ

ولِمُظهِرٍ فِسقًا وَمُستَفتٍ وَمَن ... طَلَبَ الإعَانَةَ فِي إِزَالَةِ مُنكَرِ

قال النووي رحمه الله في كتاب الأذكار (ص٣٤٠): «اعلم أنَّ الغيبةَ وإن كانت محرَّمة فإنها تُباح في أحوال للمصلحة، والمُجوِّزُ لهَا غرضٌ صحيح شرعي لا يُمكن الوصولُ إليه إلا بها، **وهو أحدُ ستة أسباب:**

الأوَّل: التظلُّم، فيجوز للمَظلوم أن يتظلَّم إلىٰ السلطان والقاضي وغيرهما ممَّن له وِلاية أو له قدرة علىٰ إنصافه من ظالمه، فيذكرُ أن فلانًا ظلمني، وفعل بي كذا، وأخذ لي كذا، ونحو ذلك.

الثاني: الاستعانة علىٰ تغيير المنكر ورَدِّ العاصي إلىٰ الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته علىٰ إزالة المنكر: فلان يعملُ كذا فازجُرْه عنه، ونحو ذلك، ويكون مقصودُه التوصل إلىٰ إزالة المنكر، فإن لم يقصد ذلك كان حرامًا.

الثالث: الاستفتاء، بأن يقولَ للمُفتي: ظلمني أبي أو أخي أو فلان بكذا، فَهَل له ذلك، أم لا؟ وما طريقي في الخلاص منه وتحصيل حقِّي ودفع الظلم عني؟ ونحو ذلك.

=

= وكذلك قوله: زَوجتي تفعلُ معي كذا، أو زوجي يفعلُ كذا، ونحو ذلك، فهذا جائز للحَاجة، ولكن الأحوط أن يقول: ما تقولُ في رجل كان من أمره كذا، أو في زوج أو زوجة تفعلُ كذا، ونحو ذلك، فإنه يحصل به الغرض من غير تعيين، ومع ذلك فالتعيين جائز، لحديث هند...وقولِها: «يا رسول الله، إن أبا سفيانَ رجلٌ شحيح...». الحديث، ولم ينهها رسولُ الله ﷺ.

الرابع: تحذير المسلمين من الشَّرِّ ونصيحتهم، وذلك من وجوه، منها: جَرحُ المَجرُوحين من الرواة للحديث والشُّهود، وذلك جائز بإجماع المسلمين، **بل هو واجب للحاجة**.

ومنها: إذا مَا استشارك إنسَان في مُصَاهرته، أو مشاركته، أو إيدَاعه، أو الإيداع عنده، أو مُعَاملته، وغير ذلك، وجب عليك أن تذكُرَ له ما تعلمه منه على جِهَة النصيحَة، فإن حصل الغرضُ بمُجرَّد قولك: لا تَصلحُ لك مُعَاملتُه، أو مصاهرتُه، أو لا تفعَل هذا، أو نحو ذلك، لم تَجُز الزيادةُ بذكر المَسَاوئ، وإن لم يحصل الغرض إلا بالتَّصريح بعينهِ فاذكُره بصَريحِهِ.

ومنها: إذا رأيتَ مَن يشتري عبدًا يُعرَف بالسَّرقة أو الزنا أو الشُّرب أو غيرها، فعليك أن تُبيِّن ذلك للمُشتري إن لم يكن عالمًا به، ولا يختصُّ بذلك، بل كل من علم بالسِّلعة المَبيعة عيبًا وجب عليه بيانُه للمشتري إذا لم يعلمه.

ومنها: إذا رأيت مُتفقهًا يتردَّدُ إلى مُبتدعٍ أو فاسقٍ يأخذ عنه العلم خِفْتَ أن يتضرَّرَ المتفقِّه بذلك، فعَليك نصيحته ببيان حاله، ويُشترط أن يقصدَ النصيحةَ، وهذا مما يُغلَطُ فيه، وقد يَحملُ المُتكلمَ بذلك الحسدُ، أو يُلَبِّسُ الشيطانُ عليه ذلك، ويُخيَّلُ إليه أنه نصيحةٌ وشفقةٌ، فليتفطَّن لذلك. =

ويسكُتُ عن حقيقةِ ما فيه بعلمٍ[١]، قد جعلَ القرآنَ والسُّنةَ والفقهَ دليلَه إلى كلِّ خُلُقٍ حسنٍ جميلٍ[٢]، حافِظًا لجميعِ جوارحِه عمَّا نُهِيَ عنه[٣]، ....

= **ومنها**: ألَّا يكون له ولاية لا يقُوم بها على وجهها، إما بألَّا يكون صالحًا لها، وإما بأن يكون فاسقًا أو مغفلًا، ونحو ذلك، فيجب ذِكرُ ذلك لمن له عليه ولاية عامة ليُزيلَه ويُولِّي من يَصلحُ، أو يعلم ذلك منه ليعامله بمُقتضى حاله ولا يغترّ به، وأن يسعى في أن يحثَّه على الاستقامة أو يستبدل به.

الخامس: أن يكون مُجاهرًا بِفسقِهِ أو بدعته، كالمُجَاهر بشرب الخمر، أو مصادرة الناس، وأخذ المُكس، وجِبَاية الأموال ظلمًا، وتولِّي الأمور الباطلة، فيجوز ذكره بما يُجاهر به، ويحرم ذكره بغيره من العيوب، إلا أن يكون لجوازِهِ سبب آخر مما ذكرناه.

السَّادس: التعريف، فإذا كان الإنسان معروفًا بلقب: كالأعمش، والأعرج، والأصَمّ، والأعمى، والأحول، والأفطس، وغيرهم، جاز تعريفه بذلك بنيَّة التعريف، ويحرُمُ إطلاقُه على جهة التنقص، ولو أمكنَ التعريف بغيره كان أولى.

فهذه ستةُ أسباب ذكرهَا العلماء مما تُباح بها الغِيبَة على ما ذكرناه». انتهى كلامه.

(١) فامتناعُه عن الكلام أيضًا يكون بعلم.

(٢) أي: أنه أمَّر كتابَ الله وسُنةَ النبي ﷺ على نَفْسِهِ، وجَعلهُما دليلًا له، **والدليلُ** هو الهَادي؛ فهو يهتدي بهدَايات الكتابِ والسُّنة مُعتَصمًا بحَبل الله تعالى.

(٣) أي: عمَّا نَهَاه الله تعالى عنه، وعمَّا نهاه عنه رسُوله ﷺ.

وحفظ الجَوَارح: يتنَاول حفظَ اليد من أن تمتدَّ إلى حَرام، والقَدمِ من أن تَسير إلى حرام، والبَصر من أن ينظُرَ إلى حرام، والسَّمع من أن يستَمع إلى حرام، واللسان من أن يتكلم بحرام، والفرج من أن يَغشَى الحرام، حافظًا لجَوارحه، وحفظه لجوارحه قائمٌ على الخَوف من الله، والمُراقبة له –جل في عُلاه– من أن يرتكبَ بجَوَارحه شيئًا يُسخِطهُ ﷻ.

إن مشىٰ مشىٰ بعلمٍ، وإن قَعَدَ قَعَدَ بعلمٍ(١)**، يجتهدُ ليَسْلَمَ الناسُ من لسانِه ويدِه**(٢)**، لا يَجْهَلُ، فإن جُهِلَ عليه حَلِمَ**(٣)**، ....**

---

(١) أي: أنه في قيَامِهِ وإقدامه علىٰ الأمور يكون بعلم، وقعُوده وإحجامه عن الأمور يكون بعلم، فجميع حَركاته إنما تصدر بمُوجب العلم، لا بمُوجب الهوىٰ.

وقد قال أبو الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «مِن فِقهِ الرَّجُلِ مَدخَلُه ومَمشاهُ وإِلفُه». [أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٥٥٩١)]

وقال ميمون بن مهران رَحِمَهُ اللهُ: «لا يكون الرجلُ تَقيًّا حتىٰ يُحَاسِبَ نفسَهُ محاسبةَ شريكه، وحتىٰ يعلمَ من أين ملبسه ومشربه ومطعمه». [أخرجه ابن أبي شيبة برقم: (٣٥٥٢٦)]

فهو يتَحرىٰ الحلال في مَأكله ومَشربه وممشَاه، وإذا تبيَّن أنَّ فيه حرامًا أو شُبهَةً توقَّف.

(٢) كما قال النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المُسلِمُ مَن سَلِمَ المُسلِمونَ مِن لِسانِه ويدِه**» [أخرجه البخاري (١٠)، ومسلم (٤٠)].

فهو في اجتهَادٍ دائم ألَّا يقع منه أي أذىً لأحَد من المسلمين؛ لا بلسَانه ولا بيده، حافظًا لسَانه عن أذية الآخرين، وحافظًا يده من أن تمتد بإيذَاء الآخرين.

(٣) أي: لا يفعَل فعل الجُهَلاء والسُّفهاء؛ فلا يعامِل الناسَ بمُعاملة الجُهَلاء والسُّفهاء؛ لأنَّها -كما هو معلوم- تقوم علىٰ سُوء الخلق؛ من سَفَهٍ وشَتم وإيذَاء، وغير ذلك.

وإن قُدِّرَ أن جُهِلَ عَليه فإنَّه يقابل الجهل بالحِلْم، كما قال تعالىٰ في صِفات عباد الرحمن: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾.

وصحَّ في الحديث أن رَجُلًا قالَ للنَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا رسولَ اللهِ، إنَّ لي قرابةً أَصِلُهُم ويقطَعوني، وأُحسِنُ إِليهِم ويُسِيؤونَ إِلَيَّ، وأحلُمُ عنهم ويجهلُونَ علَيَّ، فقال: **لَئِن كُنتَ كما قُلتَ، فكأنَّما تُسِفُّهُمُ المَلَّ ولا يزالُ معك مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عليهِم ما دُمتَ علىٰ ذلك**».

[أخرجه مسلم (٢٥٥٨)].

=

ولا يظلِمُ، فإن ظُلِمَ عفا[(١)]، ولا يبغِي، فإن بُغِيَ عليه صَبَرَ[(٢)]، يكظِمُ غيظَه ليُرضي ربَّه، ويُغِيظَ عدوَّه[(٣)]، ....

=

وأمَّا إذا قابل المسلمُ جَهلَ الجَاهل بجَهلٍ مثله؛ فقد اشتركَ معه في هذا الجَهل، وقد يقعُ في الإثم بالاعتداء أو الكلام السَّيئ، ولكن إن أعرض سَلِمَ من الجهل، وأمِنَ من حُصُول الإثم.

ويُشرَعُ للمسلمِ إذا خرجَ من بيته أن يُهيئ نَفسَه ألَّا يَجْهَلَ علىٰ الناس، وألا يَظلِمَهم، وألا يُؤذِيَهم، وأن يلجأ إلىٰ الله تعالىٰ ليعينه علىٰ ذلك؛ ولهذا صحَّ عن النبيِّ ﷺ -ولنا فيه قدوة وأسوة- أنه كان يقول كلَّ مَرة إذا خرَج من بَيتِهِ: «**اللَّهُمَّ أعُوذُ بِكَ أن أَضِلَّ، أو أُضَلَّ، أو أَزِلَّ، أو أُزَلَّ، أو أَظلِمَ، أو أُظلَمَ، أو أَجهَلَ، أو يُجهَلَ عَلَيَّ**». [أخرجه أبو داود (٥٠٩٤)، وصححه الألباني]

وذلك لأن مُلاقَاة الناس لابدَّ أن يَحصُل فيها أشياء قد تُثير الجُهَلاء؛ فيُهيئ نفسَهُ بقول هذا الدعاء، والعزم علىٰ ألا يجهل علىٰ الناس، وأن يُجانبَ ما يُسبِّب جهلهم عليه، فإن قُدِّرَ أن جُهِلَ عليه حَلم ودَفَع بالتي هي أحسَن.

(١) أي: لا يَظلم أحدًا، وإن ظلمَه أحدٌ عفا عنه؛ ابتغاء ثوابِ الله ﷻ.

(٢) أي: لا يحصُل منه بَغي علىٰ أحد بعُدوان أو تَعالٍ أو تطاول أو غير ذلك، وإن بُغي عليه صَبَر ابتغاء ثوابِ الله سبحانه وتعالى.

(٣) وكظمُ الغيظ بأن لا يظهره، بل يَكتُمُهُ في نَفسِهِ ويحبِسُهُ.

وأعلىٰ من كظم الغَيظ: **العفو**؛ كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله: «جِماعُ الخلق الحَسَنِ مع الناسِ: أن تَصِلَ مَن قطَعك بالسَّلام والإكرَام والدعَاء له، والاستغفار، والثنَاء عليه، والزيَارَة له، وتُعطي من =

متواضِعٌ في نفسِه(١)**، إذا قيل له الحقُّ قَبِلَه؛ مِن صغيرٍ أو كبيرٍ**(٢)**، يطلُبُ الرِّفعةَ من الله ﷻ، لا مِنَ المخلوقين**(٣)**، ماقِتٌ للكِبْرِ، خائفٌ على نفسِه منه**(٤)**.**

لا يتأكَّلُ بالقرآن(٥)**، ....**

= حَرَمك من التَّعليم والمَنفعَة والمَال، وتَعفُو عمَّن ظلمك في دَمٍ أو مَالٍ أو عِرضٍ، وبَعضُ هذا واجبٌ وبعضُه مُستَحَبٌّ». [«مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٥٨)]

فجِماعُ الخُلُق الحَسَن هو أن يَرتقي المسلمُ بخُلقه هذا المُرتَقى العظيم، وهذه المَنزلَةَ العَليَّة، وأمَّا مُعاملة الناس بالمِثل فأمرها مُتيسِّر لكثير من الناس، ولكنَّ الشأنَ فيما فوقَ ذلك من كظم الغيظ، والعفو، وغير ذلك ممَّا ذكره شيخ الإسلام، ولا يتحقَّقُ هذا المعنى إلا لمَن أكرمَهُ الله ﷻ بنَفْسٍ عليَّةٍ وخُلقٍ عَظيم، فإنه يستطيعُ أن يَصل إلى هذا المَوصِل.

(١) أي: لا تزيدُهُ أبواب الخير من علم أو مال أو غير ذلك إلا تَواضعًا.

(٢) وهذا مِن جملة تواضعه، أنه لا يَرُد الحق لكون الذي أوصَلَه إليه صغير السِّن، فإنَّ بعضَ الناس يأتيه شَخصٌ صغير السِّن فيتعَالى على الحق؛ لكون الذي حدَّثه به صغيرُ سِنٍّ.

وقد قال النبي ﷺ: «**إنَّ اللهَ أوحى إِلَيَّ أَن تواضَعُوا؛ حتَّى لا يفخَرَ أَحَدٌ على أَحدٍ، ولا يبغي أَحَدٌ على أَحَدٍ**».[أخرجه مسلم (٢٨٦٥)].

(٣) لأن رِفعَته بيد الله، وعِزَّه وفلاحه وسعَادته في دُنياه وأخراه بيد الله؛ فهو لا يَطلُب ذلك إلا من الله، ولا يلجَأ فيه إلا إلى الله سبحانه وتعالى.

(٤) قوله: «**مَاقِتٌ**»؛ أي: مُبغِضٌ وكارهٌ للكِبر، ومع بُغضه له عنده خَوفٌ على نفسه من أن تقع في شَيء من الكبر، فَهُو في مُجَاهَدَة مُستمرة مع نفسه ألا تَقعَ في شَيء من الكِبر.

(٥) أي: لا يَجعل القرآنَ أداةً يستعملها لأجلِ أن يتكسَّبَ بها الأموال، وذلك بسَعيه وعمَله لإبراز شَأنه في القُرآن ليتأكَّل به.

ولا يُحِبُّ أن تُقضَى له به الحوائجُ[(١)]، ولا يسعى به إلى أبناءِ المُلوك، ولا يُجالِسُ به الأغنياءَ ليُكرمُوه[(٢)].

إن كَسَبَ الناسُ من الدنيا الكثيرَ بلا فقهٍ ولا بصيرةٍ، كَسَبَ هو القليلَ بفقهٍ وعلمٍ[(٣)]، إن لَبِسَ الناسُ اللّيِّنَ الفاخرَ، لبِسَ هو من الحلالِ ما يستُرُ عورتَه[(٤)]، إن وُسِّعَ عليه وَسَّعَ، وإن أُمسِكَ عليه أَمسَكَ[(٥)]، يقنَعُ بالقليلِ فيكفِيه[(٦)]، ويحذَرُ على نفسِه من الدُّنيا ما يُطغِيه[(٧)]، ....

(١) أي: لا يحرص على قضاء حوائجه بالقرآن، مثل أن يُراعَى في سِعْرٍ، أو يُكرَم في مَبيع، ونحو ذلك، فإن شأنَ القرآن عندَه أجَلُّ من ذلك وأعظَم.

(٢) أي: لا يسعى بالقرآن إلى أبناء المُلُوك والأغنياء ليُكرموه، ولكن إن ذَهَبَ ناصحًا ومُؤدبًا ونافعًا لهم فهذا مشروعٌ.

(٣) أي: إن كسَب الناس الأموالَ الكثيرة بلا فقهٍ ولا بَصيرة، رَضِيَ هو لنفسه من الكسب القليل الذي يُحصِّله بفقهٍ وبصيرة وحلال لا شبهةَ فيه.

(٤) فإن تنافس الناس بالمَلبُوسات وتفاخروا بها وتَبَاهَوا بأشكالها وأنواعها، رَضي هو من اللباسِ بما يستر به عَورَته.

(٥) وذلك عمَلًا منه بقول الله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق:٧]. قُدِرَ: أي ضُيِّقَ.

(٦) لأن القناعة هي الغنى الحَقيقي، ومن لا قناعَة عندَه وإن أوتي من المَال مثلما أوتي قَارون فإنه لا يَراه يَكفي حَاجَته.

(٧) أي: هُو على حَذَر من نفسه من أن يُصيبها شيءٌ من الطغيَان بسَبب المال؛ لأن الله قال: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق:٦-٧].

يتبَعُ واجباتِ القرآن والسُّنة[١]، يأكُلُ الطعامَ بعلمٍ، ويشربُ بعلمٍ، ويلبسُ بعلمٍ[٢]، وينامُ بعلمٍ[٣]، ويُجامِعُ أهلَه بعلمٍ[٤]، ويصحَبُ الإخوانَ بعلمٍ، يزورُهُم بعلمٍ[٥]، ويستأذِنُ عليهم بعلمٍ[٦]، يجاوِرُ جارَه بعلمٍ[٧].

يُلْزِمُ نفسَهُ برَّ والديه[٨]، ....

---

(١) أي: مُلتزمٌ بالقرآن والسنة في شُؤونه كلها؛ فكلُّ ما وجبَ عليه بكتَاب الله وسُنَّة نَبيه ﷺ اتَّبعه والتزمَ به.

(٢) أي: أنه يتَفَقَّه في أحكام الأطعمة والأشربة واللِّبَاس، فلا يأكل ولا يشربُ ولا يلبسُ إلا حلالًا، وإذا وجدَ منها شيئًا حرامًا امتنَع عنه.

(٣) فإذا أوَىٰ إلىٰ فراشه اقتفىٰ السنَّة المأثورة عن النبي ﷺ في النوم، فلا ينام نَومَةً مَنهيًّا عنها، ويُحافِظُ علىٰ أوراد النَّوم وأذكاره وآدابه، فيكون نومه مُبَاركًا قَائمًا عَلىٰ اتِّباع السُّنة.

(٤) فيراعي آداب معاشرة الزَّوجة، وما نُهِيَ عنه في الشَّريعة -كالجِماع حال الحيض وكإتيان الزَّوجة في دُبرها-، فإنه يحذره أشدَّ الحذر، ويجتنبه؛ لأنه من كبائر الذنوب.

(٥) أي: يلزمُ آدابَ الصُّحبة والمُخَالطة لإخوانه، وإذا زارهم التزم بآداب الزيارة الشَّرعية.

(٦) فيراعي آداب الاستئذان في دخوله علىٰ إخوانه، فيبدأ دخوله بإلقَاء السَّلام، كما صحَّ عن النَّبي ﷺ أنه قال: «**مَن بَدَأَ بِالكلامِ قَبلَ السَّلامِ فلا تُجِيبُوهُ**» [أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ١٩٩)، وحسَّنه الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» (٨١٦)].

(٧) فيتخلَّق بآدابِ الجوار التي جاءت بهَا الشَّريعَة، وحضَّت عليها.

(٨) شرعَ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ يذكر ما يجبُ علىٰ حاملِ كتاب الله عَزَّوَجَلَّ من أدبٍ وخُلُق تجاه والدَيه، فإنهما أحقُّ الناس بالإحسان والبر والأدب؛ فعندما سألَ رجُلٌ النبيَّ ﷺ: «من أحَقُّ النَّاسِ بِحُسنِ صحابتي؟، قال: **أُمُّكَ**، قال: ثُمَّ مَن؟ قَالَ: **أُمُّكَ**، قال: ثُمَّ مَن؟ قال: **أُمُّكَ**، قال: ثُمَّ مَن؟ قال: **أَبُوكَ**». [أخرجه البخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨)]

فيخفِضُ لهما جناحَهُ، ويخفِضُ لصوتِهما صوتَه[١]، ويبذُلُ لهما مالَه[٢]، وينظُرُ إليهما بعينِ الوَقارِ والرَّحمةِ[٣]، يدعو لهما بالبقاءِ[٤]، ويشكُرُ لهما عند الكِبَرِ[٥]، لا يضجَرُ بهما[٦]، ولا يَحْقِرُهما[٧]، إن استعانا به على طاعة أعانَهما[٨]، ....

---

(١) كما قال الله ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

(٢) ولابدَّ أن يكون هذا البذلُ بنَفْسٍ طيبة؛ حتَّىٰ وإن كان بحاجَةٍ إلىٰ هذا المال، وليَسْتَحْضر جَميلهما السَّابق له، وإحسَانهما العظيم تجاهه، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

(٣) فيجمع في نظرته إليهما بين الوقار والرحمة؛ ولا سيَّما إذا بلغ بهما السِّن مبلغًا كبيرًا؛ فَضَعفت الحواس والقوىٰ، وضَعُف البصر، وضَعُفت الحركةُ.

(٤) فلا يلحق بإحسانِه لوَالدَيه ورعَايته لحُقوقهما مَلَلٌ أو رغبة في التخَلُّص من المشقَّة التَّابعة لذلك، بل يدعو الله أن يطيل عمرهما ليَحظَىٰ بهناءة برِّهما والإحسَان إليهمَا.

(٥) كما أمره رب العالمين بذلك فقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]

(٦) أي: لا يُظهِرُ في تَعامُلِهِ معهما انزِعاجًا منهما أو كراهة لخدمتهما، خاصَّة عند الكِبَر؛ فقد يَرتَفع صوتُ الأب بسببِ ضَعف سَمْعِهِ، وقد تُزعجُه كثير من الأشيَاء التي لا تُزعِجُ غيره لضَعفِ قُواه، وما يُعانيه من التعَبِ والأمرَاض، فالواجب ألا يَضجَر منهما مَهمَا كانت الأسباب؛ بل يترَفَّق ويتلطَّف، ويُحسِنُ إليهما إحسَانًا عظيمًا.

(٧) المسلِمُ منهِيٌّ عن احتِقار أيِّ مسلمٍ؛ كما قال النبي ﷺ: «**المُسلِمُ أَخُو المُسلِم؛ لَا يَظلِمُهُ ولا يَخذُلُهُ، ولا يَحقِرُهُ**...» [أخرجه مسلم (٢٥٦٤)]، فكيف بالأبوين؟!

(٨) أي: إن طلبَا منه المُعَاونة والمُسَاندة في أداء طَاعة الله تعالىٰ أعانَهُما علىٰ فعلها.

وإن استعانا به على معصيةٍ لم يُعِنْهما عليها[١]، ورَفَقَ بهما في معصيتِهِ إيَّاهما، يُحَسِّنُ الأدبَ ليرجِعا عن قبيحِ ما أرادا، ممَّا لا يَحْسُنُ بهما فعلُه[٢].

يَصِلُ الرَّحِمَ، ويكرَهُ القَطِيعةَ[٣]، مَن قطعَه لم يقطعْهُ[٤]، ....

---

(١) لأن الله تعالى يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة:٢]، فلا يُعاونُهما على إثمٍ، ولا يُطيعهما في معصيةِ الله ﷻ، لقول النَّبيِّ ﷺ: «**لا طاعَة في مَعصِيَةِ اللهِ؛ إنَّمَا الطَّاعةُ في المعرُوفِ**». [أخرجه البخاري (٧٢٥٧)، ومسلم (١٨٤٠)]

(٢) أي: أنَّهما عندما يطلُبَان منه مُعَاونة في مَعصيَة الله لا يُطيعُهما، لكن يجبُ أن يَرفُقَ بهما؛ فلا يُنكِرُ عليهما برفع صوتٍ وغِلظةٍ وشِدَّة.

فلو طلبَ منه والدُه أن يشتري له شَيئًا مُحرَّمًا؛ فلا يطيعه في معصية الله، لكن يجبُ أن يَتلطَّف معه، فإنَّ هذا من المَعُونَة لوالده على تَرك البَاطل.

فإن تَلطُّف الابن، وتَرَفُّقه ومعاملته الطيِّبة سبب في تراجُع الوالدين عن كثير من الأمُور السَّيئة التي يُريدان فِعلَها، بعكس مَا إذا كان الشَّاب المُتدين يُعامل والده بقَسوة، ويُنكر المُنكَر الذي في البَيت بشدَّة وغِلظَة وعُنف فإنَّ هذا سيُوَلِّد عنادًا وفجوة بين الابن وأفرَاد أسرته؛ بخلاف ما إذا تَرَفَّق بهما وأحسَنَ التعامُل معهما؛ فإنَّ هذا يثمِرُ غالبًا.

(٣) لأن الله تعالى قال في ثنائه على المُؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [الرعد:٢١].

وقال ﷻ في شأن القَطيعَة: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢-٢٣].

(٤) لأن صلتَه لقرَابته طاعةٌ لله تعالى وطلبٌ لرضاه، وليستْ على سَبيل المُكافَأة؛ بأن يصلَ مَن وَصَله منهم، ويقطعَ من قطعه، بل الأمر كما جَاء في الحَديث عن نَبيِّنا ﷺ قَال: «**ليسَ الواصِلُ بِالمُكافِئ، ولكنِ الواصِلُ الذي إذا قُطِعَت رَحِمُهُ وصَلَها**».[أخرجه البخاري (٥٩٩١)] =

مَن عصى اللهَ فيه أطاعَ اللهَ فيه(١)**، يصحَبُ المؤمنينَ بعلمٍ، ويُجالِسُهم بعلمٍ، مَن صَحِبَه نفعَه**(٢)**، حَسَنُ المجالسَةِ لمَن جالَس**(٣).

إن عَلَّمَ غيرَه رَفِقَ به(٤)**، لا يُعنِّفُ مَن أخطأَ ولا يُخْجِلُه**(٥)**، رفيقٌ في أُمورِه، صبورٌ على تعليمِ الخيرِ**(٦)، ....

= وعن أبي هُريرَة رضي الله عنه أنَّ رجُلًا أتى النَّبي ﷺ فقال: «يا رسولَ اللهِ، إنَّ لي قرابةً أصِلُهُم ويقطَعوني، وأُحسِنُ إليهم ويُسيؤونَ إِلَيَّ، وأحلُمُ عنهم ويجهلونَ علَيَّ. فقال: **لَئِن كُنتَ كما قُلتَ، فكأنما تُسِفُّهُمُ المَلَّ، ولا يزالُ معك مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عليهِم ما دُمتَ على ذلك**». [أخرجه مسلم (٢٥٥٨)]، ومعنى «**ظهير**» أي: مَدَد ومَعُونة وتسديدٌ من الله ما دُمتَ على ذلك.

(١) أي: من ارتكَب في حقِّهِ مَعصية لم يَعصِ الله فيه؛ بل اتَّقى الله فيه وأطَاع الله فيه.

(٢) لأنه في مُجَالَسَته لإخوانه حريصٌ على نَفعهم وإفَادتهم، وبعيدٌ كلَّ البعد عما فيه مَضَرة بهم، أو إيذاء لهم، ولا يكونُ الرجُلُ مُباركًا حتى يكونَ ممَّن ينفع النَّاس في مجالسه، كما في قول نبي الله عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم:٣١].

(٣) لأنه يُجَالس إخوانَه بالآداب الشرعيَّة، والأخلاق العَليَّة -كما تقدَّم-.

(٤) وهذه من الرَّكائز المُهمَّة والأُسُس العَظيمة فيمَن يُقرِؤون القرآن ويُلقِّنُون كتابَ الله تبارك وتعالى؛ فلابدَّ أن يتحلَّوا بالرِّفق واللُّطف والإحسان، وأن يبتعدوا عن الغِلظَة والعُنف والشدَّة، لاسيَّما مع الصِّغار والصِّبيان، فالله عز وجل رفيقٌ يحبُّ الرِّفق، يقول النبيُّ ﷺ: «**إنَّ الرِّفقَ لا يكونُ في شَيءٍ إلا زانَهُ، ولا يُنزَعُ مِن شَيءٍ إلا شانَهُ**» [أخرجه مسلم (٢٥٩٤)].

(٥) لأنَّ الخطأ لابُدَّ من وقوعه؛ فإذا وقع الخطأُ فلا يُعنف المُخطِئَ ولا يُخجِلُه بين زملائه بعبارات جارحة، وكلمات محرجة؛ لأنَّ هذا الأسلوب يُنفِّر الطالب ويُبعد قلبَه عن مَحبَّة العلم والتلقِّي.

(٦) وهذا من الرَّكائز المُهمَّة في التعليم أيضًا، وهو: الصَّبر، **فالصَّبر يكون في التهيؤ للتَّعليم** =

يأنسُ به المتعلِّمُ، ويفرَحُ به المُجَالِسُ[(١)]، مجالستُه تُفيدُ خيرًا، مؤدِّبٌ لمَن جالسَه بأدبِ القرآنِ والسُّنةِ[(٢)].

إنْ أُصيبَ بمصيبةٍ فالقرآنُ والسُّنة له مُؤَدِّبان[(٣)]؛ يحزَنُ بعلم، ويبكي بعلم، ويصبرُ بعلم، ويتطهَّرُ بعلمٍ، ويصلِّي بعلمٍ، ويُزَكِّي بعلمٍ، ويتصدَّقُ بعلم، ويصومُ بعلم ويحُجُّ بعلمٍ[(٤)]، ....

= وإلقائه وبيانه، **ويكون الصبرُ** أيضًا علىٰ تفاوت المتلقين من الطلبة، ومَن لم يكن ذا صَبرٍ فإنه لا يُحقِّق رسالة التعليم التي يسعىٰ إليها.

(١) لجمَال أخلاقِهِ، وطِيبِ مُعامَلته، ورِفْقِه بمَن يُجالسه، وإحسَانه له.

(٢) لأنه تأدَّب بآداب الكتاب والسُّنة أوَّلًا، ثم صَار مُؤدِّبًا لغيره بتلك الآداب العَظيمَة.

(٣) أي: إن نَزلت به نازلَةٌ، وحَلَّ به بلاء، وأصابته شِدَّة فإنه يَفزَع إلىٰ الكتاب والسُّنة، ويَجدُ في هِدَايَاتهما ما يَشفي عليلَه، ويَروي غليله، وهذا هو الذي يَنبغي أن يكون عليه كُلُّ مسلم عندما يُصَاب بمصيبة، كما قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾ [التغابن:١١].

قال عَلقَمَة رَحِمَهُ اللَّهُ: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ المُصِيبَةُ، فَيَعلَمُ أَنَّهَا مِن عِندِ اللهِ، فَيُسَلِّمُ لَهَا وَيَرضَىٰ». [أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ١٢)].

ويقُول نبيُّنا ﷺ وهو يَصِفُ حال المؤمن مُثنيًا عليه: «**عَجَبًا لِأمرِ المُؤمِنِ، إنَّ أَمرَهُ كُلَّهُ خَيرٌ، وليس ذاك لأحَدٍ إلا لِلمُؤمِنِ، إن أَصابتهُ سَرَّاءُ شكَرَ، فكانَ خَيرًا له، وإن أَصابَتهُ ضَرَّاءُ، صبَرَ فكانَ خَيرًا له**». [أخرجه مسلم (٢٩٩٩)]

فمن آتاه الله جَلَّ وَعَلَا العلم والإيمان يتعامل مع ما ينزل به بمُوجب العلم الشَّرعي، ففي الفَرَح أو المُصيبة يستحضِرُ الدلائلَ والنصوص والآدابَ التي يَنبغي أن يكون عليها.

(٤) أي: أنه في عباداته ومعاملاته وأُمُوره كُلها يَنطَلق من العلم الشَّرعي المستمدِّ من =

ويُجاهِدُ بعلمٍ(١)، ....

= الكتاب والسنَّة، ومَن لم يَنطَلق في أمورِه بعلم؛ وَقَع في الخَلَل لا محالة، كما قال عُمرُ ابن عبد العَزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن عَبَدَ اللهَ بِغَيرِ عِلمٍ كَانَ مَا يُفسِدُ أَكثَرَ مِمَّا يُصلِح». [أخرجه ابن أبي شيبة برقم: (٣٥٠٩٨)].

(١) فلا يدخُل الجهَادَ ويحمِلُ رايته إلا بعلم، بخلاف مَن خاض في غِمَار الجهَاد، وحمل السِّلاح بدون علم بالشَّريعة وأصولِهَا وقَوَاعدها وضَوابطها، فإنَّ فسادَه وضرره سيكون كبيرًا وخطيرًا.

ولـيُنظَر في هذا الباب ما قاله النبيُّ ﷺ في صفة الخوارج، قال النَّبيُّ ﷺ: «**سيخرُجُ في آخِرِ الزَّمانِ قَومٌ أحداثُ الأسنانِ، سُفهاءُ الأحلامِ، يـقولونَ مِن خَيرِ قولِ البرِيَّةِ، يقرؤونَ القُرآنَ لا يُجاوِزُ حناجِرَهُم، يمرُقُونَ من الدِّينِ كما يمرُقُ السَّهمُ من الرَّمِيَّةِ، فإذا لـقِيتُمُوهُم فاقتلوهُم، فَإِنَّ في قتلهم أَجرًا، لِمَن قتلهم عِندَ اللهِ يومَ القِيامةِ**». [أخرجه البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦)]

وقال ﷺ في حَديثٍ آخَر: «**إنَّ مِن ضِئضِئِ هذا قَومًا يقرؤونَ القُرآنَ لا يُجاوِزُ حناجِرَهُم، يقتلونَ أهلَ الإِسلامِ، ويدَعُونَ أهلَ الأوثانِ، يَمرُقونَ مِنَ الإِسلامِ كما يمرُقُ السَّهمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لئِن أَدرَكتُهُم لأَقتُلَنَّهُم قَتلَ عَادٍ**» [أخرجه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤)]

ولهَذا فإنَّ بعض هؤلاء يقتُل الأطفال والنسَاء والشُّيوخ باسم الجهاد، ويَهدم البيوت، وتَقَعُ منهُ أمورٌ شَنيعة جدًّا وأفعالٌ جَائرة، وظُلم وعُدوان، وهو يعدُّ ذلك نَصرًا وجهادًا في سَبيل الله!! حتى إن بَعضَهم يقتلُ نفسَه تَحت مُسَمَّى الجهَاد!

ومَن نظر في التاريخ وجدَ من هؤلاء مَن يتحيَّنُ شَهر رمضان المُبَارك، الذي يأمَن فيه الناس ويَطمئنُّون، ويُقبلون فيه على العِبادة وعلى الصَّلاة وعلى ذِكرِ الله تعالى لإلحاق الضرر بالناس. =

ويكتسِبُ بعلمٍ، ويُنفِقُ بعلمٍ[(١)]، ينبسِطُ في الأمورِ بعلمٍ، وينقبِضُ عنها بعلمٍ[(٢)]، قد أدَّبه القرآنُ والسُّنةُ، يتصَفَّحُ القرآنَ ليؤدِّبَ به نفسَه[(٣)]، ولا يرضى مِن نفسِه أن يؤدِّيَ ما فرَضَ اللهُ ﷻ عليه بجهلٍ، قد جعلَ العلمَ والفقهَ دليلَه إلى كلِّ خيرٍ، إذا درسَ القرآنَ فبحضورِ فَهمٍ وعَقلٍ.

همَّتُه إيقاعُ الفهمِ لِمَا أَلزمَه اللهُ ﷻ مِن اتِّباعِ ما أَمرَ، والانتهاءِ عمَّا نهى، ليسَ همَّتُه متى أختمُ السُّورةَ، همَّتُه: متى أستغنِي باللهِ عن غيرِه؟ متى أكونُ مِنَ المُتَّقين؟ متى أكون من المُحْسِنين؟ متى أكونُ مِنَ المُتَوكِّلين، متى أكونُ من الخاشعين؟ متى أكونُ من الصَّابرين؟ متى أكونُ من الصَّادقين؟ متى أكونُ من الخائفين؟ متى أكونُ من الرَّاجين؟ متى أَزهَدُ في

= مثلمَا حصل من رأس الخَوارج الأوَّل: عبد الرحمن بن مُلجَم، حين قتَلَ علي بن أبي طالب رضي الله عنه في السَّابع عشر من رمضان، وقتَ صَلاة الفجر، فقتل أفضلَ مَن على الأرض في ذلك الوقت وهو علي بن أبي طالب رضي الله عنه، في أشرف الأوقات، ومع هذا يعتبر نفسَه مجاهدًا في سبيل الله.

والحاصل أنه يجبُ على المسلم أن يتعلم ما قاله النبيُّ ﷺ في هذا المَقام، ويُراعي الضَّوابط التي جَاءت في هَديه ﷺ في باب الجهاد.

(١) لأن النَّبي ﷺ قال: «**لا تزولُ قدما عَبدٍ حتَّى يُسألَ عن أَربَعٍ: عن عُمُره فِيمَ أفناهُ، وعن عِلمِهِ ما فَعَلَ فيه، وعن مالِهِ من أين اكتسبَهُ وفِيمَ أَنفَقَهُ، وعن جِسمِهِ فِيمَ أبلاهُ**».

[أخرجه الترمذي (٢٤١٧) وصححه الألباني]

(٢) فانبسَاطه وانقبَاضُه قائم على العلم، ليس قائمًا على الأهواء، إن أعطى فإنه يُعطي لله، ويَمنع لله، ويُحب لله، ويُبغض لله.

(٣) فينظر في هدايات القُرآن وآدابه ودلالاته العَظيمة المُبارَكة؛ ليُؤدِّب نفسَه بها، فلا يَمُر على الآيات إلا وهو يحرصُ على تأديب نَفسه بآدابِ القرآن.

الدُّنيا؟ متىٰ أرغبُ في الآخرة؟ متىٰ أتوبُ من الذنوبِ؟ متىٰ أعرفُ النِّعَم المُتَواترة؟ متىٰ أشكُرُ عليها؟ متىٰ أعقِلُ عن اللهِ -جلَّتْ عظمتُه- الخطابَ؟ متىٰ أفقَهُ ما أتلُو؟ متىٰ أغلبُ نفسي علىٰ هواها؟ متىٰ أُجاهِدُ في الله ﷻ حقَّ الجِهاد؟ متىٰ أحفظُ لساني؟ متىٰ أَغُضُّ طَرفي؟ متىٰ أحفظُ فرجي؟ متىٰ أستَحْيِي من الله ﷻ حقَّ الحياءِ؟ متىٰ أشتَغِلُ بعَيْبِي؟ متىٰ أُصْلِحُ ما فَسَدَ من أمري؟ متىٰ أُحاسِبُ نفسي؟ متىٰ أتَزَوَّدُ ليوم معادي؟ متىٰ أكونُ عن الله راضِيًا؟ متىٰ أكونُ بالله واثِقًا؟ متىٰ أكونُ بزَجْرِ القرآنِ متَّعِظًا؟ متىٰ أكونُ بذِكْرِه عن ذِكْرِ غيرِه مشتَغِلًا؟ متىٰ أُحِبُّ ما أَحَبَّ؟ متىٰ أُبغِضُ ما أَبغَضَ؟ متىٰ أَنصَحُ لله؟ متىٰ أُخْلِصُ له عملي؟ متىٰ أُقصِّرُ أَمَلي؟ متىٰ أتأهَّبُ ليوم مَوْتي وقد غُيِّبَ عنِّي أَجَلِي؟ متىٰ أُعَمِّرُ قبري؟ متىٰ أُفكِّرُ في المَوْقِفِ وشِدَّتِه؟ متىٰ أُفكِّرُ في خَلْوَتي مع ربِّي (١)؟

---

(١) يُبيِّن الإمام الآجري رحمه الله شأنَ حَمَلة القرآن حقًّا، وعنايتهم أثناء قراءة القرآن بفَهم المَعَاني عنايةً بالغة، وعقل الدِّلالات، ومُحَاسبة النفس في باب العمَل، والائتمار بأوَامِرِ كتابِ الله تبارك وتعالى.

ولهذا هِمَّةُ القَارئ منهم لكتَاب الله سبحانه وتعالى مُتَّجِهَة إلىٰ عقل الخطاب القرآني، والائتمار بأوامره، والانتهاء عن نواهيه، فيتفكر بالخشوع والصدق والتقىٰ والصلاة، ويسأل نفسَهُ متىٰ أكونُ من أهل هذه الصفات.

كُلما مَرَّ عليه في القُرآن الكريم وصفٌ من الأوصاف الحَميدَة والأعمَال النبيلة والآدَاب الفَاضلة؛ حَاسَب نَفسَه، وعَمل علىٰ تأديبها بتلك الآدابِ، وحَمَلها علىٰ تلكَ الأعمَال، وإذا مَرَّت عليه النَّواهي والزَّوَاجر في كتابِ الله ﷻ حَاسب نَفسَه علىٰ مجانبتها والبعد عنها.

ثم هُو مع ذلك يُذَكِّر نَفسَه بالبعث والوقوفِ بين يدَي الله، والعُقوبة التي أعدَّهَا الله ﷻ لمن عَصَاه، وهِمَّتُهُ الاستغناء بالله عن غيره وأن يكون من المتقين المحسنين المتوكلين المطيعين الخاشعين، فلا تمرُّ به المَعاني العظيمة والأوصَاف الجَليلة التي في كتاب الله إلا ويَقفُ رَاجيًا متأمِّلًا أن يكون من أهلها.

=

متى أُفكِّرُ في المُنقَلَبِ؟ متى أَحذَرُ ما حذَّرَني منه ربِّي؟ مِنْ نارٍ حَرُّها شديدٌ، وقَعْرُها بعيدٌ، وغَمُّها طويلٌ، لا يموتُ أهلُها فيستريحوا، ولا تُقالُ عَثْرَتُهم، ولا تُرْحَمُ عَبْرَتُهم، طعامُهُم الزَّقُّومُ، وشرابُهم الحَمِيمُ، كلَّما نَضِجَتْ جلودُهم بُدِّلُوا غيرَها ليذوقوا العذابَ، نَدِموا حيثُ لا ينفعُهُم النَّدمُ، وعَضُّوا على الأيدي أَسَفًا على تقصيرِهم في طاعةِ الله ﷻ، ورُكُوبِهم لمعاصي الله تعالى[1]: فقال منهم قائلٌ: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾[2].

وقال قائلٌ: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾[3][المؤمنون:٩٩-١٠٠].

وقال قائلٌ: ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾[4].

وقال قائلٌ: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾[5] [الفرقان:٢٨].

= ثمَّ ذَكَر أمثلةً عظيمة جدًّا تدُور على مُحَاسبة النفس؛ يُحاسب نفسَهُ وهو يمُرُّ على هذه المَعاني العظيمة الجليلة في كتاب الله، ويقف معها وقفةَ محَاسبة للنفس، متى أكون من أهل هذه الأوصاف؟ متى أَتَّعِظُ وأعتبر وأقبل على الآخرَة؟

(١) سيفصِّل رحمه الله لأنواع من النَّدامات التي تكون مِمَّن يدخُلون النار، لكنَّ جميع هذه الندامات ستكون بلا جَدوَىٰ ولا فَائدة.

(٢) لأنه أدرَك أنَّ الآخرةَ هي دار الخلود، فيندَمُ علىٰ ما فرَّط في جنب الله في هذه الحياة القصيرة الفانية.

(٣) وهذا يَطلُب الرجعَة إلىٰ الدنيا؛ ليعمل صالحًا.

(٤) وذلك عندَما يَجدُ أعمالَه السيئة أُحصِيَت، ويجد صُحفًا كثيرة تَحمل آثامَه وذُنوبَه وخطايَاه، فلا ينفعه عندها التحسُّر والندم.

(٥) وهذا الذي رَغب في الحياةِ الدنيَا بمخالطة قُرناء السُّوء وخُلطاء الفسَاد، وآثَرَ صُحبَتَهم علىٰ صُحبَة الصَّالحين، وقدَّمها عليها، فإنه سيندم يوم القيامَة ولن يفيده الندم.

وقالت فرقةٌ منهم -ووُجُوهُهُم تتقلَّبُ في أنواعٍ منَ العذابِ- قالوا: ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾(1) [الأحزاب:٦٦].

فهذه النارُ يا مَعْشَرَ المسلمين؛ يا حملةَ القرآن، حذَّرَها اللهُ المؤمنين في غيرِ موضعٍ من كتابه، رحمةً منه للمؤمنين.

فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا(2) وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

وقال ﷻ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾(3)[آل عمران:١٣١].

وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾(4) [الحشر:١٨].

---

(١) فيندم من أطاع الكبراء والرؤساء في معصية الله، فيكون كلامه وهو يتقلَّبُ في صُنُوف العذاب: ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾، وممَّا يقولُون أيضًا: ﴿إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾.

(٢) فمن وَاجبَات حَمَلة القرآن أن يَعمَلُوا علىٰ تَأديب أهلِهم وأولادِهم بآدابِ الكتاب والسُّنة، وأن يعملوا علىٰ نصحهم بما يقرِّبهم من الجنَّة، ويباعدهم عن عذاب النار، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾ [طه:١٣٢]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «**كُلُّكُم رَاعٍ وَكُلُّكُم مَسؤولٌ عَن رَعِيَّتِهِ**» [أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩)].

(٣) أي اجعَلُوا بينكم وبين النار وقايةً، بفِعلِ الطاعات، واجتنَاب المَعَاصي والخَطيئَات.

(٤) هَذه الآيةُ أصلٌ في مُحَاسبة النفس، وألَّا يَمْضِي المرءُ في حياته غافلًا.

والمقصود بالغد في قوله تعالىٰ: ﴿مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ اليوم الآخر، فيجبُ على المؤمنِ أن يحاسبَ نفسَهُ وينظُرَ مَاذا قدَّم لهَذا الموقف العظيم؟!

ثم حذَّرَ المؤمنين أن يغفُلوا عمَّا فَرَضَ عليهم، وما عَهِدَهُ إِلَيهم(١)؛ ألا يُضَيِّعُوه، وأن يحفظوا ما استَرعاهم من حُدُودِه، ولا يكونوا كغيرِهم ممَّن فَسَقَ عن أمرِه، فعذَّبَه بأنواعِ العذابِ، فقال ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ (٢)﴾.

ثمَّ أَعلَمَ المؤمنين أنه: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (٣)﴾ [الحشر:٢٠].

فالمؤمنُ العاقلُ إذا تلا القرآنَ استعْرَضَ القرآنَ، فكان كالمِرآة(٤) يرىٰ بها ما حَسُنَ من فعلِه، وما قَبُحَ منه(٥)، ....

---

(١) أي: ما عهده إليهم من القيام بالطَّاعات التي شرعها لهم.

(٢) **الفِسقُ**: هو الخُروج عن طَاعة الله ﷻ.

(٣) وهذا هو الفَوزُ الحَقيقي، الذي من ظَفر به فقَد فازَ حقًّا وصدقًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور:٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥].

فقَارئ القُرآن وحَامله عندمَا يسمع بالفوز؛ يُفكر في هذا الفَوز العَظيم، ويرجو أن يكُون من أهله، ويجتهد للظفر به.

(٤) أي: ينظُر في القُرآن مُتأمِّلًا ومُتَدَبرًا لهدَايَاته وأعمَاله؛ فيُصلح الخَلَل الذي عندَه علىٰ ضَوء ما في كتَاب الله ﷻ.

وذلك مثلمَا يقفُ الشخص أمام المِرآةِ وينظُر إلىٰ مواطِن النَّقص فيه؛ فيجعل القرآنَ لنَفسه كالمرآة، ينظُر في هدايات القُرآن ودلالاته، ويَقيسُ أعمالَه وأحوالَه عليها، فيُصلح النقص والخَلَل.

(٥) فما حَسُن من فِعله يَحمَد الله عَليه أن وَفَّقه وهَداه، وما قَبُح من فعله يتُوبُ إلىٰ الله تعالىٰ ويُجَاهد نَفسه علىٰ إصلاحِها.

فما حذَّرَه مولاهُ حَذِرَه، وما خَوَّفَه من عقابِه خافَه، وما رَغَّبَه فيه مولاهُ رَغِبَ فيه ورَجَاه.

فمَنْ كانت هذه صفتُه، أو ما قارَبَ هذه الصِّفةَ[١]، فقد تلاهُ حقَّ تلاوته، ورعاهُ حقَّ رعايته[٢]، وكان له القرآنُ شاهدًا، وشفيعًا، وأنيسًا، وحِرْزًا، ومن كان هذا وصْفُه نفعَ نفسَه، ونفعَ أهلَه، وعادَ علىٰ والديه، وعلىٰ ولدِه كلُّ خيرٍ في الدُّنيا والآخرة».

حدثنا أبو بكر عبد الله بن سليمان السِّجِسْتاني ثنا أبو الطاهر أحمد بن عمرو قال: أنا ابن وهب أخبرني يحيى بن أيوب، عن زَبَّان بن فَايد، عن سَهْل بن معاذ الجُهَني، عن أبيه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ قرأَ القرآنَ، وعَمِلَ بما فيه[٣]؛ أُلْبِسَ والدَاه تاجًا يومَ القِيامة[٤]، .....

(١) المُسَدِّدُ والمُقَارِب كلٌّ منهُما مُتَّجه للهَدف الصَّحيح، وكلٌّ منهما علىٰ خير، كما قال النبيُّ ﷺ: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا...» [أخرجه البخاري (٦٤٦٧)، ومسلم (٢٨١٨)].

والفرق بينهما؛ أنَّ المُسدِّد: هو من يُصيب الهَدف، والمُقَارِب: مَن حَرص علىٰ إصابة الهدف لكنه لم يُصِب عينَ الهَدف، ولكنه كان قريبًا منه.

فكُلٌّ من المُسَدِّد والمُقارِب له البِشَارة، وهما علىٰ خيرٍ عظيم، ولا شَكَّ أن المُسَدِّد أعلىٰ شأنًا، وأرفع مقامًا، ولكن مَنْ جَعَلَ الهدفَ ورَاء ظَهره، وأخَذ يَرمي إلىٰ الجِهَة الأخرىٰ فأينَ هو من تحقيقِ المَقصد والغَاية المَرجُوة؟!

(٢) وهذا فيه أن تلاوَةَ القرآن حقَّ التلاوة ليست بمُجَرد إقامة حروفِ القرآن؛ بل بالفَهم والعَمَل بكتَاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

(٣) فيه: أنَّ أهلَ القُرآن الذين هم أهلُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وخَاصَّته هم مَن جَمَعُوا بين العلم والعمل، فإنَّ العمل بهدايات القرآن هو المَقصود من إنزال القُرآن، لأن القرآنَ إنما أُنزل ليُؤتَمر بما فيه من أوامِرَ، ويُنتهىٰ عما فيه من نَوَاهٍ، ويُصَدَّق ما فيه من أخبار، فلا يَليقُ بأهل الإسلام أن يكُونَ حَظُّهم منه مُجرَّد قراءة حُرُوفه وآياتِهِ بدُون فَهمٍ وتدَبُّر، وعملٍ وتَطبيق.

(٤) لأنَّهما كانا سببًا في ذلك من حيث التَّوجيهُ والترغيب والتَّشجيع للعناية بكتَاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ففازَا لقَاء هذا الإحسَان أن يُلبسهما وَلدُهما تاجًا يوم القيامة.

ضوؤُه أحسَنُ من ضَوْءِ الشَّمسِ في بيوتِ الدُّنيا لو كانت فيه(١)**، فما ظنُّكُم بالذي عَمِلَ بهذا**(٢)». [أخرجه أبو داود: (١٤٥٣)، وضعفه الألباني].

---

(١) قوله: «ضَوؤُهُ أَحسَنُ مِن ضَوءِ الشَّمسِ...»: هذه صفة ذلك التاج.

(٢) يعني: ما ظَنُّكم بجزاء الولد نفسِه؟ فإذا كان يُـلبَس والداه هذا التاج العظيم، فماذا يكون له من الثواب والكَرامة والبهاء والنُّور؟! لا شَكَّ أن ما يكون له أعظمُ من ذلك.

ومِن أعظَمِ مَا يُستَفَاد من هذا الحَديث: أنَّ علىٰ الوالدين حثُّ أبنائهم علىٰ حفظ القرآن والعمل به، لا مجرد حفظ الحروف والسور، وهذا مما يغفل عنه كثير من الآباء والأمهات، فحفظ القرآن وسيلة، والعمل به غاية.

وأُرشِدُ إلىٰ طَريقة نافعة في هذا البَاب: إذا قَرأ عليك ابنُك آياتٍ تتعَلَّق بالصَّلاة، تقول له: انتبه يَا بُني! هذا أمر بالصَّلاة؛ فحَافِظ عليها، وكُن من أهلها، فإنك لا تكُون من أهلِ هذه الآية إلا إذا حَافَظت علىٰ الصَّلاة واعتَنَيت بها.

وهكذا تصنع مع الآيات الآمرة ببر الوالدين، وبالصِّدْقِ، والوفاء بالعهد، وغيرها من الأخلاق الحسنة.

وكذلك المُعلمون في حلقات التحفيظ يَنبغي أن يُعنَوا بهذا الجانب، وأن يَحرصُوا علىٰ تأديب أبنَاء المُسلمين وتربيتهم علىٰ العَمَل بالقرآن الكريم؛ حتىٰ يكونَ هذا الكتابُ العظيم حُجَّةً لَهُم لا عَليهِم، بخلاف ما إذا حَفظ حروفَهُ حِفظًا مُجَردًا وأهمَل العمل به، وفَرَّط في الائتمار بأوامره والانتهاء عن زواجره؛ فإنه يكون حُجَّة عليه لا لَهُ، فقد قال النبيُّ ﷺ: «**والقُرآنُ حُجَّةٌ لك أو عليكَ**» [أخرجه مسلم (٢٢٣)]، وقال النبيُّ ﷺ: «**إنَّ اللهَ يرفَعُ بهذا الكتابِ أقوامًا ويَضَعُ به آخَرينَ**» [أخرجه مسلم (٨١٧)].

وهذا الحديث الذي أورده المصنِّف عن معاذ الجهني رضي الله عنه في سَنَده **زبَّان بن فائد،** قال عنه الحافظ ابن حجر: «ضعيف الحَديث مع صَلاحه وعبَادته». [«التقريب» رقم: (١٩٨٥)]

=

أخبرنا أبو عبد الله أحمد بن الحسن بن عبد الجبَّار الصُّوفي ثنا شجاع بن مَخْلَد ثنا يعلى ابن عُبيد، عن الأعمش، عن خَيثمة قال: «مرَّتِ امرأةٌ بعيسى ابنِ مريم عليهما السلام، فقالت: طُوبى لحِجْرٍ حَمَلَك، ولثَدْيٍ رَضَعْتَ منه، فقال عيسى: طُوبى لمَنْ قرأَ القرآنَ، ثمَّ عَمِلَ به[(١)]».

حدثنا عمر بن أيوبَ السَّقَطي ثنا عبيد الله بن عمر القواريري ثنا أبو أحمد الزُّبيريُّ ثنا بَشِير بن مُهاجر، عن عبد الله بن بُرَيدة، عن أبيه رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَجيءُ القرآنُ يومَ القِيامة إلى الرَّجُل[(٢)]، كالرَّجُل الشَّاحِبِ[(٣)]، ....

= كذلك في الإسنَاد سهلُ بن مُعاذ، قال الحافظُ: «لا بأسَ به إلا في رِوَاية زبَّان عَنه».

[«التقريب» رقم: (٢٦٦٧)].

لكن ورد للحديث ما يشهد له ويتَقَوىٰ به؛ ومنه حديثُ بُرَيدة الآتي، وهو حديثٌ طويل اقتصر المُصنِّف علىٰ جزء منه.

(١) وهذا الأثر الذي رواه خيثَمَةُ لعله أَخَذَهُ من صُحُف أهل الكتاب، فهو مَعدُود في أخبار بَني إسرائيل، ولكن من حيث الجملة فمعناه دلَّت عليه نصوصٌ في الكتاب والسُّنة.

وقوله: «طُوبَىٰ»: قيل: الجنَّة، وقيل: شَجَرة في الجنَّة يسيرُ الرَّاكب فيها مَسيرَة مائة عام، وقيل: هي الثوابُ العَظيم.

قوله: «لمَن قرَأ القرآن»؛ أي: كتابَ الله في ذلك الوقت، وهو إمَّا التوراة أو الإنجيل، وقد رُوي هذا الأثر عن خيثمة من غير طريق الآجري ولفظه: «كتاب الله» بدل «القرآن».

وممَا يشهد لأثر خيثمة المذكور قولُه سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾.

(٢) المُراد بالرجُل صاحِب القُرآن الذي عُنِيَ في حيَاته بكتَابِ الله جل وعلا تلاوةً وعَملًا.

(٣) الشُّحُوبة تَغَيُّر في لون البشرة من الجَهد والنَّصَب من سَهر الليل مع كتاب الله، وصَوم النهار، والاجتهَاد في العبَادة، فيأتي كالرجُل الشَّاحب.

فيقول له: من أنتَ؟ فيقول: أنا الذي أظمأتُ نهارَك، وأسْهَرتُ ليلَك[1]» [أخرجه ابن ماجه (٣٧٨١)، وقال الألباني: «ضعيف يحتمل التحسين»].

---

(١) أي: أظمَأتُ نهارك؛ أي: بالصيَام، وأسهرت ليلك؛ أي: بالقيام.

وهذا فيه أنَّ أهلَ القرآن هم العاملون به؛ بالصَّلاة والعبَادة والطاعة، وأمَّا إذا كان الإنسانُ نهارُه نهَار سَفيه، ولَيلُه ليلَ جَاهل؛ فأيُّ شَيءٍ يصنع بالقُرآن الذي حَفِظَه؟!

فصَاحِبُ القرآن هو الذي أكرَمَه الله ﷻ بالعَمَل به؛ فله حَظ من قيَام الليل، وله حَظٌّ من صيَام النهار، وله عنايةٌ بالغة بالصَّلاة المكتوبة والمُحَافظة عليها، له عنَاية بطاعَة الله والعمَل بكتاب الله؛ فيرىٰ ذلك كله يومَ القيامَة، ويأتيه عملُه الصَّالح يوم القيامَة في أحلك الظُّروف وأشدِّها، يَحمل له البشَارة بكُلِّ خير، كما جَاء في حَديثِ البَراء بن عَازِب رضي الله عنه: «...**ويأتِيهِ رجُلٌ حَسَنُ الوَجهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِر بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَومُكَ الَّذِي كُنتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَن أَنتَ؟ فَوَجهُكَ الوَجه يَجِيء بِالخَيرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ، رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ؛ حَتَّىٰ أَرجِعَ إِلَىٰ أَهلِي وَمالِي**...».

[أخرجه الإمام أحمد (١٨٥٣٤) مطولا، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٧٦)]

الحَاصل: أن عمل المَرء بالقرآن وعنايتَه به؛ تَصديقًا بأخبَاره وائتمارًا بأوامره، وانتهاء عن نَوَاهيه؛ هو الذي يُثمر -بإذن الله ﷻ- سعادَةَ العبد وفَلاحَه في دُنيَاه وأُخرَاه.

وهذا الحديث لفظُه أطول وأوسَعُ ممَّا أوردَ المصنف رحمه الله، وقد اقتَصَر عَلىٰ جزءٍ منه، ولكن في إسنَاد هذا الحَديث بَشِير بن مُهَاجر؛ وهو صَدُوق لَيِّن الحديث كما ذكر الحافظ ابن حجر [في «تقريب التهذيب» رقم (٧٢٣)].

لكن للحَديثِ شَاهد من حديث أبي أُمَامة رضي الله عنه [أخرجه الطبراني في الكبير (٨١١٩)].

وآخَرُ من حديث أبي هُريرة رضي الله عنه [أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٧٦٤)، وانظر «السلسلة الصحيحة» رقم: (٢٨٢٩)]، فالحديث يتقوَّىٰ بهما

حدَّثنا أبو بكر عبد الله بن سليمان ثنا أبو الطَّاهر أحمد بن عمرو أنا عبد الله بن وَهْب أخبرني موسىٰ بن أيوب، عن عمِّه إياس بن عامر: أنَّ عليَّ بنَ أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال له: «إنك إن بَقِيتَ[1]، فسيُقْرَأُ القرآنُ علىٰ ثلاثةِ أَصْنافٍ[2]: صِنْفٍ لله تعالىٰ[3]، وصِنْفٍ للدنيا[4]،

---

(١) قوله: «**إنك إن بقيتَ**»؛ أي: إن كَتَب الله لك فُسحَة في العمر.

(٢) أي: أنَّ قُرَّاءَ القرآن سيكُونون علىٰ ثلاثة أصناف.

(٣) هذا الصِّنف الأول؛ وهو الذي يتَقرَّب بقراءته لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، لا يتقرَّب بها إلىٰ المَخلُوقين، ولا يَرجو بها شيئًا منهم، لا يَطلُب سُمعة ولا شُهرَة ولا صِيتًا، فلا يَقرأ ليُقال: قَارئ، إن ذُكِر عند الناس وأُثني عليه بالخير، فهذا من عَاجل البُشرىٰ له، ولكن ليس مَقصُودًا له، وإنما مَقصُوده بعنَايته بالقرآن: التقرُّب إلىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فهذا الصنف الأوَّل، وهم خَيرُ الناس.

(٤) وهذا الصِّنفُ الثاني؛ وهو الذي يَقرأ القرآن يُريد به الدنيا العاجلة، لا يُريد به الآخرة الآجلة، وقد قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٨-١٩].

وصحَّ عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**إنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقضىٰ يومَ القيامةِ عليه...ورجلٌ تعَلَّمَ العلمَ، وعَلَّمَهُ وقرأَ القرآنَ، فأُتِيَ بِهِ فعرَّفَهُ نِعَمَهُ فعَرَفها، قال: فما عَمِلتَ فيها؟ قال: تَعَلَّمتُ العِلمَ، وعَلَّمتُهُ وقَرأتُ فيكَ القُرآنَ، قال: كَذَبتَ، ولكِنَّكَ تعلَّمتَ العِلمَ ليُقالَ: عالِمٌ، وقَرَأتَ القُرآنَ ليقالَ: هُوَ قارِئٌ، فقد قيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ على وَجهِهِ حتَّىٰ أُلقِيَ في النَّار...**». [أخرجه مُسلم (١٩٠٥)].

فيكونُ من أول من تُسعَّر بهم النار -والعيَاذ بالله-، لأنه طَلَب القرآن أو حَفِظه للشُّهرة وللسُّمعة، ونحو ذلك من الأغرَاضِ الدنيوية، ولم يُرِد به الآخرةَ.

فمثل هذا ولو كَان من أضبط الحُفَّاظ وأكبر القُرَّاء المُتقِنين لن يَنفَعُه ذلك عند الله جَلَّ وَعَلَا؛ =

وصِنْفٍ للجَدَل(١)، فمَنْ طَلَبَ به أَدْرَك».

= لأنه لا يَنفع عند الله إلا الخالص الذي قُصِد به وجهُ الله، وقد قال ﷻ في الحَديث القُدُسي: «أنا أغنَى الشُّركاءِ عنِ الشِّركِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا أشركَ فيهِ مَعِي غَيرِي، تركتُهُ وشِركَهُ» [أخرجه مسلم (٢٩٨٥)]، فهو سُبحانه لا يقبل من العمَل إلا الصَّافي النَّقي.

ومن شرطِ قَبُول العمل عندَ الله: أن يُراد به الآخرة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٩].

ففي الآية السابقة بيان شُروط العمل المَشكُور عند الله؛ وأنَّها ثلاثة:

الأول: إرَادة الآخرة لا الدنيا.

والثاني: السَّعي لها بِسَعيها، وسَعي الآخرة هو العَمل الصَّالح المَأثُور عن النبي ﷺ.

والثالث: وهو الإيمان؛ فمن لم يكن مُؤمنًا لم يَقبلِ الله منه عَملَه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة:٥].

(١) وهذا الصنفُ الثَّالث مِمَّن يَقرَأ القُرآن؛ وهو الذي يقرَؤه للجَدَل، كما قال تعالىٰ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۢ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٨].

وفي الحديث: قال رسول الله ﷺ «**ما ضَلَّ قَومٌ بعدَ هُدًىٰ كانُوا عليهِ إلَّا أُوتُوا الجَدَلَ. ثُمَّ تلا هذه الآية**: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾. [أخرجه الترمذي (٣٢٥٣)، وحسَّنه الألباني]

فقِرَاءتُه للقُرآن إنما هي للجَدَل والخُصُومة، وهَذه طريقةُ أربَاب البَاطل ممَّن يُقدِّمون عُقولَهُم علىٰ كَلام الله، ويقُولُون: العَقل مُقدَّم علىٰ النَّقل، فهؤلاء أكثر النَّاس إغرَاقًا في هذا الباب، حتىٰ كُتب التَّفسير القَائمة علىٰ تلك المَدَارس، مَدارس من يُسمَّون بالعَقلانِيِّين ممن يُقدِّمون العقل علىٰ كتاب الله ﷻ، قائمَة علىٰ الجَدَل، ليسَت قائمة علىٰ التَّعظيم لكتَاب الله ﷻ ومُجَاهدة النَّفس علىٰ فَهمه والائتمار بأوامره والانتهاء عن نَوَاهيه. =

قد ذَكَرتُ أخلاقَ الصِّنفِ الذين قرؤُوا القرآنَ يريدونَ اللهَ ﷻ بقراءَتِـهم، وأنا أذكُـرُ الصِّنفين اللذين يريدان بقراءَتِـهما الدنيا والجَدَلَ، وأَصِفُ أخلاقَهم حتَّى يعرفَها من اتَّـقى الله جَلَّتَ عظمَتُـهُ[(١)].

❀❀❀

= وطريقةُ هؤلاء طريقةٌ مُبعِدَة تمام الإبعَاد عن العمَل بالقُرآن، وصَادَّة عن العمل به، وهذا من شُؤم العقيدة الفاسدة لهؤلاء، ومَسلكهم المُنحَرف، فهم يَقرؤون القرآنَ للجَدل والخُصُومات؛ فلا يكونُ لهم حَظ من ازديادِ الإيمان، والعمل بالقرآن وقوة الإيمان التي تثمرها قراءة القرآن.

قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥].

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال:٢-٤].

فالحاصلُ: أن أهلَ الجَدل لا حظَّ لهم من ذلك ولا نَصِيب؛ لأنهم لم يَقرؤوا القرآنَ للعمل، ولم يَقرؤوا القرآن للإيمَان، وإنَّما قرؤوا القرآن للخُصُومات والجَدل، فهَذا الصِّنف الثالث.

(١) **قوله**: «**حتى يعرفها من اتقى الله**»: هذا تَنبيه من المُصنِّف أنَّ الأوصاف التي سيذكرها في الفصل القادم لمن يقرأ القرآن للدُّنيا أو للجَدل هي صفاتٌ ظاهرةٌ عليهم، فيمتازون بها عن الذين سبقوا، ويريد ﷺ بذِكر أوصافهم أن يعرفَها المسلمُ ليتجنَّبها عن علمٍ وبصيرة.

باب: أخلاقِ مَن قرأَ القرآنَ لا يريدُ به اللهَ ﷻ(١)

فأمَّا مَن قرأَ القرآنَ للدُّنيا(٢) ولأبناءِ الدُّنيا(٣)، فإنَّ من أخلاقِه: أن يكونَ حافِظًا لحروفِ القرآن، مُضَيِّعًا لحُدودِه(٤)، ....

---

(١) لمَّا أنهى المُصنف رحمه الله الكلامَ على أخلاق حَمَلة القرآن الذين حمَلُوه ديانةً وتقرُّبًا إلى الله تبارك وتعالى وطلبًا لرضَاه ﷻ، ثنَّى بِذِكر أخلاق مَن حَمَل القُرآن لطلب الدنيا والرياء والسُّمعة ونحو ذلك، ولم يحملْه قُربَةً لله ﷻ؛ لسُوءِ نِيَّته، وخَلَلٍ في قصده، فإن هؤلاء لهم أوصَاف يتميَّزون بها، وأشارَ رحمه الله كما تقدَّم أنه إنمَا ذكر هذه الأوصاف لتُحذَر وتُتَّقى؛ وذلك أن المُسلم كما أنه مطلوب منه أن يَعرف الخير وأوصَافه ليَلزَمه، فكذَلك مطلوبٌ منه أن يَعرف الشَّر وأوصاف أهل الشَّر ليحذَرَها.

ومن المُفيد أيضًا للمعلمين والمُقرئين لكتاب الله ﷻ أن يَقِفُوا على هذه الأَوصاف؛ استصلاحًا لأنفُسِهم أولًا، وعملًا على إصلاحِ مَن يُقرئونَهم كتابَ الله تعالى؛ ليَفُوزوا بالخيريَّة العظيمة والفَضل الجَزيل الذي تَقَدَّم ذكرُ شيء منه.

فقول المصنِّفُ رحمه الله: «**لا يريد به الله ﷻ**»: تنبيهٌ لوجوب الاعتناء بإصلاح النيَّة، فإنَّ النيَّةَ إذا اختلَّت اختَلَّ معها العمل، وإذا صَحَّت صحَّ معها العمَلُ، فالعمل القليل مع نية صَالحة خيرٌ من العمل الكثير مع نيَّة فاسدة؛ فالنيَّة الصَّالحة تُبارِك القليل، والنيةُ الفَاسدة تُفسِدُ الكثير، ولهذا كان من أهمِّ ما يتَوجَّب على طالب العلم والمُقبِل على كتاب الله ﷻ: أن يعمَل على إصلاح نيتِهِ، وأن يقصدَ بقراءته القُرآن واستذكاره له؛ التَّقرُّبَ إلى الله ﷻ وطَلب مرضَاته.

(٢) أي: للأغرَاض الدنيويَّة؛ من الشُّهرة والسُّمعة وثنَاء الناس، ونحو ذلك.

(٣) أي: لكي تكون له مكَانةٌ ومنزلة عندَهم، لينتفع بعد ذلك منهم.

(٤) فهو في قراءته مُتقنٌ لحفظ حُروف القرآن، مجوِّدٌ لآياته، مُزَيِّنٌ لصوته، لكنه بعيد عن العمل بالقرآن؛ مُفرِّطٌ في امتثال أوامره؛ لأن هِمَّته مُتَّجهة للدنيا وتحصيل الثنَاء والمال.

مُتَعَظِّمًا في نفسِه[١]، متكبِّرًا على غيرِه[٢]، قد اتَّخَذَ القرآنَ بضاعةً يتأكَّلُ به الأغنياءَ[٣]، ويَسْتَقْضِي به الحوائجَ[٤]، يُعَظِّمُ أبناءَ الدُّنيا، ويَحْقِرُ الفقراءَ[٥]، إن عَلَّمَ الغَنِيَّ رَفِقَ به طَمَعًا في دنياه، وإن عَلَّمَ الفقيرَ زجرَه وعنَّفَه؛ لأنه لا دُنيا له يَطْمَعُ فيها، يستخدِمُ به الفقراءَ[٦]، ويَتِيه به على الأغنياء[٧].

إن كان حَسَنَ الصَّوتِ أحبَّ أن يقرأَ للمُلوكِ، ويصلي بهم طَمَعًا في دنياهم، وإن سألَه الفقراءُ الصلاةَ بهم ثَقُلَ ذلك عليه، لقِلَّة الدنيا في أيديهم، إنَّما طلبُهُ الدنيا، حيثُ كانت رَبَضَ عندَها[٨].

يفخَرُ على الناسِ بالقرآنِ، ويحتجُّ على مَنْ دونَه في الحفظِ بفضْلِ ما معه من القِراءات، وزِيادَة المعرفةِ بالغرائبِ من القِراءات[٩]، ....

---

(١) قوله: «مُتَعَظِّمًا في نَفسِهِ» أي: يرى نفسَه عظيمًا من العُظمَاء.

(٢) أي: مُتعاليًا مُترَفِّعًا على غيره.

(٣) أي: جَعله سِلعَة يُحَصِّل بها دُنياه، ويتأكَّل الأموَال من الأغنيَاء.

(٤) أي: يطلب قضَاء حوائِجه ومَصَالحه بالقُرآن، فعندما تعرِضُ له حاجَةٌ من الحَاجات، يباهي بقوله: أنا فُلانٌ حَافظ القُرآن؛ ليحصِّل حاجته.

(٥) فيعظِّم أبناءَ الدنيا طلبًا لدُنياهم، ويَحقر الفُقراء؛ لأنه لا شيء عندهم يَطمع فيه.

(٦) قوله: «يستخدم به الفقراء» أي: يستعملهم في قضَاء مَصَالحه وشؤونه وأعمَالِه بحجَّة أنَّه من أهل القرآن.

(٧) أي: يتعالى به على الأغنياء؛ لينال به ما عندهم من الدُّنيا.

(٨) قوله: «رَبَضَ عِندَهَا» أي: جلس عندها ولازمَها؛ لأنها هي مَطلُوبُه.

(٩) وهذا الافتخَار والتطاول على الناس مَذمُومٌ، وقد نهى النبي ﷺ عنه في قوله: «إِنَّ اللهَ أَوحَى إِلَيَّ أَن تَواضَعُوا؛ حتَّى لا يَفخَرَ أَحَدٌ على أَحَدٍ، ولا يبغِي أَحَدٌ على أَحَدٍ» [أخرجه مسلم (٢٨٦٥)].

=

التي لو عَقَلَ لعلِمَ أنه يجبُ عليه ألَّا يقرأَ بها[١]، فتراهُ تائهًا مُتَكبِّرًا[٢]، كثيرَ الكلامِ بغير تمييزٍ[٣]، يَعِيبُ كلَّ من لم يحفظْ كحفظِه، ومن عَلِمَ أنه يحفظُهُ كحفظِهِ طلبَ عيبَه[٤]، متكبِّرًا في جِلسَتِه، مُتعاظِمًا في تعليمِه لغيرِه، ليس للخشوعِ في قلبِه موضِعٌ[٥]، ....

= **و التَّطاول المذموم على الناس على نوعين:**

❁ إما أن يتعَالَىٰ عليهم بأوصَاف هي مَوجُودة فيه، مثل أن يقُول: أنا حافظٌ للقرآن، وقد أُجِزتُ بعديد من القِرَاءات؛ فهذا يُسمَّىٰ فخرًا.

❁ وإما أن يتعَالَىٰ عليهم بأوصَاف يَمدح نفسه بها وهي ليسَت فيه؛ كأن يقولَ: إنه حافظ، وهو ليس بحَافظ علىٰ الحقيقة؛ فهذا يُسَمَّىٰ بَغْيًا وكَذِبًا.

ولاشكَّ أنَّ الذي يحفظُ القرآن بقراءات عديدة أفضل من الذي يحفظه بقراءة واحدة، ولكنَّ المذموم هو استِعمال ما عنده للفَخر والتَّعالي والتعاظُم.

يقول شيخ الإسلام ابنُ تيميَّة: «والعارِفُ في القِراءَاتِ، الحافِظُ لها؛ لهُ مَزِيَّةٌ علىٰ مَن لم يَعرِف ذلك ولا يعرِف إلَّا قِراءَةً واحِدَة». [«مجموع الفتاوىٰ» (١٣/ ٤٠٤)]

(١) أي: لا يجوز أن يقرأ بتلك الغَرائب لأنها قراءات شاذَّة.

(٢) أي: فيه تِيهٌ وعُلُوٌّ وإعجَابٌ بالنَّفس وتكَبُّر علىٰ الناس.

(٣) فيحبُّ أن يُكثِر من الكَلام ليُشار إليه بالعلم، لكنَّ كلامَهُ صَادرٌ عن غير تمحِيص وتحقيقٍ.

(٤) فلا يَسْلَمُ منه أحَدٌ؛ فمن كان دُونه في الحفظ عابَه؛ لضَعف حِفْظِهِ، ومَن كان مُسَاويًا له في الحفظ أو أعلىٰ منه طَلَب له عَيبًا آخَرَ؛ لينتَقِصَ من قَدره ويُقَلِّل من مَكَانته.

(٥) الخُشوع هو ثَمرة التدَبُّر، فكلَّما زادت العناية بالقُرآن فَهمًا زاد الخُشوع القلب.

وأمَّا هذا فليس له عنايةٌ بالتَّدبر والاستفادة من هدايات القرآن، وإنمَا غايةُ ما عنده ضَبطُ حُروف القُرآن، وأما المَعَاني والدِّلالات فَليس له عنَاية بها؛ ولهَذا لا يَدخُل الخشوع إلىٰ قَلبه، ولا يتَأثَّر بتلاوَة القرآن ولا بسَمَاعه.

كثيرُ الضَّحكِ والخَوضِ فيما لا يَعنِيه، يشتغلُ عمَّن يأخذُ عليه بحديثِ مَن جالسَه(١)، هو إلىٰ استماعِ حديثِ جليسِه أصغىٰ منه إلىٰ استماعِ مَن يجبُ عليه أن يستمعَ له(٢)، يُرِي أنه لِمَا يستمِعُ حافظٌ(٣)، فهو إلىٰ استماعِ كلامِ النَّاس أشهىٰ منه إلىٰ كلامِ الربِّ ﷻ.

لا يخشَعُ عند استماعِ القرآن، ولا يبكي، ولا يَحزَنُ، ولا يأخُذُ نفسَه بالفِكْرِ فيما يُتلَىٰ عليه، وقد نُدِبَ إلىٰ ذلك(٤)، راغِبٌ في الدنيا وما قَرَّب منها، لها يغضَبُ ويرضىٰ.

إن قَصَّرَ رجلٌ في حقِّه، قال: أهلُ القرآن لا يُقَصَّرُ في حُقُوقِهم، وأهلُ القرآن تُقْضىٰ حوائِجُهم، يَستقْضِي من الناسِ حقَّ نفسِه(٥)، ....

---

(١) أي: إن جاءه من يَأخُذ عنه القُرآنَ، وكان في المجلس بعضُ البطَّالين ممَّن يُكثرون الضَّحك والمزح، فإنَّه يميل إليهم ويرغب في مجالستهم أكثر ممَّن جاءه ليأخُذَ عنه القرآن.

(٢) معناه: أنه يستمعُ إلىٰ من يجالسونه بالمزح والتَّسْلِية، ويَنبسطُ لهم، ويُعطيهم الأوقات الطَّويلة، وأمَّا من جاءه للتَّعلُّم وأخذ القرآن لا يُعطِيه وَقتًا مناسِبًا.

فالواجِبُ علىٰ من أرادَ أن يكون من أهلِ القُرآن حقًّا؛ أن يكون إقبالُ قَلبِهِ علىٰ القرآن أعظم من إقبَالِهِ علىٰ تلك الأحَاديث واللَّهو واللَّعب وغيرها من الكَلَام الذي لا فائدَةَ فيهِ.

(٣) أي: أنه بهذا الانشغال عن قراءة مَن جاء ليقرأ عليه يُبيِّن أنَّه حافِظٌ وضابطٌ لما يقرؤه هذا الطالب، وهذا ضَرْبٌ من عُجبه بنفسه وافتخاره، فلا يرىٰ أحدًا مثلَهُ في ضبط القرآن وإتقانه.

(٤) فربُّ العالمين قد ندَب عِباده ورغَّبهم في تدبُّر القرآن والتأمُّل في دلالاته؛ كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون:٦٨]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء:٨٢]، وغيرهما من الآيات، لكنَّ هذا قد أعرض عن هذا التدبُّر الذي هو المقصود الأكبر من حفظ القرآن.

(٥) أي: يطلبُ منهم قضَاء حُقُوقِهِ وحاجاته؛ مُبينًا لهم مَكانتَه ومَنزلَته، وأن مثله تُقضَىٰ حوائجُه.

ولا يَستَقضِي من نفسِه ما لله عليها(١)، يغضَبُ على غيرِه -زعم- لله، ولا يغضَبُ على نفسِه لله(٢).

ولا يُبالي مِن أينَ اكتسبَ: مِن حرامٍ أو حَلال(٣)، قد عَظُمَتِ الدُّنيا في قلبِه، إن فاتَه منها شيءٌ -لا يَحِلُّ له أَخذُهُ- حزنَ على فوته.

لا يتأدَّبُ بأدبِ القرآنِ، ولا يزجُرُ نفسَه عند الوَعْدِ والوعيدِ، لاهٍ غافلٌ عمَّا يتلُو أو يُتلَى عليه، همتُهُ حفظُ الحُرُوف(٤)، إن أخطأَ في حَرْفٍ ساءَهُ ذلك(٥)؛ لئلا ينقُصَ جاهُهُ عند المخلوقين، فتنقُصَ رُتبتُه عندَهم، فتراهُ محزُونًا مغمُومًا بذلك، وما قد ضيَّعَهُ فيما بينَه وبينَ الله تعالى ممَّا أُمِرَ به في القرآن، أو نُهِيَ عنه، غيرُ مُكْتَرِثٍ به.

أخلاقُه في كثيرٍ من أمورِه أخلاقُ الجهَّالِ الذين لا يعلمون، لا يأخُذُ نفسَه بالعملِ بما أَوْجَبَ عليه القرآنُ؛ إذ سَمِعَ الله تعالى قال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧].

---

(١) فأعظم الحقوق هو حقُّ رب العالمين، فكيفَ يصلُحُ أن يطلبَ من الناس قضاء حُقوقه، ولا يَطلُب من نفسِهِ أن تقضيَ حقوقَ الله تعالى التي أوجَبَها عليه؟!

(٢) فيغضبُ على غيره لكونِه قصَّر في حفظ القرآن، ولا يغضَبُ على نفسه في تَفريطهَا في جَنبِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(٣) وعدم مُبالاته بمصدر تحصيله للمال هو من قِلَّة دِيَانته وضعفها.

(٤) وتركيزه على حفظ الحُروف وأوجه الأداء لأنها موطنُ الثنَاء والمَدح عند النَّاس.

(٥) فلو قَرأ بحَضرَة الناس وأخطأ في حَرف وصُحِّح له سَاءَه ذلك، وتألَّم ألَمًا عظيمًا؛ لأنَّ ذلك قد يُنقِصُ من منزلته عند عامَّة النَّاس، ولكِنَّه لا يتألَّم لأخطَائه الكثيرة بينه وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ من تَضييع الواجِبَات، وارتِكاب بعض المُحرَّمات، فلا يَسُوؤُه ذلك، ولا يتألَّم له؛ لأن نظرتَهُ والتفات قلبه إنما هي للنَّاس وليس لرضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فكان الواجِبُ عليه أن يُلزِمَ نفسَه طلبَ العلمِ؛ لمعرفةِ ما نَهى عنه الرسولُ ﷺ فينتَهِيَ عنه(١).

قليلُ النَّظرِ في العلمِ الذي هو واجبٌ عليه فيما بينه وبين الله ﷻ(٢)، كثيرُ النظرِ في العلم الذي يتزيَّنُ به عند أهل الدنيا، ليُكرمُوه بذلك(٣).

قليلُ المعرفةِ بالحلالِ والحرامِ الذي نَدَبَ الله تعالى إليه ثم رسولُه؛ ليأخُذَ الحلالَ بعلمٍ، ويتركَ الحرامَ بعلمٍ(٤).

---

(١) فأهمُّ غاية من قراءة القرآن والعناية به؛ أن يَعرفَ المسلمُ ما أمره الله ﷻ به فيمتثله، وأن يَعرفَ ما نهاه ﷻ عنه فيجتنبه.

(٢) من مَعرفة الواجبَات الدِّينية والفَرائض الشَّرعية، ومَعرفة الكبائر والمُحرَّمات، وإلزام النَّفس بفِعلِ الواجب وتَرك المُحرَّم، فهو قليل العناية بهذا الجَانب.

(٣) ومن ذلك عُلوم الآلة عمومًا، فتَجده مثلًا يَستَغرق وقتًا طويلًا من عُمره في ضَبط قواعد اللغَة وإتقَانها، وإن أخطَأ عنده أحَدٌ خطَأً يتعلَّق بهذه العُلوم شَدَّد عليه غايةَ التَّشديد، وهو في نفسه مُضَيِّعٌ للواجبَات الدِّينية التي افترَضَها الله ﷻ عليه، ولا يُبالي، وتجده يرتكِبُ أشياءَ نَهاه الله عنها وحَرَّمها عليه، ولا يُبَالي، فيَغضبُ إذا سَمِع لحنًا في اللغَة، ولا يغضب لِلَحْنِهِ في الدِّيانة، وربَّما لحنه في أصول الاعتقَاد.

(٤) فالمسلم مَطلُوب منه أن يعرف الحَلالَ والحرام؛ ليأخذ الحلال بعِلم، ويتركَ الحرام بعلم، وقد قال النَّبي ﷺ: «**إنَّ الحلالَ بَيِّنٌ وإنَّ الحَرامَ بَيِّنٌ...**» [أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)].

وأما الذي قرأ القرآن للدنيا، فإنه غير حريصٍ على تعلم الحَلال والحَرام، بل تقدَّم في وصفِهِ أنه إذا فاتَهُ شيءٌ من المَال -ولو كان لا يَحِلُّ له أخذه- فإنه يحزن لذلك.

لا يرغَبُ في معرفةِ عِلْمِ النِّعَمِ[١]، ولا في عِلْمِ شُكْرِ المُنْعِمِ[٢].

تلاوتُه القرآنَ تدُلُّ على كِبْرٍ في نفسِه[٣]، وتزيُّنٍ عند السَّامعين منه[٤]، ليسَ له خُشُوعٌ فيظهرَ على جوارِحِه.

إذا دَرَّسَ القرآنَ، أو دَرَسَهُ عليه غيرُهُ همَّتُه متى يقطعُ، ليسَ همَّتُه متى يَفهَمُ[٥]، لا يعتبِرُ عند التلاوةِ بضربِ أمثالِ القرآنِ[٦]، ....

---

(١) فمعرفة نعمة الله واستِحضارها على الدَّوام ممَّا يُقوِّي الإيمان، وأمَّا مَن لا يستحضرُ نعمة الله عليه فإنه تَضعُف ديانَتُه، وتضعُف صِلتُه بالله، ويكُون كثيرَ التَّسَخُّط، قليل الشكر لله ﷻ رُغمَ النِّعم الكثيرة التي أنعم الله بها عليه، ومن أعظمها نعمة الإسلام.

يَقُول تَعَالىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[النحل:٥٣].

ويقُول تَعَالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[النحل:١٨].

(٢) ومن المعلوم أنَّ شُكرَ المُنعم ﷻ سببٌ لدوام النِّعَم وزيادتها، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[إبراهيم:٧].

(٣) فلا يظهر عليه عندما يقرأ القرآن الخشوع وطلب التدبُّر، وإنما الذي يظهر عليه: الكِبرُ، والعُجبُ.

(٤) وهذا التَّزين هو الذي يُثمِرُ الكِبرَ والتَّعالي، والله أعلم.

(٥) فهِمَّته في دراسة القرآن أو تَدريسه: أن ينتهي من الدَّرس، ويختم القراءة ويقطعها، وسبب ذلك بعدُهُ عن التدبُّر والتعقُّل لمعاني ما يقرأ.

والله ﷻ أنزَلَ هذا الكتاب المُبينَ لنتدبر آياته، كما قال الله ﷻ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[ص:٢٩].

(٦) أي: لا يعتني بالأمثال المَضرُوبة في القُرآن، ولا يُحسن الاستماع إليها والانتفاع بها، والله ﷻ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾[الحج:٧٣].

=

ولا يقِفُ عندَ الوعْدِ والوَعِيدِ(١).

يأخذُ نفسَه برضا المَخلوقين، ولا يُبالي بسَخَطِ ربِّ العالمين(٢).

= فينبغي علىٰ القارئ أن يَقفَ مُتفكِّرًا مُتأمِّلًا في الأمثال المَضرُوبة في القُرآن؛ حتىٰ يَعقلَ عن الله مراده منها، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

فمقَام ضَرب الأمثَال مَقام عظيم جدًّا، ويحتاج من القارئ إلىٰ اجتهادٍ في طلب معناها؛ ليقِفَ علىٰ دلالاتها ومَضَامينها وغَاياتها ومَقاصدها؛ فيكونَ بذلك ممَّن عَقَل عن الله تبارك وتعالى الأمثال.

(١) **آيات الوَعد**: هي الآيات التي تشتمل علىٰ وَعد الله بالثَّواب والأجر لِمَن أطاعه.

وآيات الوَعيد: هي المُشتملة علىٰ العُقوبة لمن عصَاه.

والقُرآن قَائم علىٰ الوَعد والوَعيد، وعلىٰ التَّرغيب والتَّرهيب؛ فآيات الوَعْدِ تُحرِّك الرجاء في قلب القارئ، وآياتُ الوَعيد تُحرِّك الخوفَ في قلبه، فلا يزالُ وهو يقرأ القرآن الكريم بين الرجَاء والخَوف، وهذا من أعظم ما يُثمِرُ الإيمان في القلب.

فيكون بتلاوته جامعًا بين الرَّجاء والخوف، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء:٥٧]، وقال سبحانه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠].

(٢) يأخُذ نفسه مَأخذ العَزم والحَزم والدِّقة في طلب رضا المَخلُوقين، حتىٰ لو كان رضاهم عنه في سَخَط الله، هِمَّته مُتجهَةٌ إلىٰ رضا المَخلُوقين، ولا يبالي بسَخَط ربِّ العالمين عَليه، وهذه مُصيبَة عظيمة جدًّا؛ أن تكون هِمَّة الإنسان نيل رضا المَخلوقين، وليست في رضَا رب العالمين، ومن كان كذلك سيَخسَرُ الأمرَين معًا؛ يخسر رضا المخلوقين، كمَا أنه خَسر رضا ربِّ العالمين. =

يُحِبُّ أن يُعْرَفَ بكثرةِ الدَّرسِ، ويُظْهِرُ ختمَه للقرآنِ ليَحظىٰ عندَهم[١]، قد فتنَه حُسْنُ ثناء مَنْ جَهِلَه، يفرحُ بمدحِ الباطِلِ[٢]، وأعمالُه أعمالُ أهل الجَهْل، يتبعُ هواه فيما تُحِبُّ نفسُه[٣]، غيرُ متصَفِّحٍ لما زجره القرآنُ عنه[٤].

إن كان ممَّن يُقرِئُ غَضِبَ علىٰ مَن قرأ علىٰ غيرِه[٥].

= ومَا دَرَىٰ هذا الجاهل أن الأمور بيد رَبِّ العَالمين، وأن القلوبَ بيَد الله وَحده، وأنه هو الذي يعطف القُلوب، وهو الذي يُصَرِّفُها كَيفَ يشَاء، فإذا التَمسَ رضا الرَّب -جَل في عُلاه- رَضي عنهُ وأرضَىٰ عنه النَّاس.

وقد كتَبَ مُعاوية رضي الله عنه إلىٰ أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أنِ اكْتُبي إليَّ كتابًا تُوصيني فيه، ولا تُكثري عليَّ، فكتبتْ عائشةُ إلىٰ مُعاويةَ: سلامٌ عليكَ، أمَّا بعدُ: فإنِّي سَمِعتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «**من التمَسَ رِضاءَ اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ؛ كفاهُ اللهُ مُؤنَةَ النَّاسِ، ومَنِ التمَسَ رِضاءَ النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ؛ وكَلَهُ اللهُ إلى النَّاسِ**» [أخرجه الترمذي (٢٤١٤)، وصححه الألباني]، فالعبدُ المسلم مأمورٌ بالتماسِ رضا الله وحدَه، ولو كان بسخطِ النَّاس.

(١) لأنَّ همَّته في تحصيل الثناء والصِّيت والشُّهرة ومَدح النَّاس له.

(٢) فهو يفرح بالباطل ويغترُّ بمَدحِ الجهَلة له، ولو كان مُخلصًا لله جل وعلا لاستوىٰ عنده المَدح والقَدح؛ لأنه لا يعمل لأجل أن يُمدَح، ولا لأجل أن يُذَم، وإنما يعمل لأجلِ الله عز وجل وَحدَه.

وبهذا يُعلم أنَّ من أمَارات الإخلاص عند العبد: استواءُ المَدح والقَدح من الناس له؛ لأنه أصلًا لم يَعمل لأجلهم؛ وإنما عمل لأجل ربِّ العالمين جل وعلا.

(٣) أي: أنَّ عمَله وَفقَ ما تُريدُه نفسُه وتَهواه، وليس متبعًا لرضَا سَيِّده ومَولاه تبارك وتعالى.

(٤) فلا يتصفَّحُ ما في القرآن من زَوَاجر، ووَعد ووعيد، ولا يتدبرها ليصلحَ بها قلبَه.

(٥) لأنه يحبُّ أن يكون الأمرُ كلُّه له، فإذا انتقل مَن قَرأ عليه إلىٰ غَيرِه غَضِبَ من ذلك، وهذه من علامات الخلل في النية، فإنَّ المخلص لا يغضب إذا استفاد تلميذه من غيره.

إن ذُكِرَ عنده رجلٌ مِن أهلِ القرآنِ بالصَّلاحِ كَرِهَ ذلك، وإن ذُكِرَ عنده بمَكْروه سَرَّهُ ذلك(١)، يَسْخَرُ بمَن دونَه، ويهمِزُ مَن فوقَه(٢)، يتتبَّعُ عُيوبَ أهلِ القرآنِ؛ ليضعَ منهم، ويرفعَ نفسَه(٣)، يتمنى أن يخطئَ غيرُه ويكونَ هو المُصيبُ(٤).

ومن كانت هذه صفتُه، فقد تعرَّضَ لسَخَطِ مولاه الكريم، وأعظمُ مِن ذلك أنْ أظهرَ على نفسِه شعارَ الصَّالحين بتلاوة القرآن، وقد ضيَّعَ في الباطِن ما يَجِبُ لله، ورَكِبَ ما نهاه عنه مولاه الكريم(٥)، كلُّ ذلك بحُبِّ الرِّياسةِ، والمَيلِ إلى الدنيا(٦).

---

(١) فإذا ذُكر عنده أحدٌ بالخَير كره هذا الثنَاء، وإن ذُكِر أحدٌ ممن يُقرِئُ القرآنَ بالسُّوء فرح بذلك؛ لأنه يريد أن يكون العلو والثناء له دون غيره.

(٢) أي: يسخر ممن كان دُونه في العلم أو الحِفظِ، ويَحُطُّ من شأنه ومَكَانته، ويعيبُ مَن كان فوقه وأعلى منه حفظًا وإتقانًا وضَبطًا وقِرَاءةً.

(٣) أي: يبحث عن عيوبهم ويطلبها وينشرها؛ ليُقَلل من مَكَانتهم، ويَرفع من نفسه ومكانته.

(٤) وهذا من قِلَّة النُّصح وقِلَّة الدِّيانة، فإنَّ الناصِحَ همَّتُه أن يقفَ الناسُ على الحقِّ، سَواءً كان منه أم من غيره، فالمُهِم أن تحصلَ الإصابةُ ويتضحَ الحقُّ، وكثير من السَّلف كان يتمنَّى أن يُجريَ اللهُ الحقَّ على لسَان غيره؛ لأن المقصُود النُّصحُ، وصَلاحُ الأمر، وحصُول الانتفَاع.

(٥) فيتظاهَرُ أنه من أهل القُرآن والصلاح، بمَا أُوتِي من حِفظٍ أو حُسن أداءٍ وتَرتيل؛ لكنه في البَاطن مُضَيِّع، كما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وقد ضَيَّع في البَاطن ما يجبُ لله**»، والذي يَجبُ للهِ إمَّا أداء فرض أو تَركُ مُحرَّم، فتَجدُه يُفرِّط في بَعض الواجبات، ويَرتكبُ بَعض المُحرَّمات.

(٦) وحبُّ الرئاسة والمَيل إلى الدنيا همَا من أعظم الأمور المفسدة للإنسَان، وإفسادهما له شُبِّه في الحديث بذِئبَين جائِعَين أُرسِلا في زَريبة غنم، فأيُّ حالٍ ستكون عليها زَريبةُ الغنم إذا دخلها ذئبَان جائعان؟! فقال النبيُّ ﷺ: «**مَا ذِئبَانِ جَائِعَانِ أُرسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفسَدَ لَهَا مِن حِرصِ المَرءِ عَلَى المَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ**» [أخرجه الترمذي (٢٣٧٦)، وصححه الألباني] =

قد فتنَه العُجْبُ بحفظِ القرآن، والإشارةُ إليه بالأصابعِ[(١)].

إن مَرِضَ أحدُ أبناءِ الدُّنيا أو مُلوكِها، فسألَه أن يختمَ عليه سارعَ إليه، وسُرَّ بذلك[(٢)]،

= فلو أُرسلَ ذئبان جائعان في زَريبة غنم لأفسَدا الغنم كُلها، وأضَرَّا بها ضَررًا بالغًا، وهكذا شَأن طلب الرئاسَة وطلب الدنيَا، والمال، يُهلك المرءَ في دينه.

(١) العُجبُ: هو رؤيةُ الإنسان نفْسَه، والاغترار بما عنده، فقد يغتر الإنسانُ بعلمه، أو بصِحَّته، أو بكثرة ولده وماله، والغُرور والعُجب مهلكان للإنسَان، ولأعماله الصَّالحة، كما قال الشيخ حافظ الحكمي في «المنظومة الميمية»:

والعُجبَ فَاحذَرْهُ إنَّ العُجبَ مُجترِفٌ ... أعمالَ صَاحِبِهِ في سَيلِهِ العَرِمِ

فالعُجْبُ أمرُه خَطير، وقد يُصَاب به حافظُ القرآن لإتقانه حِفظَ القُرآن؛ فيُعجَب بنفسه ويغتَر، مع أن غيره ممَّن لم يَحفظ إلا جُزءًا من القُرآن قد يكونُ خيرًا منه في دِيَانته، وعبَادَته، وخَوفه من الله، ومُحَافظَته علىٰ فَرائض الإسلام، ووَاجبَات الدِّين، وفي البُعد عن الحَرَام.

والعُجب مَهلَكة للإنسَان، وداءٌ عُضَال له، ولو تفكَّر المُعجَب بنَفسه أو المُغتر لوجدَ ذنوبَه كثيرةً، وتفريطَه في جنب الله عظيمًا، والنَّاصِحُ لنَفسِه المُدَاوي لسقمِهَا يترِكُ النَّظرَ إلىٰ القَدْرِ الذي يحفظُه من القُرآن والإتقان الذي عنده، وينظر في صَفحة أخرَىٰ من حياته؛ وهي كثرة الذنوب التي عندَه، وكثرة التَّفريط الذي هو وَاقعٌ فيه، فإنَّه سيجِدُ تقصيرًا كثيرًا في طاعة الله تعالىٰ وفي أداء حقوقه الواجبة.

وكذا لو نظرَ في كَثرة نِعَم الله عليه وَآلائِهِ، وأنَّ مَا به من نِعمَة فهي من الله ومِنَّةٌ منه، جعلَهُ نظره هذا من الشاكرين، فهذا النَّظرُ عِصمةٌ له من الهلاك وحُبوط العمل، كما قال النَّاظم:

لا تَعْجَبنَّ به يُحْبَطْ ولا تَرَه ... في جانِبِ الذَّنبِ والتَّقصيرِ والنِّعَمِ

(٢) وذلك لأنه يَلتمسُ شيئًا عند أبنَاء الدنيَا وأبناء المُلوك؛ فيسَارعُ إليهم طالبًا دُنيَاهم.

وإن مَرِضَ الفقيرُ المستورُ، فسألَه أن يختمَ عليه ثَقُلَ ذلك عليه(١).

يحفظُ القرآنَ ويتلُوه بلسانِه، وقد ضيَّعَ الكثيرَ من أحكامِه(٢).

أخلاقُه أخلاقُ الجُهَّال(٣)**؛ إن أكلَ فبغيرِ علمٍ، وإن شَرِبَ فبغيرِ علمٍ، وإن نام فبغيرِ علمٍ، وإن لَبِسَ فبغيرِ علمٍ، وإن جامَعَ أهلَه فبغيرِ علمٍ**(٤)، ....

---

(١) وذلك لأنهُ لا يَرجُو شيئًا عند الفَقير المَستُور.

(٢) لأنه ليس من همته العناية بحفظ حدود ما أنزل الله في كتابه.

(٣) أي: لا تَظهر عليه الأخلاقُ والآدابُ العظيمةُ التي دعا إليها كتابُ الله ﷻ.

(٤) أي: لا يعمل بالسنن والآداب المأثورة عن النبي ﷺ المُتعلقة بالأكل والشُّرب واللبَاس والنوم والمعاشرة وغيرها من الآداب القولية والفعلية.

وقوله: «**بغير عِلم**»: لأنه يُمارس أعمالًا هي من البِدَع التي ما أنزل الله بها من سُلطان، ويُضيِّع السُّنن المَأثورة عن النبيِّ الكَريم ﷺ.

وهذا يوجدُ بكثرة عند أصحَاب الطُّرق المُنحَرفة، فقد يكونُ فيهم من هو من حُفاظ القُرآن؛ لكن تتخلل حيَاته البِدَع؛ في أكله وشربه ومعاشرته لأهله، ويكون قد حَصَّلها من الطريقَةِ التي نشَأَ عليهَا، ولم ينتفع بالقُرآن الذي حفظَهُ.

أما طريقَتُه العَمَلية: فمَأخُوذة من المَسلك الطُّرُقي الصُّوفي الذي نَشَأَ عليه، فتجده يحفظُ القُرآن ولكن أعمَاله ليسَت الأعمالَ المَعرُوفة في القُرآن ولا في سُنَّة النبي ﷺ، وإنما أعمَاله وَفق الطريقَةِ التي نشأ عليها.

ولهذا فإنَّ من المُفَارقات العظيمةِ: أن بعضَهُم يحفظ القرآن، ثمَّ يدعُو بألفاظٍ شِركيَّة وألفَاظ بِدعيَّة، من استغاثةٍ بالأموات، ودعائهم من دون الله تعالىٰ، فهو بذلك مُخالفٌ لصريح نصوص القُرآن التي يَحفَظها؛ من آياتِ التوحيد، والتَّحذير من الشِّرك، ومتمسِّكٌ بأمورٍ أخَذَها من الطريقَةِ التي نشأ عليهَا، وهذه مُصيبَة عظيمةٌ جدًّا، وبَليَّة كبيرة!

وإن صَحِبَ أقوامًا، أو زارَهم، أو سَلَّم عليهم، أو استأذنَ عليهم، فجميعُ ذلك يجري بغيرِ علمٍ من كتابٍ أو سنةٍ(١).

وغيرُهُ ممَّن يحفظُ جزءًا من القرآن مُطالِبٌ لنفسِه(٢) بما أوجبَ اللهُ ﷻ عليه من علم أداءِ فرائضِه، واجتنابِ محارمِه، وإن كان لا يُؤْبَه له، ولا يُشارُ إليه بالأصابع(٣).

---

(١) لأنه لم يتأدَّب بآداب الكتاب والسُّنَّة، ولم يُعطِ هذه الآدابَ نَصيبًا من وقته عِلمًا وعَمَلًا.

(٢) قوله: «**مطالبٌ لنفسه**» أي: مُلزِمٌ لها.

(٣) وهذا بلا رَيبٍ أعلىٰ قدرًا، وأرفَعُ شأنًا، وإن لم يَحفَظ إلا جُزءًا واحدًا من القُرآن أو سُوَرًا مَعدُودَات؛ لأنَّه مُلزِمٌ نَفسَه، ومُطالبٌ لها بِفِعلِ الوَاجبات، واجتناب المُحرَّمات، فكان بإلزام نَفسِهِ -بِفِعلِ الواجبات واجتناب المُحرَّمات- من المُقتَصِدِين، والمُقتَصِدون يدخلُون الجنة بدُون حسَاب ولا عَذاب، والدليل قصة النُّعمان بن قَوْقَل ﵁ حينما جاء للنبيِّ ﷺ وقال: «يا رَسولَ اللهِ، أرأَيتَ إذا صَلَّيتُ المَكتُوبةَ، وحَرَّمتُ الحرامَ، وأَحلَلتُ الحلالَ، أَأَدخُلُ الجَنَّةَ؟ فقال النَّبِيُّ ﷺ: **نَعَم**». [أخرجه مُسلم (١٥)]

وفي رواية أخرىٰ أن النُّعمانَ قالَ: «أرأيتَ إذا صَلَّيتُ الصَّلواتِ المكتُوباتِ، وَصُمتُ رمضانَ، وَأَحلَلتُ الحلالَ، وَحَرَّمتُ الحرامَ، وَلَم أَزِد علىٰ ذلك شيئًا، أَأَدخُلُ الجَنَّةَ؟ قال: **نعم**، قال: واللهِ لا أَزِيدُ علىٰ ذلك شيئًا». [أخرجه مُسلم (١٥)]

والمُرادُ أنه سيَقتصِرُ علىٰ فعل الواجبَات وتَرك المُحرَّمات، ومَن كان كذلك دَخَل الجنةَ بدون حسَاب ولا عذاب، حتَّىٰ لو لم يَحفظ من القُرآن إلا سورًا مَعدُودَات؛ فإنه يَدخل الجنَّةَ بدُون حسَابٍ ولا عَذابٍ.

أما الذي حَفظ القرآنَ كُلَّه؛ ولكنه مفرِّطٌ في الواجبَات، ومرتكبٌ للمُحرَّمات؛ فقد صارَ القرآنُ حُجَّة عليه لا له، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**والقُرآنُ حُجَّةٌ لك أو عَلَيكَ**» [أخرجه مسلم (٢٢٣)].

قوله: «**وإن كانَ لا يُؤبَه له، ولا يُشَار إليه بالأصَابع**»، أي: ليسَ له شَأنٌ عند الناس ولا ذِكرٌ ولا إطراءٌ، فهو لا يَحفظ إلا جُزءًا أو أقَل، ولكنَّه في حقيقة الأمر خيرٌ من ذاك.

=

قال محمد بن الحسين: فمن كانت هذه أخلاقُه صارَ فتنةً لكلِّ مفتون[(١)]؛ لأنه إذا عَمِلَ بالأخلاق التي لا تَحسُنُ بمثلِه اقتدىٰ به الجُهَّالُ، فإذا عِيبَ علىٰ الجاهلِ، قال: فلانٌ الحاملُ لكتابِ الله تعالىٰ فَعَلَ هذا، ونحنُ أولىٰ أن نفعلَه[(٢)]، ومن كانت هذه حالُه فقد تعرَّضَ لعظيمٍ[(٣)]، وثبتَتْ عليه الحجَّةُ[(٤)]، ولا عذرَ له إلا أن يتوبَ.

وإنَّما حَدَاني علىٰ ما بيَّنْتُ من قبيحِ هذه الأخلاقِ: نصيحةٌ منِّي لأهلِ القرآن[(٥)]،

= قال الإمام ابنُ القَيِّم رحمه الله في بيان هذا المَعنىٰ: «ولهذا كانَ أَهلُ القُرآنِ هُمُ العَالِمُونَ بِهِ، والعامِلُون بما فيه، وإِن لم يحفَظُوهُ عن ظَهرِ قَلبٍ، وأَمَّا مَن حَفِظَهُ ولم يفهَمهُ ولم يعمل بِما فيه، فليسَ مِن أَهلِهِ وإِن أَقامَ حُروفَهُ إِقامَةَ السَّهمِ». [«زاد المعاد» (١/ ٣٢٧)]

(١) وضَرره علىٰ الناس في بَلَده ومُجتمعه ضررٌ عظيم جدًّا.

(٢) مثال ذلك إذا قِيلَ لجَاهل: (لماذا تتهاون في صَلاة الفجر، وتنام عنها؟)، فسيقُولُ: (فلانٌ يَحفظ القرآن كَاملًا وهو ينامُ مثلي وأكثَر)، وكذلك الحال في غيرها؛ فتجِدُ الجُهَّال يتمَادَون في الجهل والتَّفريط في الواجبات، وارتكَاب المُحرَّمات، وإذا عِيبَ عَليهم ذلك قالُوا: فُلانٌ الحَامل لكتاب الله فعل هذا؛ فنحنُ أولىٰ أن نَفعله، فيكون فتنة لكل مفتون.

(٣) وذلك لأنه صَار قُدوةً للناس في الشَّر.

(٤) بحفظِه للقرآن، كما قال النبيُّ ﷺ «**والقُرآنُ حُجَّةٌ لك أو عليك**» [أخرجه مسلم (٢٢٣)].

(٥) وذلك لأن أهلَ القُرآن خصوصًا، وكُل مسلم عُمومًا؛ مطلوبٌ منه أن يعرف أمرَينِ:

* **أن يَعرفَ الخيرَ؛ ليفعلَه.**

* **وأن يعرفَ الشَّر؛ ليَجتنبَه.**

فمَطلوبٌ منه أن يعرف الأخلاقَ الفَاضلة والآدابَ الكاملة ليكُون من أهلها، ومَطلُوب منه أن يعرفَ الأخلاق المَذمُومة والأوصافَ المَشينةَ ليَحذر منهَا. =

ليتعلَّقُوا بالأخلاقِ الشَّريفةِ، ويتجافَوا[١] عن الأخلاقِ الدَّنِيَّةِ، والله موفقنا وإياهم للرَّشاد.

واعلموا - رحمنا الله وإياكم - أني قد رَوَيتُ فيما ذَكرتُ أخبارًا تدلُّ على ما كَرِهتُه لأهلِ القرآن، فأنا أذكُرُ منها ما حَضَرني؛ ليكون الناظِرُ في كتابنا ينصَحُ نفسَهُ عند تلاوتِه القرآنَ، فيُلْزِمُ نفسَه الواجبَ، والله تعالى الموفق[٢].

حدَّثنا جعفرُ بن محمد الفِريابيُّ: ثنا إبراهيم بن العلاء الزُّبيديُّ ثنا بقيَّةُ بن الوليد، عن شعبةَ، عن سعيد الجُرَيري، عن أبي نَضْرة، عن أبي فِراس، عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «لقد أتى علينا حِينٌ[٣] وما نرى أنَّ أحدًا يتعلَّمُ القرآنَ يريدُ به إلا الله تعالى[٤]، فلمَّا كان هاهنا بأَخَرةٍ[٥]، ....

= قال حذيفة بن اليمان: «كان النَّاسُ يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنتُ أسأله عن الشرِّ مخافة أن يدركني» [أخرجه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧)]

يقول أحدُ الشُّعراء في هذا المعنى:

عَرَفتُ الشَّرَّ لا للشَّرِّ لَكِن لتَوقِّيه ... ومن لا يَعرِف الشَّرَّ منَ النَّاس يَقع فِيه

ولهذا ألَّفَ العلماءُ كُتبًا في تعداد الكبائر؛ فذكروا كبيرةً تلو الأخرى مُحَذِّرين من الوقوع فيها.

(١) ومَعنى (**يتَجَافوا**)؛ أي: يَبتَعِدُوا ويَجتَنِبوا.

(٢) بعد أن ذكر الأوصَاف التي ينبغي أن يجتنبها حامل القرآن شَرع يذكر الأدلة المروية عن النبيِّ ﷺ، والنُّقُول المَأثورة عن السَّلف الصَّالح ﷺ في تقرير هذا المعنى.

(٣) يقصدُ معَاشرَ الصَّحابة ﷺ.

(٤) هَكذا كان ظَنُّهم فيمَن يرونهم مُقبلين على كتَاب الله قرَاءة وحفظًا واستذكَارًا.

(٥) أي: فلما تَأخَّر الزمانُ عن زمَن الصحابة ﷺ، والرَّعيل الأول.

خَشِيتُ أنَّ رِجالًا يتعلمونَه يريدون به الناسَ وما عندَهم، فأَرِيدُوا اللهَ تعالىٰ بقراءَتِكُم وأعمالِكُم(١)، فإنا كنَّا نعرِفُكُم إذ كان فينا رسولُ الله ﷺ، وإذ ينزلُ الوَحْيُ، وإذ يُنَبِّئُنا اللهُ من أخبارِكُم(٢).

فأمَّا اليومَ فقد مضىٰ رسولُ الله ﷺ، وانقطعَ الوَحْيُ، وإنَّما أعرفكم بما أقول: مَنْ أعلنَ خيرًا أحببناهُ عليه، وظننَّا به خيرًا، ومَنْ أظهرَ شرًّا أبغضناهُ عليه، وظننَّا به شرًّا، سرائِرُكُم فيما بينكم وبين ربِّكم ﷻ(٣)».

---

(١) أي: أصلِحُوا نِيَّتكم فيما بينكم وبينَ الله ﷻ في قِرَاءتكم للقُرآن، وأصلحوا أعمَالكم، وهذا تنبيهٌ من أمير المؤمنين عُمر بن الخطاب رضي الله عنه إلىٰ أن النيَّة تحتاجُ إلىٰ مُعالجَة مُستمرَّة، وأن يعمل المَرءُ عملًا دائمًا مستمرًّا علىٰ إصلاحِ نِيَّته بينه وبين الله في عبادته كلها.

ولهذا يقول الإمام سفيان الثوريُّ رحمه الله: «ما عالجتُ شيئًا أشدَّ عليَّ من نيَّتي».

[«تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة (ص٣٥)]

فإصلاحُ النية يكون في أول العَمل وأثناء العمل وبعد انقضَائه، ولهذا ينبغي للمسلم أن يُعنَىٰ به عنايَةً دائمَة مُستمِرَّة، ومن ذَلكم قراءَتُه للقُرآن الكريم.

(٢) فمَن كان يُبطِنُ خبثًا وشَرًّا؛ فإن القرآن يَنزل بفَضحِهِ، وفَضحُ القرآن لهؤلاء لم يَكُن فَضحًا لهم بالأسمَاء، وإنما كان فَضحًا لَهُم بذكر أوصَافهم كما جاء في سورة التوبة التي سماها أهل العلم بالفاضحة؛ لأن الله تبارك وتعالى فضَحَ فيها المنافقين وهَتَكَ أستارَهُم، وكان فَضْحُهم بالأوصاف أبلغَ نفعًا من الفضحِ بالأسماء؛ بحيثُ تَبقَىٰ هذه الأوصافُ علىٰ مدَىٰ التاريخ ومَرِّ الزمان فاضحَةً لمن كانَ مُتَّصفًا بها، كاشفَةً لخَبيئته.

(٣) **الظاهرُ**: هو مَا يُظهِرُه الإنسان، وعليه يكونُ الولاءُ والبَراء، والحبُّ والبُغض، وما إلىٰ ذلك، وأما **السَّريرة** فهَذه بين العَبدِ وبينَ الله تبارك وتعالى لا يَطَّلع عليهَا إلا علَّامُ الغيوب.

ولِهَذا الخَبر أصلٌ في «صَحيح البُخَاري» ولاسيَّما ما جَاء في آخرِهِ، فعن عُمرَ رضي الله عنه أنه قالَ: «إن أناسًا كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ، وإن الوحي قد انقطع، وإنما =

حدَّثنا أبو بكر محمَّد بن يحيىٰ بن سليمان المَروزيُّ قال: ثنا عُبيد الله بن محمد العَيشِيُّ ثنا حمَّاد بن سلمة أنا الجُرَيريُّ، عن أبي نَضْرَة: أن عمرَ بن الخطابِ قال: يا أيها الناس، وذكر نحوًا من حديث الفِريابي.

قال محمد بن الحسين: فإذا كان عمرُ بن الخطَّاب قد خافَ علىٰ قومٍ قرؤوا القرآنَ في ذلك الوقت بمَيلِهِم إلىٰ الدنيا فما ظنُّكَ بهم اليوم؟[(١)]

وقد أخبرنا النبيُّ ﷺ أنه يكون أقوامٌ يقرؤون القرآن يُقِيمُونَه كما يقيمونَ القِدْحَ[(٢)]، ويتعجَّلُونَه، ولا يتأجَّلُونَه، يعني: يطلبون به عاجِلَةَ الدنيا، ولا يطلبون به الآخرة[(٣)].

= نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيرًا أمناه وقربناه، وليس إلينا من سريرته شيء، الله يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءًا لم نأمنه، ولم نصدقه، وإن قال: إن سريرته حسنة» [صحيح البخاري (٢٦٤١)].

(١) أي: في القَرن الرَّابع الذي عاشَ فيه الآجُري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومَا الظنُّ بمثل زمَاننا هذا؟! ومن المعلوم أنه لا يأتي علىٰ الناسِ زمَان إلا والذي بَعدَه شَرٌّ منه، كما ثبت عن النبيِّ ﷺ من حديث أنس بن مالك [أخرجه البخاري في «صحيحه» (٧٠٦٨)].

(٢) قوله: «القِدح» هو السَّهم الذي يُرمَىٰ به؛ والمُراد: من حيث إتقانُهم للتلاوة وضَبطُهم لها، يُقيمونه إقامَةً دقيقة جدًّا؛ لكنَّهم يُريدُون بهذه الإقامَة للقرآن والضبط والإتقان شَيئًا مُعَجَّلًا في الدنيَا لم يَجعَلُوه قُربَة لهم يَتقَرَّبُون به إلىٰ الله لنَيل ثَوابِ الآخرة.

(٣) أي: يتعجَّلُون أجره، ويريدُون عليه شيئًا مُنجَزًا في الدنيا، ليس لهم هِمَّة فيما عند الله والدَّار الآخرة، والله تعالىٰ يقُول: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٨-١٩].

فلا يَشكُر الله ﷻ عمَلَ العامل ولا يَقبلُهُ إلا إذا أرَادَ به الآخرَةَ، وقَصَد به التقرُّب إلىٰ اللهِ ﷻ وحده لا شريك له.

حدَّثنا أبو محمد الحسن بن عَلَويه القطان: ثنا خلفُ بن هشام البزارُ: ثنا خالد بن عبد الله الواسطيُّ، عن حُميد الأعرج، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال: «خرجَ علينا رسولُ الله ﷺ، ونحنُ نقرأُ القرآنَ، وفينا الأعجمي والأعرابي(١)**، قال: فاستمع**(٢)**، فقال: اقرؤوا، فكُلٌّ حَسَن**(٣)**، سيأتي قومٌ يُقِيمونَه كما يُقِيمون القِدحَ**(٤)**، يتعجَّلُونَه، ولا يتأجَّلُونه**(٥)**»**. [أخرجه أبو داود (٨٣٠)، وصحَّحَه الألباني]

---

(١) وإذا كان الأمرُ على هذه الحَال؛ فيهمُ العَربي والعَجَمي، فلن تكونَ القراءةُ على حَدٍّ سَواء في الإتقَان؛ بل إنها ستكُونُ مُتفَاوتة؛ هذا يتَتَعتعُ في القُرآن، وهذا يَصعُبُ عليه لعُجمَته، وهذا يَقرأ بانطلاقٍ وسَلاسَة وسُهُولة.

(٢) أي: إلى هذه التِّلاوات المُتفَاوتَة.

(٣) مُخَاطبًا الجَميع في هذه القراءات المُتفَاوتة، وأثنى على الجميع؛ المتقن ومَن هو دونَهُ في الإتقان، وهذا يتضمَّن حثَّهم على الخير، والاستمرار فيه، ولاشكَّ أنَّ من كان في تلاوتِهِ شيءٌ من النقص والقُصُور فإنه ينبغي عليه أن يُجَاهد نفسَهُ على تقويم القَرَاءة وإصلاحِهَا؛ فيَنتقل من هذا الذي وُصِفَ في الحديث أنَّه حَسَن إلى الأحسن، ومن الفَاضل إلى الأفضَل، وهو مَأجُور في تلاوته، ومَأجُور على عمله في إصلاحها وتَحسِينهَا.

(٤) يعني: السَّهم الذي يُرمَى به، يعني: إقامَةً دقيقةً من حيث التلاوةُ، والمَخَارج، وضَبطُ الحِفظ، وعَدَم الخطأ في التلاوة.

(٥) أي: يتعَجَّلون أجرَهُ، فيُريدون عليه شيئًا دُنيَويًّا في العَاجلة؛ إما مَدحًا أو مَالًا، أو ثنَاءً أو صِيتًا، أو نَحو ذلك، لا يُريدُون شيئًا أُخرَويًّا.

وليس في هذا الحَديث ما يدلُّ على ذَمِّ إتقَان التلاوة وضَبطِها؛ بل ضبط القرآن وإتقانه من المَحَامد والمَحَاسن، وإنَّما الذَّمُّ لأجل النيَّة الفَاسدة عند هؤلاءِ، فإنَّ ضبطَهم للقرآن لم يكن لله والدار الآخرة، ولذلك صار مَن يتتعتع بالقرآن ويقرؤه بإخلاص -مع عدم ضبطٍ- خيرًا من هؤلاء.

=

حدَّثنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد: ثنا الحُسَين بن الحسن المَرْوزيُّ: أنا ابن المبارك: أنا موسى بن عبيدة الرَّبذي، عن عبدِ الله بن عُبيدَة -وهو أخوه-، عن سهل بن سعد السَّاعدي قال: «بينا نحن نَقْتَرِئُ، إذ خرجَ علينا رسولُ الله ﷺ، فقال: الحمدُ لله[(١)]، كتابُ الله واحِدٌ[(٢)]، وفيكم الأخيار، وفيكم الأحمر والأسود[(٣)]، اقرؤُوا القرآنَ[(٤)]، ......

= وأمَّا إن كان الضبط والإتقان يُراد به الله والدار الآخرَة؛ فهذا جزاؤه أنه مع السَّفَرة الكِرام البَررة، كما أخبَر بذلك النبيُّ ﷺ فقالَ: «**الماهِرُ بالقُرآنِ مع السَّفَرَةِ الكِرامِ البررَةِ، والذي يقرَأُ القُرآنَ ويتَتَعتَعُ فيهِ، وهو عليه شاقٌّ، لهُ أَجرانِ**» [أخرجه البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم (٧٩٨)، واللفظ له].

(١) في هذا استحضارٌ للنِّعمة، وحمدٌ لله ﷻ عليها، وقَد سبَقَ تَنبيه المُصنف رَحِمَهُ اللَّهُ على شَرف هذا العلم الذي سماه رَحِمَهُ اللَّهُ: عِلم النِّعَم. [انظر: ص ١٠١]

وعندما يستَحضِرُ العبدُ علمَ النِّعَم فإنه سيؤدي به لشكر المُنعِم، والله تعالىٰ يقول: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٧].

(٢) فالنبيُّ ﷺ حَمِدَ الله ﷻ علىٰ نِعمَة الكتاب، ومن هذا القَبيل قوله تعالىٰ: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴾ [الكهف:٢].

ونعمة الكتاب هي أعظمُ النِّعم؛ لأن هذا الكتاب كتابُ هدايةٍ أصلَح الله ﷻ به الناسَ وهداهم، وكان لهم نُورًا وضياءً وبُشرىٰ ورحمَة ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾.

(٣) أي رغم اختلاف أجناسكم وألوانكم إلا أنَّكم كلَّكم أهلُ إيمَان، وإقبال علىٰ كتَاب الله ﷻ، فهَذه نِعمَة عَظيمة، ونحوه ما جاء في الحَديثِ الآخَر: «... **ألا لا فضلَ لِعَربِيٍّ علىٰ عَجَمِيٍّ، ولا لِعَجَمِيٍّ علىٰ عَرَبِيٍّ، ولا أَحمَرَ علىٰ أَسوَدَ، ولا أَسوَدَ علىٰ أَحمَرَ، إلَّا بِالتَّقوَىٰ...**». [أخرجه أحمد (٢٢٩٧٨)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٧٠٠)].

(٤) حَثَّهم ﷺ علىٰ العنَاية بالقُرآن، قراءةً وتدبرًا.

اقرؤوا قبل أن يأتيَ أقوامٌ يقرؤُونَه، يُقِيمون حروفَه[(١)]، كما يُقامُ السَّهم[(٢)]، لا يُجاوِزُ تراقِيهم[(٣)]، يتعجَّلُون أجرَه، ولا يتأجَّلونه[(٤)]». [أخرجه أبو داود (٨٣١)، وحسنه الألباني]

---

(١) قوله: «**حُرُوفه**»: فيه إشارةٌ إلىٰ أنَّ قراءتهم للقُرآن قاصرةٌ علىٰ الحُروفِ فَقَط، أما المَعَاني والعمل بالقُرآن فلا يعتنون به، وإنما عِنَايَتُهم مُنصَبَّة علىٰ إقامَة الحُروف وضَبط القراءة والتَّرتيل.

(٢) يعني: إقامَةً دقيقةً مُتقَنةً، فإذا قرَأ القارئُ منهُم لا يُلحَظ عليه خَطأ، ولا يقعُ في لَحنٍ، يُقيمه كما يُقَام السَّهم.

(٣) معناه: أن حَظَّهم من القُرآن يقف عند مخارج الصَّوت؛ الحنجرة فما فوقها فقط؛ أمَّا القلبُ فلا نصيبَ له من القُرآن، ومن المعلوم أنَّ القَلب هو مَوطنُ عَقل الخِطَاب، وأما هؤلاء؛ فَالقرآن لا يُجَاوز تَرَاقِيَهم؛ لأنَّ هِمَّتَهم لم تَتَّجه لِفَهم القُرآن، وعَقل الخِطاب أصلًا.

(٤) تقدَّم أنَّ معناه أنهم يتعجَّلون أَجرَ قراءتهم في الدنيا؛ إمَّا بطلب الثناء أو المَدح أو الصِّيت أو المال، ولهَذا نجدُ أنَّ بعضَهم أصبحَت وظيفته: القراءة في المَآتم والمَحَافل مقابل المال.

ووصل الحال ببعضِ القُرَّاء أنه افتتحَ حَفلًا غنائيًّا بآياتٍ من القُرآن الكريم، ليُعطَىٰ مَالًا نظير ذلك، -جَلَّ كلامُ الله ﷻ وتقَدَّس عن هذا العَبَث-.

والحاصل: أنَّ الواجبَ علىٰ مَن فُتِحَ عليه في القرآن حفظًا وإتقانًا أن يُجاهِدَ نفسَه علىٰ أن يجعل هذا الضبطَ والإتقانَ قُربَةً لربِّ العَالمين، يُريدُ به وَجه الله ﷻ والدار الآخرة، وعليه أن يَدعوَ ربَّه أن يُصلِحَ له النيَّة.

وإذا أُعطي صَوتًا حسنًا وجَمَالًا في القِرَاءة، وصار النَّاس يثنون عليه ويمدحونه فعليه أن يَسأَلَ ربَّه أن يُخَلِّصَه ويُنَجِّيه من هذه الفتنة، وألا يكُونَ من هَؤلاء الذين ذَكَر النبي ﷺ أنَّهم يَأتُون في آخِرِ الزَّمان ويُتقنون القرآن، ولكنهم يتَعجَّلُونه ولا يتأجَّلُونه.

وإخباره ﷺ بهذه الأمور التي ستقع في آخر الزمان هي من معجزاته، ودلائل نبوَّته، فإنها وقَعَت علىٰ طبقًا لما أخبر ﷺ.

حدَّثنا أبو محمد أيضًا: ثنا الحسين بن الحسن: أنا ابنُ المبارك: أنا موسى بن عُبيدة، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث، عن ابن الهاد، عن العباس بن عبد المُطَّلِب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **قال: قال رسولُ الله** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يظهرُ هذا الدينُ حتى يجاوِزَ البِحار، وحتى يُخاضَ بالخَيلِ في سبيلِ الله(١)، ثم يأتي قومٌ يَقرؤُون القرآنَ، فإذا قرؤُوه(٢) قالوا: قد قَرَأْنا القرآنَ، فمَنْ أقرَأُ منا؟ مَنْ أعلَمُ منا؟(٣)» ثم التفتَ إلى أصحابِه فقال: «هل ترونَ في أولئك من خيرٍ؟ قالوا: لا(٤)، قال: فأولئك منكم، وأولئك من هذه الأمةِ، وأولئك هم وقودُ النَّار(٥)»** [أخرجه أبو يعلى الموصلي في «مسنده» (٦٦٩٨)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٢٣٠)].

وحدَّثنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبد الحَميد الواسطيُّ: ثنا زُهير بن محمد قال:

---

(١) وهذا أيضًا من آيات النُّبوة ودلائلها؛ فإنَّ دينَ الإسلام قد انتشر في بقاع الأرض، وتجاوز البحار التي كانت تحيط بالجزيرة إلى ما بعدها من البلاد.

(٢) أي: إذا أتقنوا قراءته.

(٣) فانتقلَ الأمر من الضبطِ والإتقان إلى نَوعٍ من المُفَاخرة والمُراءَاة والعُجب بالنفس، واختلَّت النيَّةُ بذَلك.

(٤) وليس المقصود بجوابهم قراءة القُرآن، فالصَّحَابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أهل فقهٍ وإيمان، ولكن إجابتهم وقعت فيمن يقرأُ القُرآن حتى يفتخر على غيره، ويدعي أنه لا يوجد أحفظ منه، ولا أعلم منه، ولا أتقن منه.

(٥) لأنهُم قَرؤوا القُرآن من أجلِ الدُّنيا والصِّيت والمُبَاهاة والتَّعالي عَلى خَلْق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وقد قال النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقضى يوم القيامةِ عليه...ورَجُلٌ تَعَلَّمَ العلمَ، وعلَّمَهُ وقَرَأَ القُرآنَ، فأُتيَ بِهِ فعَرَّفَهُ نعمَهُ فعَرَفها، قال: فما عَمِلتَ فيها؟ قال: تَعَلَّمتُ العِلمَ، وعَلَّمتُهُ وقَرأتُ فيك القُرآنَ، قال: كذَبتَ، ولكِنَّكَ تَعَلَّمتَ العلمَ لِيُقالَ: عالِمٌ، وقرأتَ القُرآنَ لِيُقالَ: هو قارِئٌ، فقد قيل، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ على وجهِهِ حتَّى أُلقِيَ في النَّار...»**

[أخرجه مسلم (١٩٠٥)].

أنا عبيدُ الله بن محمد قال: أنا ابن نُمَير، عن موسىٰ بن عُبَيدة، عن محمد بن إبراهيم، عن ابن الهاد، عن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله ﷺ: وذكر الحديث مثله.

وحدَّثنا ابن عبد الحَميد الواسِطيُّ أيضًا: ثنا زُهير بن محمد قال: أخبرنا أبو نُعيم: ثنا إسماعيل بن إبراهيم بن المُهاجر قال: سمعتُ أبي يذكر عن مُجاهِد، عن ابن عمر قال: إنْ كُنَّا -صَدْرَ هذه الأمَّة-(١)، وكان الرجلُ مِن خِيارِ أصحابِ رسولِ الله ﷺ ما معه إلا السُّورة من القرآن، أو شبه ذلك(٢)، وكان القرآنُ ثقيلًا عليهم، ورُزِقوا العملَ به(٣)، وإنَّ آخرَ هذه الأمة يُخَفَّفُ عليهم القرآنُ(٤)، حتىٰ يقرأه الصبيُّ والأعجميُّ، فلا يعملون به(٥)».

---

(١) أي: أمَّة مُحمد ﷺ، فهو يتكلَّم عن ذلك الجِيلِ المُبارك الذي هو خَير أمَّة محمدٍ ﷺ، كما قال ﷺ: «**خَيرُ النَّاسِ قَرنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم**» [أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣)].

(٢) فليس كل الصَّحابة رضي الله عنهم حَفظُوا القُرآن كُله، فمنهم من حَفظه، ومنهم من حَفظَ الكثير منه، ومنهم مَن حَفظ القليلَ، وهؤلاء الذين لم يحفَظُوا إلا القليلَ كانوا خيارًا، وكانوا أئمَّة هُدىً، وصَلاح، وفَضلٍ وعبَادة وديَانة وإخلاص وصدق مع الله جل وعلا.

(٣) كان الواحد من هؤلاء لا يحفظُ كثيرًا من القرآن؛ لكنه يعمَلُ، فهو من أهل الصَّلاة، وأهل الصِّدق، والبِرِّ، والصِّلَةِ، والإحسَان، يأتمرُ بأوامر القرآن وينتهي عن نواهيه.

(٤) يعني: أن حِفظَهُ يكُون خَفيفًا سهلًا.

(٥) سبب ذلك اختلاف طريقة الحفظ، فالصَّحابة رضي الله عنهم كانوا يَحفَظُون حفظًا مقرونًا بالفَهْمِ والعَمَل.

ولهذا يمضي عَليهم الوَقتُ في الآية والسُّورة والعَشر آيات لا يَتجاوَزُونها حتى يَعلمُوا ما فيها ثم يَعمَلُوا بها، ثم يتجَاوَزونها إلىٰ ما بَعدَها، فإذا أشكلَ شَيءٌ من المَعَاني لم يَحفَظوا مزيدَ آياتٍ أُخرَىٰ حتىٰ يفهموا معناها؛ لأنها إنَّما أُنزلَت لتُفهَم ويُعمَل بهَا، لا لِمُجَرَّد الحِفظِ.

=

وحدَّثنا ابن عبد الحَميد: ثنا زُهير بن محمد قال: أنا سعيد بن سليمان أنا خالد -يعني: الواسطيَّ، عن عطاء بن السائب قال: كان أبو عبد الرحمن يُقرِئُنا، فقال يومًا: قال عبد الله ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ: ليرثَنَّ هذا القرآنَ قومٌ، يشربُونَه كما يُشْرَبُ الماءُ(١)، لا يجاوِزُ تراقِيهم(٢)».

أما الآن فالهِمَمُ كُلُّها مُوجَّهةٌ في الغالب إلىٰ الحِفظِ فقط، وينشأ الطالبُ ولا يَجدُ مَن يُنبِّهه علىٰ المَعَاني أو يَحُثُّه علىٰ العَمَل، فيحفظُ سريعًا بلا فَهمٍ وَلا عَملٍ، بل تَجدُه حَافظًا مُتقنًا للقرآن، ولكنه متهاونٌ في الصَّلاة المَكتُوبة -مثلًا-!، ومن ضيَّعها فهو لما سواها أضيع، ولم ينزلِ القُرآن لمُجرَّد أن يُحفَظ في الصدر، إنَّما ليكُون حياة عَمَليَّة للعَبد وطاعَة لله وقُربة له تبارك وتعالىٰ.

قال ابن عُمَر رضي الله عنهما: «لقد عِشتُ بُرهةً من دَهرِي، وإن أحدَنا يُؤتىٰ الإيمانَ قبلَ القُرآنِ، وتَنزلُ السُّورةُ علىٰ مُحمد ﷺ فنتَعَلَمُ حلالها وحرامها، وما ينبغي أن نقِفَ عندَهُ منها، كما تَعلمُون أنتُم القُرآن، ثُم لقد رأيتُ رجالًا يُؤتىٰ أحَدُهُم القُرآنَ قبلَ الإيمان، فيقرَأ ما بينَ فاتحَةِ الكتَابِ إلىٰ خاتمَتِهِ ما يدرِي ما آمِرُه ولا زاجِرُه، وما ينبغي أن يقفَ عِندَه منه، ويَنثُرُهُ نَثرَ الدَّقَل» [«مجمع الزوائد» للهيثمي (١/ ٤٠٤) وقال: «رجاله رجال الصحيح»].

والدَّقَل: هو التمر اليابس عندَمَا يتساقطُ من العِذقِ إذا هُزَّ، فلا يكون له نصيبٌ لا من الفَهم لكتاب الله جل وعلا، ولا من العَمَل به.

(١) يعني أنهم يُتقنُون قراءَته ويَحفظونه حفظًا سَريعًا، وهذا التَّعبيرُ مَشهُور عند الناس إلىٰ وَقتنا الحَاضر، ويَستخدمُونه للدَّلالة علىٰ سُهولة الشَّيء؛ فيقُولُون: هو سَهل كشرب المَاء.

(٢) وقد وصف النبي ﷺ الخَوارج في أحاديث كثيرة؛ بأنهم يَمرقُون من الدِّين كما يَمرُق السَّهم من الرَّميَّة، يقرَؤون القرآن لا يُجَاوز تَرَاقيهم، ولذا قد يَغترُّ بعض الناس أحيانًا ببعض مَن يحفظُ القُرآنَ حِفظًا مُتقنًا، فيُجَاريهم في أعمَالهم التي تكون مُخَالفة للسُّنَّة.

«**حدَّثنا أبو محمد يحيىٰ بن محمد بن صاعد: ثنا الحسين بن الحسن المروزيُّ: أنا ابن المبارك: أنا معمر، عن يحيىٰ بن المُختار، عن الحسن قال:** «**إنَّ هذا القرآنَ قد قرأه عَبيدٌ وصِبيان، لا عِلْمَ لهم بتأويله**[(١)]**، ولم يتأوَّلوا الأمرَ مِنْ أوَّلِه**[(٢)]، ....

= جاء عن الحَسن البصري أنهم ذَكَرُوا له أن رجلًا رَأىٰ مُنكرًا فأنكرَه بطَرِيقَة غير مَشرُوعة، فقال: «المِسكِينُ رأَىٰ منكَرًا فأَنكرهُ، فوقعَ فيما هُوَ أَنكَرُ مِنه» [أخرجه المصنِّف في «الشريعة» (١/ ٣٤٥)].

قال الإمام الآجري بعد أن ذكر هذا الأثر عن الحسن ﵀: «فلا ينبغي لمن رأىٰ اجتِهادَ خارِجِيٍّ قد خرجَ علىٰ إِمامٍ -عدلًا كان الإمامُ أو جائِرًا-، فخرجَ وجمعَ جماعَةً وسَلَّ سيفَهُ، واستَحَلَّ قِتالَ المُسلِمِينَ، فلا ينبغي له أن يغترَّ بِقراءَتِهِ لِلقُرآنِ، ولا بِطُولِ قِيامِهِ في الصَّلاةِ، ولا بِدوامِ صِيامِهِ، ولا بِحُسنِ أَلفاظِهِ فِي العِلمِ إِذا كان مذهبُهُ مذهبَ الخوارِجِ، وقد رُوِيَ عن رَسُولِ اللهِ ﷺ فيما قُلتُهُ أخبارٌ لا يدفَعُها كثيرٌ مِن علماءِ المُسلِمينَ، بل لَعَلَّهُ لا يختلِفُ في العلمِ بها جَمِيعُ أَئِمَّةِ المُسلِمينَ» [«الشريعة» (١/ ٣٤٥)].

وذلك لأنَّ طريقة الخوارج في إنكار المُنكر يترتَّبُ عليها منكرٌ أكبر منه، وقد يُنكِرُ المُنكَر بإراقة الدماء ولا يُبالي، فيأتي إلىٰ مكَان فيه مُنكَر فَيُفجِّره بالنساء والأطفال زاعمًا أنه يُريد إنكار المُنكر، ولهذا وصَفَهم النَّبيُّ ﷺ بأنَّهم: «**حُدثاءُ الأسنانِ، سُفَهاءُ الأحلامِ**» [أخرجه البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦)].

(١) أي: قَرأه أجناسٌ من الناس صغَار وكبار، لكن لا علم لهُم بتفسيره، فَلَم يأتوا هذا القُرآنَ من بَابه، ولم يَسلُكُوا في قراءته وحفظه نَهجَ الصَّحابة ﷺ الذين جمَعُوا بين العلم والعَمَل.

(٢) أي: لم يَبدَؤوا الأمر من بدَايته، ولم يَلزمُوا النَّهج المطلوب عندما يبدَأُ المَرءُ منهم بقِرَاءة القُرآن وحِفظِهِ، فَلم يدخُلوا الأمرَ من بَابه وهو ما كان عليه الصَّحَابة ﷺ؛ من العناية بالتدبر وتعقُّل القرآن، والاجتهاد في العمل به.

قال الله ﷻ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩]، وما تدبُّرُ آياته إلا اتِّباعُه[١]، والله يعلمُ[٢]، أما والله ما هو بحِفْظِ حروفِه وإضاعَةِ حدودِه، حتى إنَّ أحدَهم ليقولُ: قد قرأتُ القرآنَ كلَّه، فما أَسقطتُ منه حرفًا[٣]، وقد والله أسقطَهُ كلَّه، ما يُرىٰ له القرآن في خُلُقٍ ولا عَمَلٍ[٤]، ....

---

(١) وهَذا بيان لقوله: «**لم يَأتُوا الأمرَ من أَوَّله**» أي: لم يَسلُكوا في حفظهم القُرآنَ المَسلَك الذي كان عليه الصَّحابة ﷺ؛ بأن يَقرأ الآيَةَ ويُتقِنَ حِفظَها، ويَفهم المَعنىٰ الذي دَلَّت عليه، والحُكم الذي تَضَمَّنته ثم يُتبع ذلك بالعَمَل، فيكون من أهل القُرآن علمًا وعَملًا، ويَكُون من أهل تلاوة القُرآن حَقًّا، ولهذا أورَدَ ﷀ بعدَهُ مَعنىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة:١٢١].

والتِّلاوَة: هي العمل بالقُرآن، أما الحفظُ المُجَرَّد لحُروف القُرآن دُون إقامةٍ لحُدُوده فلا يُعَد تلاوةً للقُرآن، ولا يُعَد الحافظ بذلك من أهل القرآن؛ لأن القُرآن أُنزِلَ ليُعمَل به، فإذا كان حَظُّ المَرء منه مُجرد التلاوة لحُرُوف القرآن دون فَهم ولا عَمَل؛ فإنه لا يكونُ بذلك من أهل القُرآن، ولا يكونُ من التَّالين للقرآن؛ لأن التلاوة هي الاتِّباع.

(٢) أي: بأحوال النَّاس ومَقَاماتهم مع القُرآن الكريم، ومَن الذي يَتلُوه حقَّ تلاوته عِلمًا وعَمَلًا، ومَن تكون نِيَّتُه ومَسلَكُه بخِلافِ ذَلك، والله ﷻ مُطَّلِعٌ عليهم، وعليم بالجَميع لا تَخفىٰ عليه خافيةٌ.

فالحاصلُ: أنَّ المَرء إنَّما يكون من أهل القرآن إذا تدبَّره تدبُّرًا يُثْمِرُ العملَ به، ولزوم مَا جاء فيه، فيأتمر بالأوامر التي جاءت في كتاب الله ﷻ وينتهي عن نَواهِيهِ.

(٣) يقصدُ بذلك إقامَتَه المُتقَنة لحُروف القرآن، بحيث إنه لا يُخطئُ ولا يُلحَظ عليه خَطأٌ في قراءته، بمَعنىٰ أنه ضَابطٌ للتِّلاوة ومُتقِن لها.

(٤) بيَّن ﷀ ذلك بقَوله: «**مَا يُرىٰ له القُرآنُ في خُلُق ولا عَمَل**»: إذا نَظَرت إلىٰ الأخلاق المَأمُور بها في القُرآن لا تَراها عليه، وإذا رأيتَ الأوامرَ التي في القُرآن لا تَراه قائمًا بها، فلا =

حتى إنَّ أحدَهُم ليقولُ: إني لأقرأُ السُّورةَ في نَفَسٍ[١]**، والله ما هؤلاء بالقُرَّاء، ولا العُلَماء، ولا الحُكَماء، ولا الوَرَعة، متى كانت القرَّاءُ تقول مثل هذا**[٢]**؟! لا كثَّر اللهُ في النَّاس مِثلَ هؤلاء**[٣]**».**

حدَّثنا أبو محمد أيضًا: ثنا الحسين: أنا عبدُ الله بن المبارك: أنا عبدُ الملك بن أبي سليمان، عن عطاء وقيس بن سعد، عن مُجاهد في قول الله ﷻ: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة:١٢١]**، قال: «يعملُون به حقَّ عملِه**[٤]**».**

حدثنا أبو الفضل العباس بن يوسف الشَّكَلِي قال: ثنا العلاء بن سالم: ثنا شُعيب بن حرب: ثنا مالك بن مِغْوَل، عن المُسَيِّبِ بن رافع قال: قال عبد الله بن مسعود -رحمة الله عليه-: «ينبغي لحامِلِ القرآن أن يُعرفَ بليلِه إذ الناس نائمون[٥]**، ....**

= ترَىٰ عليه القرآنَ لا في خُلُق ولا عَمل، ليست أخلاقُه أخلاقَ أهل القرآن، ولا أعمالُهُ أعمالَ أهل القُرآن، فأي شَيء يَصنع بالحفظ الذي حَفِظَه إذا كان لا حَظَّ له من أخلاق القُرآن.

(١) وهذا من مفاخرته ومباهاته بإتقانه؛ أنه يقرأ السورة بنَفَسٍ واحد!!

(٢) أي: متىٰ كان القراء حَظهم ونَصيبهم التفَاخُر والتمَادُح والإطراءُ، ولا حظَّ لهم ولا نَصيب من العلم والعَمل.

(٣) لأن وجُودَهم في المجتمعات مَضَرَّة علىٰ غيرهم؛ فتجد بعض الجهال يرتكب المحرمات وإذا نُصِحَ قال: (فلان يحفظ القرآن ويفعل مثل فعلي)، ويُفرِّط في بعض الواجِبات ويحكي تأثُّرَه في ذلك ببعض هؤلاء، ولربَّما قال لنفسِه: (إن كان حال هؤلاء في التَّفريط والإضاعة -وهم ممَّن حَفِظَ كتابَ الله وضَبَطَه- فأنا في ذلك من باب أولىٰ).

(٤) فتلاوة القرآن هي العَمل به، ومَدلُول التلاوة اللغَوي يدُل علىٰ ذلك، كما تقدَّم (ص ٣٨)، فمَن لم يَعمَل بالقُرآن لا يُعَدُّ تاليًا له، وإن قرأه مرَّات عديدة، وحَفِظَه.

(٥) أي: أن يكونَ له حَظٌّ من قيام الليل، فلا يكونُ مثله مثل عامَّة الناس، وأعظم من ذلك أن بعض حفاظ القرآن يفرِّطون في المحافظة علىٰ صلاة الفجر وينامون عنها!! فمثلُ هذا لم يَظهَر عليه القرآنُ في عَملِهِ!

وبنهارِه إذ الناس مُفْطِرون(١)، وبورَعِه إذ الناس يَخْلِطون(٢)، وبتواضُعِه إذ الناس يَخْتالون، وبحُزْنه إذ الناس يفرحون، وببكائِه إذ الناس يضحكون(٣)، وبصَمْتِه إذ الناس يخُوضُون(٤)».

قال محمد بن الحسين: هذه الأخبارُ كلُّها تدلُّ على ما تقدَّم ذِكْرنا له مِنْ أنَّ أهلَ القرآن ينبغي أن تكونَ أخلاقُهم مباينةً لأخلاقِ مَن سِواهُم ممَّن لم يعلَم كعِلْمِهم، إذا نزلَتْ بهم الشَّدائِدُ لجؤوا إلى الله الكريمِ فيها(٥)، ولم يلجَؤُوا فيها إلى مخلوق، وكان اللهُ سبحانه أسبقَ إلى قلوبهم(٦)، ....

(١) فيكون له حَظٌّ من صيام التطوع، وأنواع القربات والطَّاعات.

(٢) إذا كان الناسُ يتعامَلُون في بُيُوعهم وشِرَائهم وتَعامُلاتهم بالخَلط، وعَدم الضَّبط، والمُجَانبة للوَرَع، فينبغي أن يتورَّع خوفًا من الله ﷻ، ولا يُدخِلَ على نفسِه مالًا حرامًا، وقد قال رَسُول الله ﷺ: «...فمَنِ اتَّقَى الشُّبُهاتِ فقدِ استَبرَأَ لِدِينهِ وعِرضِهِ، ومَن وَقَعَ في الشُّبُهاتِ وقَعَ في الحرامِ...» [أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)].

(٣) فإذا استغرق الناسُ في الغَفلة والضَّحِك واللَّهو؛ اشتغل بالبكاء من خَشيَةِ الله سبحانه وتعالى.

(٤) فإذا خاضَ الناس في أمرٍ لا يُحمَد؛ لزم الصَّمتَ، وجانبَ تلك المَجَالس، كما قال النبيُّ ﷺ: «مَن صَمَتَ نَجا». [أخرجه الترمذي (٢٥٠١) وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترغيب» (٢٨٧٤)]

فحَاملُ القرآن إن تكَلَّم تكَلَّم بِعلم، وإن صَمَت صَمَت بحِلمٍ، ولا يُشَارك الناسَ بالمَجَالس القَائمة على اللَّهو واللَّغو والبَاطل.

(٥) فهذا ممَّا يتميَّز به أهلُ القرآن عن غيرهم، وممَّا أفادُوه من هدايَات القرآن الكريم؛ أنهم إذا نَزَلت بهم الشِّدَّة فَزِعوا إلى الله ﷻ وحده، وبَثُّوا حُزنَهم وشكواهم إليه، وعلموا أن ما أخطَأهم لم يكن ليُصيبَهم، وما أصَابهم لم يكُن ليُخطِئَهم، كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ [التغابن:١١].

(٦) فإذا نَزَلت بهم الشدَّةُ فلا يكون فزعهم إلا إلى الله، واللجُوء إليه.

قد تأدَّبوا بأدَبِ القرآن والسُّنة، فهم أعلامٌ يُقتَدَىٰ بفعالِهم[(١)]؛ لأنَّهم خاصَّةُ الله، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢]».

حدَّثنا أبو الفَضْل جعفرُ بن محمَّد الصَّنْدليُّ: ثنا الفَضْل بن زياد: ثنا عبد الصمد بن يزيد قال: سمعت الفُضَيل بن عياض يقول: «ينبغي لحاملِ القرآن ألا تكونَ له حاجةٌ إلىٰ أحدٍ من الخَلْقِ، إلىٰ الخَليفة فمَنْ دون[(٢)]، وينبغي أن تكونَ حوائجُ الخَلْقِ إليه[(٣)]».

قال: وسَمِعْتُ الفُضيل يقول: «حامِلُ القرآن حامِلُ رايةِ الإسلام[(٤)]، لا ينبغي له أن يَلْغُوَ مع مَن يلغُو، ولا يَسْهُوَ مع من يسهو، ولا يَلْهُوَ مع من يلهو[(٥)].

قال: وسمِعْتُ الفُضيل يقول: «إنَّما نزلَ القرآنُ ليُعْمَلَ به[(٦)]، ....

---

(١) أي: أن أفعَالَهم أفعالٌ قائمَة علىٰ الكتَاب والسُّنة؛ فكَانوا بذلك أئمَّة خَيرٍ، ودُعاة هُدىٰ، وقُدوة للأنام.

(٢) أي: لا تكونُ حاجَتُه إلا إلىٰ الله، ولا يفزَعُ في شيء من حاجَاته إلا إلىٰ الله؛ لأن الخلقَ كُلَّهم يَستوون في الفَقرِ سواء كان الحاكم أو مَن دونَهُ من الرعية، كُلُّهم فقراء إلىٰ الله، كما قال الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

(٣) أي: إلىٰ حَامل القُرآن، يأتونه يَستفتُونه، ويسترشدُونه، ويتعَلَّمُون منه، فيُبَين لهم الهِدَايات التي في كتابِ الله ﷻ، ويُعَلِّمهم التَّوجيهات والهدايات بمَّا آتاه الله تبارك وتعالىٰ من بَصيرةٍ وعِلمٍ.

(٤) لأن الإسلام هو القُرآن، فمن حمَل القرآنَ وعمل بهداياته فهو يَحملُ رايةَ الإسلام.

(٥) إذَن ماذا يَصنعُ بالقرآن الذي في صَدرِه إذا كانت حاله كحَال أهل اللَّهو والسَّهو والغَفلَةِ؟!

(٦) لم يُنزَل القرآنُ لمُجرَّد أن تُحفظ حروفُه مع تَعطيل حُدودِه وأحكَامِهِ، فَإذا عَمل المَرءُ بالقُرآن كانَ من أهلِ القُرآن، وإن لم يَحفَظه كُله عن ظَهر قَلبٍ.

=

فاتَّخَذَ الناسُ قراءَتَه عَمَلًا[(١)]؛ أي: ليُحِلُّوا حلالَه، ويُحرِّمُوا حرامَه، ويَقِفُوا عند متشابهه[(٢)]».

حدَّثنا جعفرُ بن محمد الصَّندليُّ قال: سمِعْتُ أبا الحسن محمد بن محمد بن أبي الوَرْد يقول: كَتَبَ حذيفةُ المَرْعَشِي إلى يوسف بن أَسْباط: «بلغني أنك بِعْتَ دِينَك بحَبَّتَين؛ وقَفْتَ على صاحِبِ لبنٍ، فقلتَ: بِكَم هذا؟ فقال: هو لك بسُدُس، فقلتَ: لا بثُمُن[(٣)]، فقال: هو لك، وكان يَعْرِفُكَ[(٤)]، اكشِفْ عن رأسِكَ قِناعَ الغافِلين[(٥)]، وانْتَبِه من رَقْدَةِ المَوتِ، واعْلَم أنه مَنْ قرأ القرآنَ ثم آثَرَ الدنيا لم آمَن أن يكونَ بآيات الله من المُسْتَهزئين[(٦)]».

= ومن حَفظ القُرآن كُله عن ظهر قَلب ولم يَعمل به لم يكن بِهَذا الحفظ لحُروف القُرآن من أهل القُرآن، وأما مَن أكرَمَه الله بحفظِ حُروف القرآن حِفظًا مُتقنًا مع الفَهمِ والعَمل فهذا مع السَّفَرة الكِرَام البَرَرة.

(١) أي: أصبحَ حَظُّ كثير من الناس مُجرَّد قراءة حُروف القُرآن، لا الفَهم له، ولا العَملَ به.

(٢) هذا معنى قوله في بداية الأثر: «**لِيُعْمَلَ به**»، ويقول الحسنُ البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَذَا القُرآنِ مَن رُئِيَ فِي عَمَلِهِ» [أخرجه البيهقي في «شُعَب الإيمان» (٢٤٠٨)].

(٣) يعني: أنه أراد خَفضَ السِّعر من السُّدس إلى الثُّمن.

(٤) أي: من أجل مَعرفَته بدِيَانتك وعِلمِكَ ومَكَانتك خَفَّض لك، فعدَّ هذا استقضاءً للحَوَائج بالقرآن، وكان السَّلف يُحذِّرون من ذلك ويتوقَّونَه، فلا يستقضُون حوائِجَهم بالقرآن وبما آتاهُم الله من علم وفَهم، وعبَادة ودِيَانة؛ لأنَّ هذه العبَادات لا يُريدون بها إلا ثوابَ الآخرة، وما عندَ الله جَلَّ وَعَلَا.

(٥) معناه: انتبه! حتى لا تقع فيما يَقع فيه الغَافلون، ولا تستَقْضِ حوائِجَك بالقرآن.

(٦) وكلامه متَّجِهٌ لكل من اعتنى بالقرآن ليَجعلَه بضاعَة له يستعمله في قضاء أموره الدُّنيوية، فَكُلما عَرَضَت له حاجة تذرَّع بحفظه للقرآن وعلمه به.

أخبرنا أبو محمد عبد الله بن صالح البُخاري: ثنا مَخْلَد بن الحسن بن أبي زميل: ثنا أبو المَلِيح قال: «كان مَيمونُ بن مِهران يقول: لو صَلَحَ أهلُ القرآن صَلَحَ الناسُ(١)».

أخبرنا أبو محمد عبد الله بن صالح البُخاري: ثنا عبدة بن عبد الرحيم المَرْوَزي: أنا عبد الله بن يزيد المُقْرِئ: أنا حَيوَةُ - ابن شُرَيح - حدثني بَشِير بن أبي عمرو الخَولاني: أنَّ الوليدَ ابن قيس حدَّثَه: أنه سَمِعَ أبا سعيد الخدري يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يكونُ خَلَفٌ بعدَ سنين(٢) أضاعوا الصلاةَ، واتَّبعوا الشهواتِ فسوفَ يلقَوْنَ غيًّا(٣)، ثم يكونُ خَلَفٌ يقرؤُونَ القرآنَ لا يعدُو تراقِيهم(٤)، ويَقرأُ القرآنَ ثلاثةٌ: مؤمنٌ، ومنافقٌ، وفاجِرٌ(٥)».

---

(١) لأن أهلَ القرآن قُدوَة للناس، فإذا صَلَح أهلُ القرآن اقتَدَىٰ الناسُ بهم في الخَير وائتمُّوا بهم، لكن المُصيبَة إذا فَسد أهلُ القرآن؛ كم سيكون لهم من جنايةٍ علىٰ الناسِ والمُجتَمع الذي يعيشُون فيه؟! فصَلاحُ أهل القُرآن صلاحٌ للناس، وفسَاد أهل القرآن فسَادٌ للنَّاس.

(٢) أي: يخلفُون السلفَ الصَّالح بِالشَّرِّ، وبسُوء العمل؛ من إضاعَة للصَّلاة واتبَاعٍ للشَّهوات، وغير ذلك من الآثام.

(٣) الغيُّ: هو وادٍ في جَهَنَّم، وقيل: هو العُقوبَة العظيمة الغليظة الشَّديدَة.

وشاهِدُ ما تقدَّم من القرآن قوله تعالىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩].

(٤) جمع (ترقُوَة)، وهي: العَظْم المشرف بين العَاتق وثغرَة النَّحر، وعند كل إنسَان: ترقُوتَان.

ومعنىٰ قوله: «**لا يُجَاوز تَراقِيَهم**» أي: أن حَظَّهم من القرآن من الترقُوَة وما فَوق، وأما القلبُ الذي هو محلُّ العقل والانتفاع فلا يصل إليه القرآن عندهم.

(٥) هذا الشَّاهِدُ من الحديث: وهو أنَّه يقرأُ القرآن من ليس من أهل القرآن، فيقرؤه المنافق والفاجر، وربَّما حفظَه أحدُهم كاملًا.

=

فقال بَشِير: فقلتُ للوليد: ما هؤلاء الثلاثة[١]؟ فقال: المنافِقُ كافِرٌ به[٢]، والفاجِرُ يتأكَّلُ به[٣]، والمؤمنُ مؤمنٌ به[٤]» [أخرجه الإمام أحمد (١١٣٤٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٠٣٤)].

حدَّثنا أبو بكر بن أبي داود: ثنا إسحاق بن إبراهيم بن زيد: ثنا سعدُ بن الصَّلت: ثنا الأعمشُ، عن خَيثمةَ، عن الحسن قال: مَرَرْتُ أنا وعِمرانُ بن حُصَين على رَجُلٍ يقرأُ سورةَ يوسُف، فقام عِمرانُ يستَمِعُ لقراءَتِه، فلمَّا فَرَغَ سأَلَ[٥]، فاسْتَرجَعَ[٦]، ....

= فعَن أَبِي مُوسَى الأَشعَرِيِّ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة، ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة، لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة، ليس لها ريح وطعمها مر**»

[أخرجه البخاري (٥٤٢٧)، ومسلم (٧٩٧)].

(١) أي: أي: بَيِّن لي، ووضِّح لي ما هم؟

(٢) أي: يقرَأُ القرآن للمُراءَاة، أو لأغراض دُنيويَّة فحَسب، وهو في حقيقة الأمر كافرٌ بالقرآن.

(٣) أي: يقرَأُ القُرآن ليتأكَّل به، فيجعَلُه بِضَاعَة له.

(٤) فهو من أهلِ القرآن حقًّا وصدقًا.

(٥) أي: فلمَّا انتهى من القراءة طلبَ من الناس أن يُعطُوه شَيئًا من المال؛ فكَانت قراءَتُه من أجل المال.

(٦) أي: قال: «**إنَّا لله وإنا إليه رَاجِعُون**»، وهي كلمة تُقَال عند المُصيبة، وهذا الذي رآه لاشكَّ أنه مُصيبَةٌ عظيمَة؛ وهو رؤية رجلٍ يقرأ القرآن -ولعلَّ صَوتَه حَسَنٌ؛ لاجتماع النَّاس عنده، واستِماعهم لقراءته-، ثُم إذا فرغ قال: (أعطوني مالًا)!

وقال: انطَلِق(١)**، فإنِّي سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ قرأ القرآنَ، فليسأَلِ اللهَ ﷻ به**(٢)**، فإنه سيأتي قومٌ يقرؤُون القرآنَ، يسألونَ الناسَ به**(٣)» [أخرجه الترمذي (٢٩١٧)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٥٧)]

وحدثنا أبو بكر بن عبد الحَميد الواسطيُّ: ثنا يعقوب بن إبراهيم الدَّورقيُّ: ثنا يزيد بن هارون: أنا شريك بن عبد الله، عن منصور، عن خيثمة، عن الحسن قال: كنت أمشي مع عِمرانَ بن حُصَين، أَحَدُنا آخِذٌ بيَدِ صاحبِه، فمَرَرْنا بسائلٍ يقرأُ القرآنَ، فاحْتَبَسَ عِمران يستَمِعُ القرآنَ، فلمَّا فرغَ سَأَل، قال عِمران: انطَلِق بنا، فإني سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «اقرؤوا القرآنَ، واسألوا اللهَ ﷻ به، فإنَّ بعدَكم قومًا يقرؤُون القرآنَ، يسألون الناسَ به».

---

(١) أي: انطَلِق بنا نَمشِ من هذا المكان فلن نَقفَ عند مثل هَذا الرجُل.

(٢) وذلك أنَّ قراءة القُرآن والتقرُّب إلىٰ الله بفَهمِهِ والعَمَل به يعتبر من أعظَم الوسَائل المُقرِّبة إلىٰ الله ﷻ، وكان من جملة دعاء النبيِّ ﷺ: «**...أَسألُكَ بِكُلِّ اسمٍ هُوَ لك سَمَّيتَ بِهِ نفسكَ، أو عَلَّمتهُ أَحَدًا مِن خَلقِكَ، أو أنزَلتَهُ في كِتابِكَ، أو استأثرتَ بِهِ في عِلمِ الغَيبِ عِندكَ، أن تجعَلَ القُرآنَ ربِيعَ قَلبِي، وَنُورَ صَدرِي، وجِلاءَ حُزنِي، وذهابَ هَمِّي...**» [أخرجه أحمد (٣٧٠٤)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩٩)].

(٣) يعني: يَقرؤونَه لمُجرَّد سؤالِ الناسِ بالقُرآن، وبعضُ الناسِ اتَّخَذ هذا العَمَل حِرفَة، فتكون مِهنَته التأكُّل بالقرآن، فمن القُرَّاء من يجلسُ علىٰ أبوابِ المسَاجد أو أبوَاب المقَابر، ثم يرفع صوته بالقرآن ليعطيه الناس مالًا مقابل قراءته.

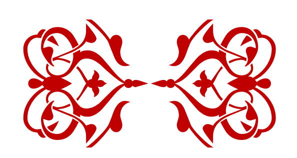
ومنهم الذينَ يقرؤون في المَآتِم والمَحافل، فيُدعَون ويُسَاومون في المبلغ المالي قبل القِراءة.

وهذا كُله شاهدٌ ومِصداقٌ لقَول نَبينا ﷺ: «**سيأتي قَومٌ يَقرَؤون القُرآنَ يَسألُون بِهِ الناسَ**».

وهذا من آياتِ النُّبُوة وعلاماتِها، حيث يُخبر النبي ﷺ عن أُمور أنهَا ستَقع في المُستَقبل فيَرىٰ الناسُ أنها وَقَعت طبقًا لمَا أخبر ﷺ.

حدَّثنا أبو عبد الله محمد بن أحمد السَّوانِيطي: ثنا مِقْدامُ بن داود المِصري: ثنا أَسَدُ بن موسى: ثنا عبد الله بن وهب، عن الماضي بن محمد، عن أبان، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤتَى بحملة القرآنِ يوم القيامة، فيقول الله ﷻ: أنتم وُعاةُ كلامي[١]، آخُذُكُم بما آخُذُ به الأنبياءَ، إلا الوحي[٢]».

قال محمد بن الحُسَين: في هذا بلاغٌ لمَن تدبَّره[٣]، فاتَّقى اللهَ ﷻ[٤]، وأَجَلَّ القرآنَ وصانَه[٥]، وباعَ ما يفنى بما يبقى[٦]، واللهُ ﷻ الموفِّق لذلك.



---

(١) وهذا الوَعيُ يشملُ حفظَ كلام الله، وفهمه، وعقل دلالاته، والعمل به، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩].

(٢) فيه أن العُلماء ورثةُ الأنبياء، كما قال النبيُّ ﷺ: «**فإنَّ الأنبياءَ لم يُوَرِّثُوا دينارًا ولا دِرهمًا، وإنَّما وَرَّثُوا العِلمَ، فمن أخذَهُ أخذَ بِحَظٍّ وافِرٍ**».[أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، وحسَّنه الألباني]

(٣) أي: فيه غُنيَة وكفايةٌ، وفيه ما يُحقِّق المَقصُود لمن تدبَّره.

(٤) وذلك بلُزوم الأخلاق الفاضِلَة الكَريمَة وبتَوَقِّي الأخلاق المَذمُومة والأوصَاف السَّيئة التي ساق جملةً منها على وَجه التَّحذير.

(٥) أي: عن تلكَ الأوصَافِ الذَّميمَة المتقدِّمة.

(٦) أي: الدُّنيا الفانية بجميع مُتَعها، واشترىٰ بها الآخرة الباقية وما فيها من نعيم كبير.

باب: أخلاقِ المُقْرِئِ إذا جَلَسَ يقرئُ ويُلَقِّنُ لله عَزَّوَجَلَّ ماذا ينبغي له أن يتخَلَّقَ؟(١)

قال محمد بن الحُسَين: ينبغي لمَن علَّمَه اللهُ تعالىٰ كتابَه، فأحَبَّ أن يجلِسَ في المسجِدِ يُقرئُ القرآنَ لله تعالىٰ، يَغتنِمُ قولَ النبي ﷺ: «خيرُكُم مَن تعلَّمَ القرآنَ وعلَّمَه»(٢)، فينبغي له أن يستعملَ من الأخلاقِ الشريفةِ ما يدلُّ علىٰ فضلِه وصدقِه(٣)؛ ....

---

(١) عقد المصنِّف هذا الباب لبيَان الأخلاقِ التي يَنبغي أن يتحَلَّىٰ بها المُقرئ مع من يُقرِئُهم من الطَّلبة، وفي بيان الآداب التي ينبغي أن يتحَلَّىٰ بها في مَجلس الإقراءِ.

حيثُ إن الأدبَ والخُلقَ عنوانُ الفَلاح، وأَمارة علىٰ الخير، وبابٌ للمَزيد من الفضَائل، فإن الخُلق جمالٌ لصَاحبه، وعون له علىٰ كل فَضِيلة، وعلىٰ تَحقيق كلِّ مَأرب صَالح.

وقد قال الله تعالىٰ لنبيِّه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

والأخلاقُ هي التي تُيَسِّر الدعوةَ، وتُساهم في انتشَار الخير، وتُحقِّق المقاصدَ الفاضلة، والغَايات الكَريمَة، وإذا فُقِدَت الأخلاقُ فُقِدَت الفضَائلُ وفُقِدَت الخَيرات، فالأخلاقُ عنوانُ فلاح المَرء وسعَادته في دُنياه وأُخراه.

(٢) وهذه الفضيلةُ العظيمة التي ذَكَرها النبي ﷺ في هذا الحَديث: «**خيرُكُم من تعلَّم القرآن وعلَّمه**» حَرَّكت خَلقًا في قديم الزَّمان وحَديثه للعنَاية بالقُرآن تَعلُّمًا وتَعليمًا.

فهذا أبو عبد الرحمن السُّلَمي رَحِمَهُ اللَّهُ -وهو راوي هذا الحديث عن عثمان بن عفان- يقول: «**فذَلكَ الذِي أقعَدَني مَقعَدي هذا**»؛ وجلس في المَسجِد لإقراء القرآن مدة تَزيدُ علىٰ أربعينَ سَنةً من عُمرِهِ .

(٣) في هذا تَنبيهٌ من المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ أن مُلازمة المُقرئ للآداب والأخلاق هو من عَلامَات الفَضل والصِّدق.

وهو أن يتواضعَ في نفسِه إذا جلسَ في مجلِسِه، ولا يتعاظمَ في نفسِه[١].

وأحِبُّ له أن يستقبِلَ القِبلَةَ في مجلسِه؛ لقولِ النبيِّ ﷺ: «أفضلُ المجالِسِ ما استُقْبِلَ به القِبلةُ[٢]**»**. [أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠/ ٣٢٠)، برقم (١٠٧٨١) وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٢٧٨٦)]

ويتواضعُ لمَن يُلقِّنُهُ القرآنَ[٣]**، ويُقبِلُ عليه إقبالًا جميلًا**[٤]**، وينبغي له أن يستعملَ مع كلِّ إنسان يُلَقِّنُهُ ما يصلُحُ لمثلِه؛ إذا كان يتلقَّنُ عليه الصغيرُ، والكبيرُ، والحَدَثُ، والغنيُّ، والفقيرُ فينبغي له أنْ يُوفِّيَ كلَّ ذي حَقٍّ حقَّه**[٥]**، ويعتقِدَ الإنصافَ إن كان يريدُ اللهَ ﷻ بتلقينِه القرآنَ**[٦]**؛**

---

(١) وإنما يَجلسُ جلسة المُتواضع لله ﷻ، يَطلُب بجلسته ما عند الله من عَظيم الثَّواب وجَميل المَآب.

(٢) لا شكَّ أن جهة القِبلَةِ هي أشرفُ الجهات وأكرمُها التي يُندَبُ أن يجلس لها في حال ذِكرِه لله وقراءته للقُرآن ودُعَائه ومُنَاجَاته للهِ ﷻ، لكن ذلك ليس بلازِمٍ علىٰ من يَقرأ القرآن، أو مَن يَذكُر الله، بل ذِكْرُ الله مشروعٌ حال القيام أو القعود أو كونه علىٰ جَنبٍ أو مُضطجِعًا علىٰ فراشِه، كُل ذلك جَائز.

(٣) أي: يُعَامل من يُلقِّنهم القرآن من كبَارٍ أو صغَارٍ بالتواضع لا بالكِبر والتَّعالي عليهم والتَّرفُّع، وإنما يُعامل الجميعَ بالتواضُع.

(٤) وهذا الإقبَال الجَميل له وَقعُه في النفُوس، ويكون: بالسَّلام، وطَلاقة الوَجه، وحُسن التَّرحيب، ونحو هذه الأخلاق التي تُؤنِسُ الطالب، وتَزيده رغبَةً وحرصًا علىٰ مواصَلة التَّلقِّي والقراءة.

(٥) أي: يستعمل من الأخلاقِ والتعَامُلات مع كل إنسَان ما يَصلُح لمثله، فيُعَامل كل واحد بمَا يَليق بمَقَامه وحَاله.

(٦) فيعامل الجميع بعدل.

فلا ينبغي له أن يرفُقَ بالغنيِّ، ويَخْرق على الفقير[(١)]، فإن فعلَ هذا، فقد جارَ في فعلِه، فحكمُه أن يعدِلَ بينهما[(٢)].

ثم ينبغي له أن يحذرَ على نفسِه التواضعَ للغنيِّ، والتكبُّرَ على الفقير[(٣)]، بل يكون متواضِعًا للفقِير، مُقَرِّبًا لمجلِسِه، مُتَعَطِّفًا عليه، يتحبَّبُ إلى الله ﷻ بذلك[(٤)].

حدثنا أبو بكر بن أبي داود: ثنا إسحاق بن الجَرَّاح الأذني ومحمد بن عبد الملك الدَّقيقي قالا: ثنا جعفر بن عون: أنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس في قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ[(٥)]﴾ [لقمان:١٨] قال: يكون الغنيُّ والفقيرُ عندك في العلم سواء[(٦)].

---

(١) فهذا من علامات عدم الإخلاص؛ وذلك بأن يُعامل الفقير معاملةً غليظةً قاسية، وإذا جاءَه الغَني عَامَله مُعاملة ليِّنة رفيقَة؛ فليس هذا من الإنصَاف الذي يجب أن يتحلَّىٰ به.

وقوله: «**يَخْرُق**»: من الخُرْقِ، وهو الجَهلُ، وهو ضِدُّ الرِّفق والسَّماحة.

فعن النبيِّ ﷺ قال: «**ما كانَ الرِّفقُ في شَيءٍ قَطُّ إلا زانَهُ، ولا كانَ الخُرقُ في شيءٍ قَطُّ إلا شانَهُ، وإنَّ اللهَ رَفيقٌ يُحِبُّ الرِّفقَ**» [أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٤٦٦)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٣٦٣)].

(٢) والجَوْر هو: الظُّلم، فالواجب عليه أن يَعدِل بينَ الغني والفَقير.

(٣) وهذا أيضًا من جنس الجَور السابق؛ فينبغي أن يتواضع في تعامله مع الجَميع.

(٤) أي: يطلب بهَذا العَمل التقرُّب إلى الله، ونَيل مَرضَاته -جَلَّ في عُلاه-.

(٥) **المرادُ بتصعيرِ الخَدِّ الذي جَاء النَّهي عنه**: هو إمَالة الوَجه على صفة التكبُّر والتعالي، وأصلُ الكَلمة من: الصَّعر، وهو داءٌ يُصيب الإبلَ في أعناقها، فيَميل العُنق، وقد نهى الله ﷻ عن ذلك، وذمَّ فاعِله، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾.

(٦) فلا يُفرِّق بينهما، أمَّا إذا عامل الغنيَّ معامَلَةً هيِّنةً ليِّنةً حَسَنةً، وعامل الفقير المُعَاملة الغَليظة الشَّديدة، فإن هذا من الظُّلم والجور -كما تقدَّم-.

حدَّثنا ابن أبي داود: ثنا بِشر بن خالد العَسْكري: ثنا شَبابة -يعني: ابن سوَّار-، عن أبي جعفر الرَّازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ قال: يكون الغنيُّ والفقيرُ عندك في العلم سواء.

قال محمد بن الحسين: ويتأوَّلُ فيه[1] ما أدَّبَ اللهُ ﷻ به نبيَّه ﷺ، حيثُ أمرَه أن يُقرِّبَ الفقراءَ، ولا تَعْدُ عيناه عنهم، إذ كان قومٌ أرادوا الدنيا، فأحبُّوا من النبيِّ ﷺ أن يُدْنيَ منهم مجلسَهم، وأن يرفعَهم على من سِواهم من الفقراءِ، فأجابهم النبيُّ ﷺ إلى ما سألوا، لا لأنَّه أرادَ الدنيا، ولكنَّه يتألَّفُهم على الإسلام، فأرشَدَ اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ على أشرفِ الأخلاق عنده، فأمرَه أن يُقرِّبَ الفقراءَ، ويَنبسِطَ إليهم، ويَصبِرَ عليهم، وأن يُباعِدَ الأغنياءَ الذين يميلون إلى الدنيا، ففَعَلَ ﷺ[2].

وهذا أصلٌ يحتاجُ إليه جميعُ من جَلَسَ يعلِّمُ القرآنَ والعلمَ، يتأدَّبُ به، ويُلْزِمُ نفسَه ذلك، إن كان يريدُ اللهَ تعالى بذلك.

فأنا أذكرُ ما فيه؛ ليكونَ الناظِرُ في كتابنا فقيهًا بما يتقرَّبُ به إلى الله ﷻ، يُقْرِئُ لله ﷻ، ويَقتضِي ثوابَه من الله -جلَّتْ عظمتُه-، لا مِنَ المخلوقين.

---

(١) أي: ليتدبَّر الشيخُ المقرئُ هذه الآية ويسعى في تحقيقها، والتَّحلي بما دلَّت عليه من أدب.

(٢) وهذه الحادثة كانت في أوَّلِ الإسلام، فقد كان حولَ النَّبي ﷺ عددٌ من الصَّحابة الكرام، من العَبيد والفُقراء، وكانوا من المُلازِمين له أشدَّ الملازمَة، فجاء بعض عِليَة الناس إلى النبي ﷺ، وعَرَضُوا عليه أن يَجعلَ لهم مَجلسًا خَاصًّا بهم؛ مراعاة لقدرهم ومكانتهم، لا يحضُرُهُ هؤلاء العَبيد والفُقَراء، فأراد النبيُّ ﷺ أن يفعل ذلك؛ من أجلِ أن يتألَّف قلوبَ هؤلاء للإسلام.

فأنزَلَ الله ﷻ آيات ينهاه فيها عن ذلك: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وساق المصنِّف القصة كاملة بإسناده.

حدثنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز: ثنا أحمد بن محمد بن يحيىٰ بن سعيد القطان: ثنا عمرو بن محمد العَنْقَزي: ثنا أَسْباط، عن السُّدِّي، عن أبي سعيد الأزدي -وكان قارئ الأزد-، عن أبي الكنود، عن خبَّاب بن الأرت في قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ قال: جاء الأقرعُ بن حابس التَّميمي وعُيَينةُ بن حِصن الفزاري، فوجدوا رسولَ الله ﷺ مع صُهَيبٍ وبلال وعمَّار وخبَّاب في أُناسٍ من الضُّعفاء من المؤمنين، فقالا: إنا نريد أن تجعلَ لنا منك مجلِسًا تعرِفُ لنا به العَرَبُ، نأتيك فنَسْتَحِي أن ترانا العربُ مع هذه الأَعْبُد، فإذا نحن جئناك فنَحِّهم عنَّا، أو كما قالا، فإذا نحنُ فرغنا فاقْعُد معهم إن شِئْتَ، فقال: نعم، فقالا: فاكتُبْ لنا عليك كتابًا.

قال: فدعا بالصحيفة، ودعا عليًّا رضي الله عنه ليكتب، ونحن قعود في ناحية، فنزل جبريل عليه السلام، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٢].

ثم ذكر الأقرعَ وعيينةَ، فقال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣]، ثم قال ﷻ: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ﴾ [الأنعام:٥٤].

قال: فدنونا منه حتىٰ وَضَعْنا رُكَبَنا علىٰ ركبتِه، وكان رسولُ الله ﷺ يجلِسُ معنا، فإذا أرادَ أن يقومَ قام، وتركنا؛ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [الكهف:٢٨]. يقول: لا تَعْدُ عيناك عنهم وتُجالِسِ الأشراف ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾؛ يعني: عُيَينة والأقرع، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾، ثم ضَرَبَ لهم مثلًا رجلين ومثل الحياة الدنيا، قال: فكنا نقعُدُ مع رسول الله ﷺ، فإذا بلغنا الساعةَ التي يقومُ قُمْنا وتركناه حتىٰ يقومَ(١).

(١) أخرج هذه القصة أيضًا ابنُ ماجه [في «سننه» (٤١٢٧)]، وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «هذا حديثٌ غَريبٌ، فإِنَّ هذه الآيةَ مَكِّيَّةٌ، والأقرعُ بنُ حابِسٍ وعُيَينَةُ إِنَّما أسلما بعد الهِجرَةِ بدَهرٍ». [«تفسيره» (٣/ ٢٦٠)] =

قال محمد بن الحسين رَحِمَهُ اللَّهُ: أحقُّ الناسِ باستعمال هذا بعدَ رسول الله ﷺ أهلُ القرآن، إذا جلسُوا لتعليم القرآن يريدون به اللهَ عَزَّ وَجَلَّ[(١)].

حدَّثنا الفِريابي: ثنا يزيد بن خالد بن مَوْهب الرملي: ثنا عيسى بن يونس، عن هارون ابن أبي وكيع قال: سمعت زاذان أبا عمر يقول: دخلتُ على ابن مسعود فوجدت أصحابَ الخَزِّ واليَمَنِيَّة[(٢)] قد سبقوني إلى المجلس، فناديته: يا عبد الله؛ مِنْ أَجْلِ أني رَجُلٌ أعمى أَدنَيْتَ هؤلاء وأَقصيتَني، فقال: ادنُه، فدنوت، حتى ما كان بيني وبينَه جليس[(٣)]».

وأُحِبُّ له إذا جاء مَن يريدُ أن يقرأَ عليه؛ من صغيرٍ أو حَدَثٍ أو كبير؛ أن يعتبرَ كُلَّ واحِدٍ منهم قبل أن يُلَقِّنَه من سورة البقرة؛ يعتبرُهُ بأن يعرِفَ ما معه من الحَمْدِ[(٤)]، ....

= ويُغني عن هذه القصة ما ثبت في [«صَحيح مُسلِم» رقم:(٢٤١٣)] من حَديثِ سَعدِ بنِ أبي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ المُشرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اطرُد هَؤُلَاءِ لَا يَجتَرِئُونَ عَلَينَا، قَالَ: وَكُنتُ أَنَا وَابنُ مَسعُودٍ، وَرَجُلٌ مِن هُذَيل، وَبِلَالٌ، وَرَجُلَانِ لَستُ أُسَمِّيهِمَا، فَوَقَعَ فِي نَفسِ رَسُولِ الله ﷺ مَا شَاءَ اللهُ أَن يَقَع؛ فَحَدَّثَ نَفسَهُ؛ فأَنزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾».

(١) أي: يَنبَغِي أن يُعامِلُوا مَن يُقرِئُونهم كلامَ الله عَزَّ وَجَلَّ بهذا الخُلق، فيُعامِلون كُلَّ من يأتيهم مُعَاملةً واحدةً؛ الغني والفَقير، والصَّغير والكبير؛ لأنَّ مَن كان في مَقام الإقراء والتعليم لكتاب الله تعالى يَنبغي أن يكون مُتَحَلِّيًا بهَذا الخُلُق العظيم الذي دَلَّ عليه القرآن الكريم.

(٢) **قوله:** «**الخَزِّ وَاليَمَنِيَّةِ**»: هذان نوعانِ من الثِّياب الفَاخرة الثَّمينة.

(٣) فقَرَّبه إلى أكبَر حَدٍّ، حتى لم يكُن بينه وبين عبد الله بن مَسعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحد.

وفي هذا الأثر دليل على عَمَلِ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم بهذه المَعَاني المتقدِّمة، والتي نبَّه عليها المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ، وهذا يدلُّ أيضًا على خُلُق الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، واقتدائهم بهدي رسول الله ﷺ.

(٤) يعني: إذا جاءه من يريد أن يحفظَ عليه القرآن، فالأفضل -قبل أن يشرع معه في ختمةٍ كاملةٍ من سورة البقرة- أن يبدأ معه بضبطِ سورة الفاتحة وإتقانها.

إلى مقدار رُبُعِ سُبُعٍ، أو أكثر[(١)]، ممَّا يؤدي به صلاته، ويَصلُحُ أن يَؤُمَّ به في الصَّلوات إذا احتِيجَ إليه، فإن كان يحسِنُهُ، وكان تعلَّمَه في الكُتَّاب؛ أصلحَ مِنْ لسانِه وقوَّمَه، حتى يَصلُحَ أن يؤدِّيَ فرائِضَه، ثم يَبتدِئُ فيلقِّنُه من سورة البقرة.

وأُحِبُّ لمَن يلقِّنُ إذا قُرِئَ عليه أن يُحسِنَ الاستماعَ إلى مَن يَقرَأُ عليه، ولا يشتَغِلَ عنه بحديثٍ ولا غيرِه، فبالحَرِيِّ أن ينتفِعَ به مَن يقرَأُ عليه، وكذا ينتفِعُ هو أيضًا[(٢)].

ويتدبَّرُ ما يسمَعُ من غيرِه، وربَّما كان سماعُهُ للقرآن مِن غيرِه له فيه زيادةُ منفعَةٍ، وأجْرٍ عظيم، ويتأوَّلُ قولَ الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، فإذا لم يتحدَّثْ مع غيره، وأَنصتَ إليه أدركتْهُ الرَّحمةُ من الله سبحانه، وكان أنفعَ للقارئ عليه[(٣)].

وقد قال النبيُّ ﷺ لعبد الله بن مسعود: «اقرأ عليَّ» قال: قلتُ: يا رسول الله، أقرأُ عليكَ وعليكَ أُنزِلَ؟ قال: إنِّي أُحِبُّ أن أسمعَه مِن غيري[(٤)]».

---

(١) مقدار (رُبُعِ سُبُعٍ)؛ في حدود الجزء، فيختبره في جزءٍ أو نحوه من المُفَصَّل، كجزء (عَمَّ) كاملًا، ولو زادَ شيئًا من جزء (تبارك) أو ما يعادل ذلك من المفصل كان خيرًا، وهذا قبل أن يبدأ معه بعرض القرآن كله من البقرة، وذلك لأجل العِلة التي ذكرها المصنِّفُ رحمه الله، وهي: أن يؤدِّي صلاته على وجه الكمال في القِراءة، وكذلك ليحسن أن يؤمَّ النَّاسَ إن احتِيجَ إليه.

(٢) لأن بعض المقرئين قد يقرأ الطالب أمامَهُ وهو مشغول عنه، فلا يحصل منه الإنصات الكامل للآيات وتأملها وتدبرها، وإنَّما يقتصرُ على تصحيح القراءة للطالب إن أخطأ، دون أن يُحسِن الإنصات له.

(٣) بيَّن المؤلف رحمه الله أنَّ حُسنَ الإنصات من الشيخ لقراءة الطالب له فوائد عدَّة: من تأمُّل كلام الله ﷻ وتدبُّره، وزيادة في الأجر، وشمول رحمة الله في قوله ﷻ: ﴿وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، ومع ذلك يكون الاستماع أنفع للطالب وله وقعٌ وأثر عظيمٌ على نفسِهِ.

(٤) قيل: لأنَّ المُستَمِعَ أقوى على التدبُّر، ونفسُه أخلى وأنشَطُ من نفس القارئ؛ لأنه في شُغل بالقراءة وأحكامِها. [انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٩/ ٩٤)]

حدثنا الفريابي: ثنا محمد بن الحسن البلخي قال: أخبرنا عبد الله بن المبارك قال: أنا سفيان، عن سليمان -يعني: الأعمش-، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن ابن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليَّ، فقلتُ: أَقرأُ عليكَ وعليكَ أُنزِل!، قال: أُحِبُّ أن أسمعَه مِن غيري[(١)]، قال: فافتتحت سورة النساء، فلما بلغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١]. **قال: فرأيتُ عينيه تذرفان، فقال لي: حَسْبُك[(٢)]»**

[أخرجه البخاري (٤٥٨٢، ٥٠٥٠)، ومسلم (٨٠٠)].

قال محمد بن الحسين: وأُحِبُّ لمَن كان يُقرِئُ أَلا يدرُسَ عليه وَقتَ الدَّرسِ إلا واحِدٌ، ولا يكُونَ ثَانٍ مَعَهُ، فهو أَنفَعُ لِلجَميعِ[(٣)]، وأَمَّا التَّلقينُ: فلا بأسَ أَن يُلَقِّنَ الجماعَةَ[(٤)].

وينبَغي لمَن قُرِئَ عليه القُرآنُ، فأَخطأَ فيهِ القارِئُ، أو غَلِطَ، أَلا يُعَنِّفَهُ، وأن يَرفُقَ بِهِ، ولا يَجفُو عليهِ، ويصبِرَ عليه، فَإِنِّي لا آمَنُ أَن يَجفُو عليه فيَنفِرَ عَنهُ[(٥)]، ....

---

(١) فيه أنَّ التدبر مطلوب من العبد في حال تلاوته للقرآن، وأيضًا حال سماعه للتلاوة من غيره، كما دلَّ عليه هذا الحديث.

(٢) فكان النبيُّ ﷺ يُنصِتُ لقراءته، وكان لهذا الإنصات وَقْعٌ عليه، فكانت عيناه ﷺ تذرفان.

(٣) فبعضهم ربَّما استمعَ وقتَ الدَّرس إلىٰ اثنين معًا، أو ثلاثة، ويُصوِّبُ مَن أخطأ منهم، ويعدُّون هذا مهارة وفِطنة!!

(٤) ومقصوده بالتَّلقين أي أنَّه إذا كان أمَامَه مجمُوعَةٌ -ولاسيَّما الصِّغار-؛ فإنه يَقرَأُ مَرة، ثم يَقرَؤون جمَاعة معه، ثم يقرَأ ثانية، ويُكرِّر معهم حتىٰ يطمئنَّ إلىٰ أنَّهم ضَبطُوا الآياتِ مع إتقانِ الأداء والمَخَارج ونَحو ذلك.

(٥) يُنبِّه المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ أهميَّة البُعد عن العُنفِ والغِلظَة والشِّدة في التعاملِ مع الطَّالب؛ لأنَّ لها مَردودًا سيئًا علىٰ الطالب؛ فبسببها قد يُبغضُ الطالبُ الشيخ، وهذا البُغضُ إمَّا أن يؤدِّي إلىٰ حِرمان الطالب من الاستِفادة المرجوَّة من الدرس، أو يؤدي إلىٰ تركِ الطالب لدَرس القرآن، كما حَصَل لكثيرٍ من الطلبة الذين نفَروا وتركوا الدَّرس بسبب الشِّدة.

وَبِالحَرِيِّ أَلا يعُودَ إلىٰ المَسجِدِ[(١)]، وقد رُوِي عن النَّبيِّ ﷺ أَنهُ قال: «عَلِّمُوا[(٢)] ولا تُعَنِّفُوا[(٣)]، فإِنَّ المُعَلِّمَ خَيرٌ مِن المُعَنِّفِ»[(٤)].

وقال ﷺ: «إِنَّما بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، ولَم تُبعَثُوا مُعَسِّرِينَ»[(٥)] [أخرجه البخاري (٢٢٠)]

حدَّثنا حامِدُ بنُ شُعَيبٍ البلخِيُّ قال: ثنا بِشرُ بنُ الوليدِ، (ح) وثنا عُمَرُ بنُ أَيوبَ السَّقَطِيُّ: ثنا الحَسَنُ بنُ عَرَفَةَ قالا: ثنا إِسماعِيلُ بنُ عَيَّاش، عن حُمَيدِ بنِ أَبِي سُوَيدٍ، عن عَطاءِ بنِ أَبِي رباحٍ، عن أَبِي هُرَيرَةَ: أَن رسولَ اللهِ ﷺ قال: «عَلِّمُوا ولا تُعَنِّفُوا، فَإِنَّ المُعَلِّمَ خَيرٌ مِن المُعَنِّفِ». [أخرجه الطَّيالسي في «مسنده» (٢٦٥٩)، وقال الألباني في «الضعيفة» (٢٦٣٥): منكر]

قال: حدَّثنا أبو القاسِمِ عَبدُ اللهِ بنُ محمد بن عبدِ العزِيزِ: ثنا عليُّ بنُ الجَعدِ: أنا شُعبَةُ، عن أَبِي التَّيَاحِ قال: سَمِعتُ أَنَسَ بنَ مالِكٍ يُحَدِّثُ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا، وسَكِّنُوا ولا تُنَفِّرُوا». [أخرجه البخاري (٦١٢٥)، ومسلم (١٧٣٤)]

---

(١) وقد يبقىٰ في المَسجد مضطرًّا بسبب ضغط والديهِ عليه، لكنَّه لا يَكُون مُحِبًّا لِمَن يَحفظ عليه، فيكونُ ذلك سَببًا لكراهة ما يحفظ، ولهَذَا عندما تحصُلُ له فرصة للانفلاتِ من الحفظ فإنه يَترك هذا الدرس بالكُلِّيَّة؛ لأن نَفسَهُ نَافرةٌ منه.

والشِّدة والغِلظة خُلُقٌ حذَّر منه النبيُّ الكريم ﷺ؛ كما سيبين المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ، فإن الرفق ما دخَل في شَيء إلا زَانَه، وما نُزع من شَيء إلا شَانه.

(٢) أي: بالرِّفق واللِّين والتَّودُّد والتلَطُّف مع الطَّلبة والتَّحبُّب إليهم.

(٣) أي: لا تَستعملوا أُسلوب العُنف والجَفوة والغِلظَة والقَسوة.

(٤) **وهذا الحَديث: ضعيف الإسناد**، ولذلك صدَّره المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ بصيغة التمريض: «روي»؛ وعلَّته: حُمَيد بن أبي سُوَيد، مَجهولُ الحديث.

لكن معناه حَقٌّ وصَحيح؛ فالمُعلم بالرِّفق واللِّين خيرٌ من المُعنِّف، ولهذا شواهِدُه ودَلائله في المَرويِّ عن النبيِّ ﷺ من أحَادِيثَ.

(٥) وفي هذا الحديث: أمر بالتَّيسير، وتحذير من التَّعسير والتَّنفير.

أخبرنا أبو عَبدِ اللهِ أَحمَدُ بنُ الحَسَنِ بنِ عَبدِ الجَبَّارِ الصُّوفيُّ قال: ثنا مُحَمَّدُ بنُ بكَّار: ثنا عَنبَسَةُ بنُ عَبدِ الواحدِ عَن عَمرِو بنِ عامِرٍ البَجَلِيِّ قال: قال عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: «تَعَلَّمُوا العِلمَ، وتعلَّمُوا للعلمِ السَّكينَةَ وَالحِلمَ[(١)]، وتواضعوا لِمَن تُعَلِّمُونَ، وليتواضع لكم مَن تُعَلِّمُونَ، ولا تكونوا جبابرةَ العُلماءِ، فلا يقومُ علمُكُم بِجَهلكُم[(٢)]».

قال محمَّدُ بنُ الحُسينِ رَحِمَهُ اللهُ: فمَن كانت هذه أَخلاقَهُ انتفعَ به مَن يَقرأُ عليهِ -ثُمَّ أَقولُ:- إِنَّهُ ينبغِي لِمَن كان يُقرِئُ القُرآنَ للهِ -جلت عظمته- أَن يصونَ نفسَهُ عَن استِقضاءِ الحوائِجِ مِمَّن يقرأُ عليه القُرآنَ، وألا يستخدِمَهُ، ولا يُكَلِّفَهُ حاجةً يقُومُ بِها[(٣)]، ....

---

(١) أي: ليَكُن تعلُّمُكُم للسَّكينةِ والحِلم مُصَاحبًا لتعلُّمكم للعلم، وتعلُّم العِلم يحتاج إلىٰ السَّكينة والحِلم اللذين هما زينة العِلم، والمُعين علىٰ حسن تحصيله.

ثمَّ في هذا تَنبيهٌ علىٰ أن الأخلاقَ تحتاج من المسلم إلىٰ مِرَان وتَدريبٍ للنَّفس، فيُمَرِّن نَفسَه علىٰ الأخلاق الفَاضِلة، ويُمَرِّن نفسه علىٰ السَّكينة والأدَب والأناة والرِّفق، فإن الطالب الذي يُجانِبُ الرِّفق في مَجالس العلم، يلجأ إلىٰ العنف والشدة مع زُملائه، ثمَّ هَذه الطِّباع ستظهر عليه إذا صار مُعلِّمًا؛ لأن كلًّا يُنفقُ ممَّا عنده.

ولهذا يَنبغي علىٰ الطالب أن يُروِّض نَفسَه علىٰ الأخلاق الفَاضلة، وعلىٰ السَّكينة والوَقار والحِلم والصَّبر، وحُسن التعامُل مع الزملاء، والدَّفع بالتي هي أحسن؛ لتظلَّ هذه الصِّفات الرَّفيعة من شأنه ومن طبعه دائمًا.

ولهذا قال النَّبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّما العِلمُ بِالتَّعَلُّم، وإِنَّما الحِلمُ بِالتَّحَلُّمِ، مَن يتحرَّ الخَيرَ يُعطَهُ، ومَن يتَّقِ الشَّرَّ يُوقَه...**». [أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٦٦٣)، وحَسَّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٤٢)]

(٢) فيتواضعُ الشَّيخ للطلاب الذين يتعلمون عليه، والطَّالب يتَواضَع لشَيخِه، فإنَّ العِلمَ إنما يقوم بالخُلق، والأدب، وحسن التعامل.

(٣) هذا من جُملة الآداب التي يَنبَغي أن يتحَلَّىٰ بها حامل القرآن؛ وهي: أن يتجنَّب تكليفَ من يُقرئهم القُرآن من طُلابِهِ بمَصَالحه وحاجَاته وشُؤونه، فإن ذلك ينافي كمَال إخلاصِهِ، =

وأختار له إذا عرَضَت له حاجَةٌ أن يُكَلِّفها لِمَن لا يقرَأُ عليه، وأُحِبُّ له أَن يصُونَ القُرآنَ عن أن تُقضى لهُ بِهِ الحوائِجُ(١)، فإن عَرَضَت له حاجَةٌ سَأل مَولاهُ الكَرِيمَ قَضاءها، فإذا ابتدأَه أحدٌ مِن إخوانه مِن غيرِ مَسألَةٍ مِنهُ، فَقَضاها له؛ شكر اللهَ تعالىٰ إذ صانهُ عَن المسألَةِ، والتَّذَلُّلِ لأهلِ الدُّنيا، وإذ سَهَّلَ الله لهُ قَضاءَها، ثُمَّ يَشكُرُ لمن أُجرِي ذلكَ علىٰ يدَيه(٢)، فإنَّ هذا واجِبٌ عليه، وقَد رُويت فِيمَا ذَكَرتُ أَخبارٌ تدُلُّ علىٰ ما قُلتُ، وأنا أذكرُها ليزدادَ النَّاظِرُ في كِتابِنا بصِيرَةً -إن شاءَ اللهُ تعالىٰ-».

حدَّثنا أبو الفَضلِ العَبَّاسُ بنُ يُوسُفَ الشَّكلِيُّ: ثنا إِسحَاقُ بنُ الجَرَّاحِ الأذَنيُّ: ثنا الحَسَنُ بنُ الرَّبيعِ البُورانِيُّ قَال: «كُنتُ عند عَبدِ اللهِ بنِ إدرِيسَ، فلمَّا قُمتُ قال لي: سَل عَن سِعرِ الأشنانِ(٣)، فلمَّا مَشيتُ رَدَّني، فَقَال لي: لا تَسَل، فإنَّكَ تكتُبُ عني الحَديثَ، وأنا أكرَهُ أن أَسأَلَ مَن يَسمَعُ مِنِّي الحَديثَ حاجَةً(٤)».

= ونُصحه ووَرَعه، فلابدَّ أن يكون إقراؤه لهم طلبًا لما عند الله وحده، لا لأجل المصلحَة أو المَنفعَة؛ وإنَّما يُريد بذلك وَجه الله تبارك وتعالى.

(١) وذلك لأن مَقام القرآن أجَلُّ وأعلىٰ من أن يستعملَهُ حامِلُه، أو من يُقرئه لغيره لقضَاء حَوائجه وأموره ومَصَالحه.

(٢) أي: يشكر من بادر بقضاء حاجته امتثالًا لقَول النبيِّ ﷺ: «**لا يَشكُرُ اللهَ مَن لَا يَشكُرُ النَّاسَ**» [أخرجه أبو داود (٤٨١١)، وصححه الألباني].

(٣) **الأشنان**: نبَات كانت العربُ تستعمِلُه في النظافةِ والاغتسَال.

وعبد الله بن إدريس رحمه الله لم يطلب من تلميذه أن يحمِلَ له متاعًا، أو ينجِزَ له أمرًا يتطلَّب كُلفةً ومشقَّة، وإنما طلب منه أن يسأل عن سِعر سِلعة فقط!

(٤) وهذا كُلُّه من كمَال وَرَع السَّلف رحمهم الله، وقد جاء نحو الأثر السابق عن مَنصُور بن المُعتَمر؛ فعن حمَّادِ بنِ شُعَيبٍ قال: «**كان مَنصورٌ لا يستَعِينُ بأَحدٍ يَختَلِفُ إِلَيهِ** -أي: يأتيه لقراءة الحديث والعلم- **فِي حاجةٍ، ولا يدعُ أَحَدًا يمشِي مَعَهُ فِي الطَّرِيقِ، يقُولُ**: هو ذا أَجلِسُ إِلَيكُم» [أخرجه الخَطيب البغدادي في «الجامع» برقم (٨٤٥)].

قال: وحدَّثنا أبو الفَضلِ: ثنا إِسحاقُ بنُ الجَرَّاحِ: قال خَلَفُ بنُ تَميمٍ: ماتَ أَبِي وعليه دَينٌ، فأَتيتُ حمزةَ الزَّيَّات(١)، فسأَلتُهُ أَن يُكلِّمَ صاحِبَ الدَّينِ أَن يضعَ عن أَبِي مِن دَينِهِ شَيئًا، فقال لي حمزَةُ رحمه الله: ويحَكَ! إِنَّهُ يقرَأُ علَيَّ القُرآنَ، وأنا أَكرهُ أن أشربَ مِن بيت مَن يقرأُ عَلَيَّ القُرآنَ الماءَ(٢).

حَدَّثَنا جعفَرُ بنُ مُحَمَّدٍ الصَّندَلِيُّ قَال: ثنا الفَضلُ بنُ زِيادٍ: ثنا عَبدُ الصَّمَدِ بنُ يزيدَ قال: سَمِعتُ الفُضَيلَ بنَ عِياضٍ يَقُولُ: «ينبَغي لحامِلِ القُرآنِ ألا تَكُونَ لهُ حاجَةٌ إِلىٰ أَحَدٍ مِن النَّاسِ، إِلىٰ الخَلِيفَةِ فمن دُونَه، وينبَغي أَن تكونَ حوائِجُ الخَلقِ إِلَيهِ(٣)».

حَدَّثَنَا حَامِدُ بنُ شُعَيبٍ البَلخِيُّ قَال: ثنا سُرَيج بنُ يُونُسَ: ثنا إِسحاقُ بنُ سُلَيمانَ الرَّازِيُّ وأبو النَّضرِ، عَن أَبِي جَعفَرٍ الرَّازِيِّ، عَن الرَّبِيعِ بنِ أنسٍ قال: مَكتُوبٌ فِي التَّوراةِ: عَلِّم مَجَّانًا كما عُلِّمتَ مَجَّانًا(٤)».

---

(١) وحمزةُ الزيَّات هو الإمام المشهور، أَحَدُ القُرَّاء السَّبعة رحمه الله.

(٢) أي: إنه يكره أن يذهبَ لبيت أحد من طلابه ليشربَ الماء أو ليقدِّم له الطعام، فَضلًا عن أن يطلبَ منه ما هو أكبَرُ من ذلك، وقد ذكر حسينٌ الجُعفيُّ: أنَّ الإمام حمزةَ رُبَّما عطش وهو في الطريق، فلا يطلبُ الماء كراهيةَ أن يُصادِفَ مَن قَرَأَ عليهِ. [انظر: «السير» للذهبي (٧/ ٩١)].

وروىٰ الخَطيبُ البغداديُّ رحمه الله عن جَريرِ بنِ عَبدِ الحَميدِ قال: «مَرَّ بِنا حَمزَةُ الزَّيَّاتُ فاستَسقىٰ الماءَ وقَعَدَ، ودَخَلتُ البيتَ فلَمَّا أَردتُ أن أُناوِلَهُ نظر إِلَيَّ فقال: أنت هو؟ -أي: مَن طلبتُ منه أن يُحضرَ الماء؟-، قُلتُ: نَعَم، قال: أَليس تَحضُرُنا فِي القِراءَةِ؟ قُلتُ: نعم، قال: رُدَّهُ، وأَبىٰ أَن يشرَبَ، وقامَ ومضىٰ». [«الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٨٤٨)]

(٣) قَد سبقَ هذا الأثر عن الفُضَيل بن عيَاض رحمه الله بالإسناد نَفسِه، وسبقَ الكلامُ عليه (ص١٢٢)، والشَّاهد منه هنا: أنه يَنبَغي لحامِلِ القرآنِ ألا يكُونَ له حَاجَة إلىٰ أحدٍ من الناسِ؛ لا إلىٰ الخَليفَة ولا إلىٰ مَن دُونَه.

(٤) أي: كما أنكَ تَعلَّمت عن غيرك بِلَا مُقَابل، فعَلِّم أنتَ الآخَرين وانفعهُم بلا مُقَابل.

أَخبرنا أبو عَبدِ اللهِ أَحمَدُ بنُ الحَسَنِ بن عَبدِ الجَبَّارِ الصُّوفِيُّ: ثنا شُجاعُ بنُ مَخلَدٍ: ثنا إِسمَاعِيلُ بنُ إِبرَاهِيمَ، عَن هِشَامٍ الدَّستُوائِيِّ، عن يحيى بن أَبِي كَثِيرٍ، عَن أبي رَاشِد الحُبراني قال: قال عَبدُ الرَّحمَنِ بنُ شِبلٍ: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اقرؤوا القُرآنَ ولا تَغلُوا فيه، ولا تَجفُوا عَنهُ[١]، ولا تَأكُلُوا بِهِ[٢]، ولا تستكثرُوا به[٣]» [أخرجه أحمد (١٥١٠٣)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٦٠)].

---

(١) فجميع أمُور الشَّريعة والدِّين يَسلُك الناس فيه ثلاثَةَ مسالك: إما إلى الغلو وهو مُجَاوَزة الحَدِّ المشروع، وإما إلى الجَفاء، وهو التَّقصير، وإمَّا إلى التوسُّط والاعتدال، وخيَار الأمور أوسَاطُها؛ فلا إفراط، ولا تفريط.

وقد صحَّ عن نَبيِّنا ﷺ أنه قال: «**إِنَّ من إجلالِ اللهِ: إِكرام ذِي الشَّيبةِ المُسلِمِ، وحامِلِ القُرآنِ؛ غيرِ الغالي فيه، ولا الجافي عَنهُ، وَإِكرام ذِي السُّلطانِ المُقسِطِ**» [أخرجه أبو داود (٤٨٤٣) وحسنه الألباني].

فدلَّ الحديث أنَّ حامِلَ القرآن إن كان حاله مع القرآن وَسَطًا بين الإفراط والتَّفريط؛ فله مكانة عَليَّة، وإكرَامُه من إجلالِ الله ﷻ؛ لأنَّه كان مع كتَاب الله ﷻ وسَطًا لا غُلو ولا جَفاء، وأتى بالأمرِ كما يَنبَغي.

(٢) أي: لا تَجعَلوا القرآن بضَاعة لكم تأكُلونَ به، وتَسألون به الدنيا والمَالَ والمصَالح.

(٣) أي: لا تكُن عنايَتُكم بالقرآن من أجل الاستكثَار، كما قال الله ﷻ: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾.

وكما أنَّ التكاثُر يكون بالمَال، فإنه كذلك يكُون بالعلمِ، فإذا كان هَمُّ الإنسَان أن يَحفظ القرآن ليقال: إنه حافظٌ، أو يجمع قراءات وروايات كثيرة؛ ليقال: مُقرئٌ أو مُتقنٌ، فمثل هذا لا يحصل له حُسن الانتفَاعِ بكتاب الله ﷻ؛ لأنَّ نيَّتَه لم تَصِحَّ ولم تَستَقِم؛ لأنَّ القرآنَ يُحفظُ من أجلِ التقرُّب إلى الله ﷻ؛ ورجاء ما عندَه، لا لمثل هذه الأغراض.

ويكون التَّكاثر المذموم في جمع الكُتُب الشَّرعية؛ فيجمعُ الكتب ليقال: «إنه صاحب مكتبة كبيرة»، ويكون أيضًا في الشُّيوخ، فيحضر للدُّروس المتعددة ليقال: إنَّه جلس وقرأ على شيوخٍ عدَّة، وليس مقصوده الاستفادة منهم.

=

حدَّثنا أبو العبَّاسِ أحمَدُ بنُ سَهلٍ الأُشنانِيُّ قال: ثنا بِشرُ بنُ الوليدِ: ثنا فُلَيحُ بنُ سليمانَ، عن عبدِ اللهِ بنِ عبدِ الرَّحمَنِ بنِ مَعمَرٍ، عَن سَعيدِ بنِ يَسارٍ، عن أبِي هُريرةَ قال: قال رَسولُ اللهِ ﷺ: «مَن تَعَلَّمَ عِلمًا مِمَّا يُبتَغَىٰ به وَجهُ اللهِ تعالى، لا يتعلَّمُهُ إلا ليُصيبَ بِهِ عرَضًا مِن الدُّنيَا[(١)]،

= قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والتكاثُرُ في كلِّ شيءٍ، فكلُّ مَن شَغَلَه وألهاهُ التكاثُرُ بأمر من الأمور عن الله والدار الآخرة فهو داخِلٌ في حُكْمِ هذه الآية، فمن الناس مَن يُلهيه التكاثرُ بالمال، ومنهم من يُلهيه التكاثر بالجاه أو بالعلم، فيجمَعُهُ تكاثرًا وتفاخُرًا، وهذا أسوأُ حالًا عند الله ممَّن يكاثر بالمال والجاه فإنه جعلَ أسبابَ الآخرة للدُّنيا، وصاحِبُ المال والجاه استعملَ أسبابَ الدنيا لها، وكاثر بأسبابها» [«عدة الصابرين» (ص١٧١)]

فهذا معنىٰ قول النَّبي ﷺ: «**ولا تَستكثِرُوا به**»: فالواجب علىٰ المرء إذا ازدَاد نصيبًا وحَظًّا من القُرآن أن يَحمَد المَولَىٰ علىٰ هذه المِنَّة، وأن يُجَاهد نفسَه علىٰ العمَل بهداياتِه ليزدَاد بذلك إيمَانًا، كما قال تعَالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

(١) دلَّ الحديثُ أنَّ العِلمَ علىٰ نَوعين:

الأوَّل: علم يُبتغَىٰ به وجهُ الله ﷻ، وهذا عِلمُ الشَّريعة، وهو الذي لابدَّ أن تكون النيَّة فيه خالصةً لله تعالىٰ، فلا يطلبُهُ وغرضُهُ تحصيل الدُّنيا، أو طلب السُّمعة والشُّهرة، أو غيرها من الأغراض الدُّنيوية، لأنه بذلك يدخُلُ في الوعيد الذي جاء في هذا الحديث، والعياذ بالله.

والثَّاني: علمٌ دُنيوي، كالطبِّ والهندسة ونحوها، فهذه إذا تعلَّمها المرءُ وقصد منها تحصيل الدنيا فقط فلا حَرَج عليه؛ لأنها عُلومٌ دنيوية، لكنَّه إن نَوىٰ نيَّةً طيبة –مثل أن ينويَ نَفع المسلمين وإفَادَتهم وكفَايتهم حَاجَتَهُم–؛ فإنه يُثَابُ علىٰ نيَّته.

وهل يدخُلُ في الحديث مَن يتعَلَّم علوم الشَّريعة ليكون إمامًا في مسجد، أو مُعَلِّمًا لعلوم الشَّرعية ويأخُذ راتبًا علىٰ هذا العمل؟ =

لَم يَجِد عَرفَ الجنَّةِ يومَ القيامةِ[(١)] » [أخرجه أبو داود (٣٦٦٤)، وصححه الألباني].

أخبرنا أبو عبدِ اللهِ مُحَمَّدُ بنُ مَخلَدٍ: ثنا مُحَمَّدُ بنُ إِسماعِيلَ الحَسَّانِيُّ: ثنا وَكيعٌ: ثنا سُفيانُ، عن واقِدٍ مَولَى زَيدِ بنِ خُلَيدَةَ، عن زاذانَ[(٢)] قال: «مَن قرأَ القُرآنَ يتأَكَّلُ بِهِ النَّاس؛ جاءَ يومَ القِيامةِ ووجهُهُ عَظمٌ ليسَ عليه لَحمٌ[(٣)]».

= **الجوابُ**: إنَّ هذا راجِعٌ إلى نيَّته؛ فإن نوىٰ بتعلُّمه للعِلم الشَّرعي وجهَ الله، ونفع المسلمين، ثمَّ كان أخذُهُ للراتبِ هو من أجل تفريغه وقته لهذا العمل، ولسدِّ حاجة أهله وعِياله، فهذا لا يشملُهُ الحديث؛ لأنَّه إنَّما طلب العلم قربةً لله وطاعة، وهذا الراتب جاء تبعًا لذلك، وهو سببٌ لاستمراره في هذا الخير، والنَّفع للمسلمين.

وأما مَن تعلَّم علومَ الشَّريعة، وليس في نيَّته إلا تَحصِيل المال واكتسَابه، أو طلب الشُّهرة والسُّمعة، فهذا داخِلٌ في الوَعيد المذكور، والله أعلم.

(١) **العَرْفُ**: هو الرِّيح، والمقصودُ أنه: لا يَجدُ ريحَ الجنَّة يومَ القيَامة، وهذَا وَعيدٌ شَديدٌ، ودَليل علىٰ أن هَذا الفعلَ من كبَائر الذنُوبِ، وعَظَائم الآثَام؛ وهو أن يتعلَّم علمَ الشَّريعة وهو لا يُريد بتعَلمه إلا الدنيا، لا يُريد الآخرَةَ.

(٢) هو أبو عُمَر الكندي الضَّرير، وقد سبقَت قِصَّتُه (ص١٣٣) عندما دخل مَجلسَ عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه، وكان سَبقَه إلىٰ المجلس أهلُ الثياب الفَاخرة، فقرَّبه ابن مسعود رضي الله عنه إليه.

(٣) يعني: يأتي يَوم القيامَة ووجهُهُ عظمٌ لا لحمَ فيه أبدًا -والعياذ بالله- .

وقد روي هذا الأثرُ مَرفُوعًا عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم من حَديث بُرَيدة رضي الله عنه؛ لكن سَندَه ضعيفٌ جدًّا، لا يثبت. [قال الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٧٦٣): موضوع].

ولكنَّه من حيثُ المعنىٰ صحيحٌ؛ لأنه صحَّ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «**ما يزالُ الرَّجُلُ يسألُ النَّاسَ، حتَّىٰ يأتيَ يومَ القيامةِ وليسَ في وجهِهِ مُزعةُ لحمٍ**» [أخرجه البخاري (١٤٧٥)، ومسلم (١٠٤٠)].

وهَذا فيمن يسألُ الناسَ مُطلقًا؛ فَكيف بمن يتأكَّل بالقُرآن، ويجعله وسيلة يَسألُ بها الناس من دنياهم؟! لاشكَّ أنَّه أولىٰ بالدُّخول في هذا الوعيد، والله أعلم.

حدَّثنا يحيىٰ بنُ مُحَمَّدِ بنِ صاعِدٍ: ثنا شُعَيبُ بنُ أيُّوبَ: ثنا عَبدُ اللهِ بنُ نُمَير: ثنا مُعاوِيَةُ النَّصرِيُّ، عَن الضَّحَّاكِ، عَن الأسوَدِ بنِ يَزِيدَ -وقالَ غَيرُ شُعَيب: وعلقَمَةَ، ولم أرَ شُعَيبًا ذكرَ عَلقَمَةَ- قال: قَالَ عَبدُ اللهِ -يَعنِي: ابنَ مَسعُودٍ رضي الله عنه-: لَو أَنَّ أَهلَ العِلمِ صَانُوا العِلمَ، ووَضَعُوهُ عِندَ أَهلِهِ[١]، سادُوا بِهِ أَهلَ زَمانِهِم، ولَكِنَّهُم بَذَلُوهُ لأهلِ الدُّنيا لِيَنالُوا بِهِ مِن دُنيَاهُم[٢]، فهَانُوا علىٰ أَهلِها[٣]، سمعتُ نَبيَّكُم ﷺ يقولُ: «مَن جعلَ الهمَّ همًّا واحدًا؛ هم آخرته، كفاهُ اللهُ عز وجل همَّ دنياه، ومَن تشعَّبَتْ به الهمومُ في أحوالِ الدنيا، لم يُبالِ اللهُ من أيِّ أوديتها هَلَكَ[٤]».

---

(١) صيانة العلم تكون بأمور؛ منها: ألَّا يُجعَل إلا عندَ أهله، فمَن جعَل العلمَ عند غير أهلِهِ أهَانَ العلمَ؛ ففي بَعض المجالسِ يكون الحاضِرون ممَّن لا يقدُرون العِلم قدره، وليسوا من أهله، فعِندَ بذل العِلم لهم قد يحصُلُ منهم استخفاف به، أو استِهزاء، ونحو ذلك، فمن صيانةِ العِلم عدم إلقائه علىٰ مِثل هؤلاءِ.

(٢) وهذا أيضًا من عدم صِيَانة العلم، فمن يَذهبُ بالعلم إلىٰ أربابِ الدنيا ويُحدِّثهم به؛ ليُحصِّل من دُنياهم، فهذا قد أهان العلم، وانتقص من مكانَتِهِ وقَدرِه.

(٣) وحولَ هذا المَعنىٰ يقولُ الجُرجاني في أبيَاتٍ لهُ: [انظر: «محاضرة الأدباء» للراغب (١/ ٥٢)]

وَلَو أَنَّ أَهلَ العِلمِ صَانُوهُ صَانَهُم ... وَلَو عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعَظَّمَا

ولكن أَهانُوهُ فَهانَ وَدَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بِالأطمَاعِ حَتَّى تَجَهَّمَا

(٤) وهذا الأثر عن ابن مسعود قد أخرجه ابن ماجه أيضًا [في «السنن» رقم: (٢٥٨)]، وهو وإن كان صحيحًا من جهة المعنىٰ، إلا أنَّ إسناده غير ثابتٍ؛ لأنه من رواية نهشل بن سعيد عن الضحَّاك، وقد سقطَ نهشل بن سعيد في هذا الإسناد، ولكنَّه مذكورٌ في جميع المصادر التي أخرجت الحديث، ونهشل بن سعيد ضعيف الحديث، ولاسيَّما في روايته عن الضَّحاك، فروايته تكون منكرة جدًّا.

قال البوصيري: «هَذَا إِسْنَاد ضَعِيف فِيهِ نهشل بن سعيد، قال البُخَارِيُّ: روىٰ عَنه =

حدثنا أبو عبد الله محمد بن مَخْلَد: ثنا إبراهيم بن مهدي: ثنا أحمد بن عبد الله بن خيرون: ثنا العباس بن بكار الضبي: ثنا عيسىٰ بن عمر النحوي قال: أقبلت حتىٰ أقمت عند الحسن، فسمعته يقول: قراء هذا القرآن ثلاثة رجال: فرجل قرأه فاتَّخذه بضاعة، ونقله من بلد إلىٰ بلد(١)**، ورجل قرأه فأقام علىٰ حروفه، وضيع حدوده، يقول: إني والله ما أسقط من القرآن حرفًا**(٢)**، ....**

= مُعَاوِيَة النصري أَحادِيث مناكير، وقال الحاكِم: روىٰ عَن الضَّحَّاك المعضلات، وَقَالَ أَبُو سعيد النقاش: روىٰ عَنهُ الضَّحَّاك الموضوعات». [«مصباح الزجاجة» (١/ ٣٨)]

وأمَّا القَدْرُ المرفوع منه إلىٰ النبيِّ ﷺ، فجاء في الأحاديث ما يشهدُ لمعناه، كحديث زيد ابن ثابت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**مَن كانت الدُّنيا هَمَّهُ فَرَّقَ اللهُ عليه أَمرَهُ، وجَعَلَ فَقرَهُ بَينَ عَينَيهِ، وَلَم يَأتِهِ مِن الدُّنيَا إلَّا ما كُتِبَ لَهُ، ومَن كانَت الآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللهُ لهُ أَمرَهُ، وجعلَ غِناهُ في قلبِهِ، وأَتَتهُ الدُّنيَا وَهِيَ راغِمَة**» [أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥)، وصححه الألباني].

(١) فهو كالتَّاجر الذي يتنَقَّل بالسِّلع والبضَائع التي معه من بلدٍ إلىٰ بلدٍ؛ فهذا كذلكَ؛ جعل القرآنَ بضَاعَة له ينتَقلُ بد من بَلدٍ إلىٰ بَلَد من أجلِ تَحصيلِ المَال والأكل بالقُرآن.

(٢) فحَظُّهُ ونَصيبُهُ من القرآن هي الحُروف فقط، وأمَّا حُدود القُرآن فهو مُضَيِّع لهَا.

وفي لفظ آخر في «فَضَائل القُرآن» لأبي عُبَيد [ص١٢٧]: «**واستطَالُوا به على أهل بلادهم**»؛ أي: أَخَذُوا يَفخَرُون ويتكبَّرون علىٰ أهل بِلادِهم بما عندَهُم من القرآن، وهذا من التضييع لحُدود القرآن.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله وهو يُبَين حَالَ صاحب القرآن الذي ينَال رفيع الدرجَات وعَالي المَنَازل: «فهو دائم التفكُّر في معانيه والتدبر لألفاظه، واستغنائه بمعاني القرآن وحِكَمِه عن غيرِه من كلامِ الناس، وإذا سَمِعَ شيئًا من كلام الناس وعلومِهم عَرَضَه علىٰ القرآن؛ فإن شَهِدَ له بالتَّزكية قَبِلَه، وإلا ردَّه، وإن لم يشهد له بقبول ولا رَدٍّ وقفه، وهِمَّتُه =

كَثَّرَ اللهُ بهم القُبُور، وأخلىٰ منهم الدور، فوالله لهم أشد كِبرًا من صاحب السرير علىٰ سريره، ومن صاحب المنبر علىٰ منبره(١)، ورجلٌ قرأه، فأَسْهَر ليلَه، وأظمأ نهاره، ومنع به شهوته، فجثوا في برانسهم، وركدوا في محاريبهم(٢)، بهم ينفِي الله ﷻ عنَّا العدو، وبهم يسقينا الله تعالىٰ الغيث(٣)، ....

= عاكِفَةٌ علىٰ مُرادِ ربِّه من كلامِه، ولا يجعل هِمَّتَهُ فيما حُجِبَ به أكثرُ النَّاس من العلوم عن حقائق القرآن؛ إما بالوسوسة في خروج حروفه وترقيقها وتفخيمها وإمالتها والنطق بالمد الطويل والقصير والمتوسط وغير ذلك؛ فإن هذا حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الربِّ من كلامه». [«مجموع الفتاوىٰ» (١٦/ ٥٠)]

مقصوده ﵀ من يَصُبُّ كلَّ همته وجهده في ضبط الحروف والمخَارج والغُنَن، ولا يلتفت إلىٰ فَهم المعَاني وعَقل الدِّلالات، فيكون حظُّه من القرآن إنما هو إقامة الحُروف، ولاشكَّ أنَّ هذا مَذمُومٌ؛ لأن القرآن أُنزل ليُعمل به، لكن إنْ جمعَ مع فهم القرآن والعمل به إقامةَ حروفه، وإتقان قراءته فهذا هو الذي ثبت أنه مع السَّفرة الكرام البررة؛ لكونه مَهر في قراءة القرآن مع الفَهم لمعانيه والعَمَل بأحكامه وإرشاداته.

وللإمامِ ابن القيِّم ﵀ وَصيَّة مُختصَرة ونافعَةٌ، يُوصي بها من أراد أن يَنتفع بقرَاءته للقُرآن قال ﵀: «إِذَا أردت الانتِفَاع بِالقُرآنِ؛ فاجمع قَلبك عِند تِلَاوَته وسماعه، وأَلْقِ سَمعك، واحضر حُضُور من يُخاطبه بِهِ من تكلَّم بِهِ سُبحَانَهُ مِنهُ إِلَيهِ». [«الفوائد» (ص٣)]

(١) وذلك لأنَّ هذا الصنف مَضَرَّة علىٰ أهل بلادِهم، ولأن هذا الصِّنف في الغالب يتطاولون علىٰ الناس ويتفاخَرون عليهم؛ لأنهم بعيدون عن العمَل بالقرآن والاهتداء بهِدَاياته، وإنمَا حَظُّهم من القُرآن مُجرَّد الإتقان لحُروفه، ولهذا شبَّههم بالسُّلطان الذي يفخر بالجلوس علىٰ سرير المُلْكِ ويستطيل علىٰ النَّاس ويتعالىٰ عليهم.

(٢) أي: أحيوا ليلهم بالقيام، ونهارهم بالصِّيام، وأقبلوا علىٰ العبادة والصلاة والخشوع.

(٣) لأنَّ عبادتهم قائمةٌ علىٰ الإخلاص، ودعاؤهم يتَّصِفُ بالصِّدق وقوَّة الضَّراعة =

وهذا الضَّربُ من أهل القرآن أعزُّ من الكِبريت الأحمر[(١)]».

قال محمد بن الحسين: الأخبارُ في هذا المعنىٰ كثيرة، ومُرادي من هذا نصيحة لأهل القرآن، لئلا يبطل سَعْيهم[(٢)]، إن هم طلبوا به شرفَ الدنيا حُرِمُوا شرفَ الآخرة، إذ بذلوه لأهل الدنيا طمعًا في دنياهم، أعاذ الله حملة القرآن من ذلك[(٣)].

= والإلحاح، فلا شكَّ أنَّ دَعوات أمثال هؤلاء دَعَوات مُستَجابات، وقد قال ﷺ: «**وهل تُنصرونَ إلا بضُعفائكم؟ بدعوتهم وإخلاصهم**». [أخرجها النَّسائيُّ (٣١٧٨) وصححها الألباني].

وفي رواية: «**وهل تُنصرون وتُرزقون**» [أخرجها البخاري (٢٨٩٦)]

(١) الكبريت الأحمَر: جوهَرٌ ثَمين، نادر عَزيز، ولهَذا يُضرَب به المثَلُ بالنُّدرة عند العَرب.

ورغم أنَّ إسناد المصنِّف فيه: العبَّاس بن بكَّار الضَّبي، وهو مُتَّهم بالكَذب، وفيه كذلك إبراهيم بن مَهدِي؛ وقد كذَّبوه، إلا أنَّ الأثر يُروىٰ بأسَانيد أُخرىٰ غير هذا، عند أبي عُبيد [في «فضَائل القرآن» (١٢٧-١٢٨)]، وابن أبي الدنيا [في كتاب «الهَم والحزن» (١٥٢)].

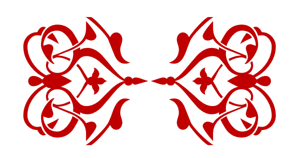
(٢) وقد قال النَّبي ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ...**» [أخرجه مسلم (٥٥)]، ولاشكَّ أنهم أعظم حاجةً إلىٰ النُّصح والتذكير، ومن يُطَالع كُتُبَ الإمَام الآجُرِّي رَحِمَهُ اللَّهُ يرىٰ فيها النُّصح العَجيب، والمَواعظ المؤثرة؛ والتي نَحسب أنها صادرَة من قلبِ رَجُلٍ ناصح رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٣) هذه المعَاني الجَليلة التي ذكَرها رَحِمَهُ اللَّهُ هي ممَّا تَمس الحاجَة إلىٰ معرفتها؛ ويَنبغي أن تُعمَّم وتُنشَر، وأن يَقف عليهَا أبناءُ المسلمين في المَقَارئ، وأمَاكن حِفظ القُرآن الكَريم، وأن يقفَ عليها مُعلِّمو القُرآن أيضًا؛ رجاءَ أن ينفعَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بها وأن تكونَ بابًا للخير والصَّلاح؛ لأن كثيرًا منهم قد لا يكون اطَّلع عليها ولا سَمع بها، وهو علىٰ خَير عظيم، ولو نُبِّه وبُيِّنَت له لسارع في امتثالها.

ثمَّ ختم ذلك بدعوةٍ طيبة، وهذا من نُصحه رَحِمَهُ اللَّهُ فجَمَعَ في هذه الجملة بين النصيحَة والدعَاء، وهذا شَأنُ العلمَاء؛ يُعَلِّمون الناسَ الخير، ويَدعُون لهم بالخير، فمع بيانهم =

فينبغي لمن جلس يقرئ المسلمين أن يتأدب بأدب القرآن، يقتضي ثوابه من الله تعالى، يستغني بالقرآن عن كل أحد من الخلق، متواضع في نفسه ليكون رفيعًا عند الله جلَّت عظمتُه.

حدثنا علي بن إسحاق بن زاطيا: ثنا عبيد الله بن عمر القواريري: ثنا حماد بن زيد قال: سمعتُ أيوبَ يقول: «ينبغي للعالم أن يضَعَ الرَّمادَ على رأسِه تواضعًا لله جَلَّتْ عظمتُه(١)».



= لأحكام الشَّريعة السَّمحاء، ومع تحذيرهم من ارتكاب السيِّئات -نُصحًا للعبَاد؛ ورجَاء هدَايتهم- يَدعُون في الوقت نفسه رب العالمين أن يهديهم وينفعهم بذلك.

(١) والأقرَبُ في معنى هذا القول -والله أعلم-: ليسَ وَضعَ الرَّمَاد ذاته على الرَّأس، وإنمَا المقصود **تَحقيق التَّواضُع وتَكميلُه وتتميمُه من جميع الوجوه**؛ فليس لذات الرَّمَاد أو التراب فضلٌ أو سنَّةٌ في نثره أو وضعِه على الرأس، فإنَّ الأصل في العبادات المنع والتحريم، فلا يصحُّ أن يتقرَّب عبدٌ إلى ربِّه بأمر لم يدلَّ عليه دليل في الكتاب أو السنَّة، وأيضًا فالقاعدة المعروفة عند أهل العِلم: «كُلٌّ يُستدَل لقولِهِ لا به؛ إلا الله ورسوله ﷺ».

باب ذكر أخلاق من يقرأ على المقرئ(١)

من كان يقرأ القرآن على غيره، ويتلقن، فينبغي له أن يحسن الأدب في جلوسه بين يديه، ويتواضع في جلوسه، ويكون مُقْبِلًا عليه(٢)،...

---

(١) هذه التَّرجمةُ في بيان أخلاق ينبغي أن يتحلَّى بها الطَّالب مع شَيخه، والتي قَبلَها كانت في أخلاق الشَّيخ مع تلمِيذِه، والشَّريعة جاءت بأجمَل الآداب، وأطيب الأخلاق، وأحسن التعاملات، وجاءت بإعطَاء كُل ذِي حَقٍّ حقَّه، فكما أن للتِّلميذ على شيخه آدابًا؛ فكذلك للشَّيخ آداب على طُلابه، وذلك كلُّه لتحقيق الخيريَّة والفَلاح والصَّلاح، وتحقيق الأُخُوة الإيمَانية، كما قالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فهذه الأُخوة لها مُقتَضَياتها، ولها آدَابها التي تُسَاعد على تَقويَتها وتَوثيق أواصِرها.

(٢) أي: أن الطالبَ يَنبغي أن يَجلسَ عند شَيخه بتواضع؛ وأن يُقبِلَ على الشَّيخ بوَجهِهِ نَظَرًا، وبأُذُنه سَمَاعًا، وبقَلبِهِ عَقلًا، فبهذا يتحَقَّق المقصود بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وهذا الأدب مُستفادٌ من هيئة جلوس جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ في مَجيئه للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما جاءه يسأله عن أصول الدِّين ومراتبه، قال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «بينما نحن عند رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه...». [أخرجه مسلم (٨)]

وقد دلَّ الحديثُ على أنَّ الطَّالبَ عند التَّلقي عليه أن يجلس بهيئة الوقَار والإقبالِ وحُسن الاستماع؛ فلا يكُون مُضطَجعًا، ولا على جنبه مُتَّكِئًا، ولا مُستلقيًا على قفاه، وإنما يَجلس جِلسةً تناسِب هيبة العِلم وحُرمته ومَكَانته.

ولا يَمُد رِجلَيه في المجلس، إلا إذا اضْطُرَّ إلى ذلك -لمرض أو نحوه- فالضَّرُورات لها أحكامها؛ فلا حَرج عليه حينئذٍ.

فإن ضجرَ عليه احتمَلَه، وإن زجرَه احتمَلَه، ورفق به[١]، واعتقد له الهيبةَ، والاستحياء منه[٢].

وأحب أن يتلقن ما يعلم أنه يَضْبِطُهُ[٣]، وهو أعلم بنفسِهِ[٤]، إن كان يعلم أنه لا يحتمل في التلقين أكثر من خمس خمس[٥]، فلا ينبغي أن يسألَ الزِّيادة[٦]، ....

---

(١) أي: إن رَفَع الشيخُ صوتَه عليه أو نهره فعلىٰ الطالب أن يَحتملَهُ ويرفُقَ به، فلعلَّ الشيخَ قد اعتراه ما يقلقه ويزعجه مُسْبقًا، فصادفَ نَوْعًا من الخطأ اليسير عند الطَّالب؛ فصارت الغَضْبةُ عليه، فإذا رَفَق به الطالبُ وتَلطَّف كان ذلك أبلَغ في ذهاب غضبه، وحُسْن الاستفَادَة منه.

(٢) فيُعامِلَه معاملَةً فيها الحيَاء، وفيها مُرَاعاة حَقِّ الشَّيخ، ومَكَانته وحُرمَته، كما قال النبيُّ ﷺ: «**ليسَ مِنَّا مَن لَم يُوَقِّر كَبِيرنا، وَيَرحَم صَغِيرَنا، ويعرِف لِعالمنا حَقَّهُ**» [أخرجه أحمد (٢٢٢٤٩)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٤٤٣)].

(٣) أي: فليَأخُذ من القرآن ما يعلمُ أنه يَضبِطُهُ؛ بحيثُ يكون نَصيبُهُ اليومي قَدرًا يَستطيع ضَبطَه.

(٤) فكُلُّ امرئ أَدرَىٰ بنَفسه في مِقدار ما يتمَكن من حِفظِه، وهذا المقدار يُعرفُ بالتَّجربة مع مَرِّ الأيامِ؛ لأن الناسَ يتفَاوَتُون في المَقدِرَة علىٰ الحِفظِ والضَّبط، فمنهم مَن يحفَظُ في اليوم عشر آيات حِفظًا مُتقنًا، وغيره لا يستطيع أن يضبط إلا ثلاثَ آيات، ثمَّ هذا المقدار مع الاستمرار اليوميِّ في الحفظ والمواظبة يزيد ويتضاعَف غالبًا.

(٥) أي: يحفظ خمس آياتٍ ثمَّ خمسَ آيَات، وهكذا.

(٦) فالشيخُ إذا وجدَ أنَّ الطالِبَ قد ضبطَ قدرًا وافِيًا فلابدَّ أن ينبِّهه إلىٰ أن يُكرِّر ما حَفِظَهُ ولا يزيد عليه شيئًا؛ لأن الطَّالب إذا بدأَ في التَّلقِّي تكون عنده رغبَةٌ قويَّةٌ في الزِّيادة، وقد يُحمِّل نفسَه في الحفظ ما لا تَحتَمله، ولاسيَّما مع مَرِّ الأيام يكثُر المحفوظ دون ضبط وإتقان، ويضيع علىٰ إثر ذلك، فمن المعلوم أنَّ مَنْ رامَ العلمَ جُملةً حُرِم منه جُملَة، لكنَّه إذَا مشَىٰ بالقدر الذي يتمَكَّن منه، وتدَرَّج في ذلك، فإنَّ حفظه سيزيد مع الأيام ويكون متقنًا.

وإن كان يعلم أنه لا يحتمل أن يتلقن إلا ثلاث آيات، لم يسأل أن يلقنه خَمْسًا، فإن لقنه الأستاذ ثلاثًا لم يزد عليها، وعَلِمَ هو من نفسِهِ أن يحتملَ خَمْسًا سأله أن يزيدَهُ على أرفق ما يكون(١)، فإن أبى لم يؤذه بالطلب(٢)، وصبر على مراد الأستاذ منه، فإنه إذا فعل ذلك كان هذا الفعل منه داعية للزيادة له ممن يلقنه إن شاء الله(٣).

ولا ينبغي له أن يضجر من يلقنه فيزهد فيه(٤)، وإذا لقنه شكر له ذلك، ودعا له، وعظم قدره(٥)، ولا يجفو عليه إن جفا عليه(٦)، ....

---

(١) أي: إذا لقَّنه ثلاثًا وهو يَعرفُ من نفسِهِ وقوَّة حفظه أنه يحتمل خمسًا أو أكثر مع ضبطٍ وإتقان؛ سَأل شيخَهُ المَزيد بأسلوبٍ لطيف ورفيق.

(٢) كأن يقولَ للشيخ: أنت لا تعرِفُ قُدرَاتي، ولا تَعرف إمكانياتي ونَحو ذلك، فهذا لا يَنبغي، وقد يُضجر الشيخ منه، فتقلُّ استفادته منه.

(٣) فمَعَ الأيام سيَعرفُ الشيخُ قدرات الطالب، وسَيزيده في مقدار الحفظ للذي أراد، ورُبَّما يتبَيَّن أنه يستطيعُ حفظ ما هو أكثَر من ذلك.

(٤) وذلك لأنه إن أضجَرَ شَيخَهُ منه فربَّما زَهِدَ فيه لما ناله منه من سوء أدب، ولم يَحرص على تَلقِينِهِ.

(٥) عَملًا بقَول النَّبي ﷺ: «**لا يَشكُرُ اللهَ من لا يشكُرُ النَّاسَ**» [أخرجه أبو داود (٤٨١١)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»]، فيَدعُو له، ويذكُر استفَادَته منه، ويشكُرُ له صَنيعَه وإحسَانَه.

(٦) أي: إن بَدا له من شَيخه شَيءٌ من الجَفَاء أو الغِلظة، فلا يقابلها بالجفاء، وإنمَا يترَفَّق ويَصبر ويَحلُم على شيخه ومعلِّمه، ويَلتمِسُ له عُذرًا؛ ولربَّما عند التَّمحيص قد يتبيَّن للطالبِ أنَّ فعلَ شيخه ليس بجَفاء، وإنمَا حَصَلَ منه عن غير قَصد.

والحاصِلُ: أنَّ الطالب ينبغي عليه أن يَصبر على جَفوة شَيخه وأن يحتمِلها منه؛ رجاءَ استمرَار الخير الذي بينهما، ودوَام الانتفاع والفائدة.

ويكرم من يلقنه إذا كان هو لم يكرمه[(١)]، وتستحي منه إن كان هو لم يستحيي منك، تلزمُ أنت نفسَك واجبَ حَقِّه عليك، فبالحري أن يعرف حقك[(٢)]؛ لأن أهل القرآن أهل خير وتيقظ وأدب، يعرفون الحق على أنفسهم، فإن غفل عن واجب حقك، فلا تغفل عن واجب حَقِّهِ[(٣)]، فإن الله ﷻ قد أمرك أن تعرفَ حقَّ العالم، وأمرك بطاعة العلماء، وكذا أمر الرسول ﷺ.

---

(١) فالإحسَانُ مَطلُوبٌ بين المعلِّمين والمتعلِّمين، ورَحِمُ العلم مثل رَحِم النَّسب، بل شَأنها أعظَم وأجلُّ.

وصحَّ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**لَيسَ الوَاصِلُ بِالمُكَافِئِ، إنَّمَا الوَاصِلُ مَن إِذَا قُطِعَت رَحِمُهُ وصلها**» [أخرجه البخاري (٥٩٩١)]، وهذا الحديث وإن كان وردَ في النَّسب والرَّحم، إلا أنَّ العلاقة بينَ المعلِّمين والمتعلِّمين تدخُل في ذلك من باب أولىٰ.

ومعنىٰ قوله ﷺ: «**ليس الوَاصل بالمُكافئ**»؛ أي: إنَّ المحسِنَ علىٰ الحقيقة، والواصل للرَّحم لا يتعامل مع رَحِمِه في النَّسب أو العلم بطريقة المكافأة، كأن يقول الطالب: (إن عامَلني الأستاذُ مُعَاملة جيِّدة فسأعامِلُه مُعَاملة جَيِّدة، وإن لم يُعَامِلني معاملة جيدة فسأعامله بالسُّوء كما يعاملني)، فهذا ليس بمُحْسِن، وليس بواصِلٍ، بل الواجِبُ علىٰ الطالب الإكرام لأستاذه، والصبرُ عليه، والتَّقرُّب إلىٰ الله ﷻ بهذا التعامل والإحسان؛ لأن مَكَارِمَ الأخلاق هي في الحقيقة قربةٌ عظيمةٌ وعُلوٌّ ورِفعَةٌ للمَرء عند رب العالمين ﷻ.

(٢) فتُلْزِمُ نفسَك واجِبَ حَقِّه عليك مع الإحسان والصبر، ولا تَنظر بما عَاملك وتصبر علىٰ جفاء الشيخ، فإنَّ هذا حَرِيٌّ بأنْ يعرفَ الشيخُ حَقَّكَ، ويعاملكَ باللُّطف والخُلق الحسن، وأدعىٰ أن يزيد من إفادته وبذل وقته لك.

(٣) كمَا جاء في الحديث المتقدِّم آنفًا: «**لَيسَ الوَاصِلُ بِالمُكَافِئِ**»: فإن غَفَل الشيخُ عن الواجب فلا تغفل؛ بل أدِّ الوَاجب الذي عليك مُتقَرِّبًا به إلىٰ الله ﷻ.

حَدَّثَنا أبو شُعَيبٍ عَبدُ اللهِ بنُ الحَسَنِ الحَرَّاني: ثنا أَحمَدُ بنُ عِيسى المِصرِيُّ: ثنا عَبدُ اللهِ ابنُ وَهبٍ، عَن مَالِكِ بنِ الخَيرِ الزِّبادِيِّ -مِن أَهلِ اليَمَنِ-، عَن أَبِي قَبِيلٍ المَعَافِرِيِّ، عَن عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ليسَ مِن أُمَّتِي(١) مَن لَم يُجِلَّ كَبِيرَنا(٢)، ويَرحَم صَغيرَنا(٣)، ويَعرِف لِعالِمِنا»، قالَ أَحمَدُ: «يعني: يَعرِفُ حَقَّهُ(٤)».

---

(١) هذا النَّفي إنَّما يَرِدُ في الأمور العظيمة التي حذَّر منها الإسلام، ومثلها قول النبي ﷺ: «**ليس منِّي**» كقوله: «**مَن غَشَّ فَلَيسَ مِنِّي**» [أخرجه مُسلم (١٠٢)].

ومعناها: ليس منَّا معاشِرَ المؤمنين الذين لهم ثوابٌ من الله لا عَقوبة مَعه.

ولذلك فإنَّ مَن ارتكَب الأمور المنهي عنها في هذه الأحاديث فقد عرَّض نَفسَهُ للعُقوبة، ولم يَكُن من المُؤمنين الذين يدخلون الجنَّة بدون سابقة عذاب؛ ولا يَصِلُ المَرءُ إلىٰ هذه المَرتبة إلا بتحقيق فعل الواجبَات وترك المُحرَّمات.

ولهذا لا يأتي هذا النَّفي «ليس من أمتي» أو «ليس منَّا» إلا عند تَرك وَاجب، أو فعل مُحَرَّم، والمؤمن يجاهد نفسه لتحقيق كمال الإيمان.

(٢) وتروَىٰ هذه الجملة بلفظ: «**مَن لَم يُوَقِّر كَبيرَنَا**» [أخرجه أحمد (٢٢٢٤٩)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٤٤٣)].

والإجلالُ: هو التَّوقير والاحترام والإكرَام، وإكرام كبير السِّن وإجلاله من إجلال رب العالمين؛ كما صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنَّ مِن إجلالِ اللهِ: إكرَامَ ذِي الشَّيبةِ المُسلِمِ**».

[أخرجه أبو داود (٤٨٤٣) وحسنه الألباني].

(٣) فالصَّغير لابدَّ أن يُعَامَل بالرَّحمة، والرِّفق والتَّودُّد إليه، والمُلاطفة له، لينشَأ مُحِبًّا للخير، ومُقبلًا عليه، ومُستَفيدًا منه.

(٤) **قوله**: «**حقَّهُ**»: هذه الكلمة قد ثبتت في بعض روايَات الحَدِيث من قول النبي ﷺ.

والقاعدة أنَّ المُفرد المضَاف يفيد العموم، فقوله: «**حَقَّهُ**» أي: حُقُوقَهُ.

=

حدثنا الفريابي قال: ثنا قتيبة بن سعيد قال: ثنا ابن لهيعة، عن جميل الأسلمي، عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم لا يدركني زمان ولا أدركه؛ لا يتبع فيه العالم(١)، ولا يُستحى فيه من الحليم(٢)، قلوبهم قلوب العَجَم(٣)، وألسنتهم ألسنة العرب(٤)». [أخرجه أحمد (٢٢٣٧٢)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٣٧١)]

= وحُقوق العالم عَظيمة وكثيرة؛ لأن الله ﷻ أكرَمَهُ بالعلم والعَمل، وهِدَايةِ الخَلق، والنُّصْحِ لهم، ودلالتِهِم إلىٰ الخَير، وحُسْنِ تَوجِيههم، فكان له حقٌّ عظيمٌ علىٰ الأمة.

(١) في هذا الحديث تعوُّذٌ من إدراك ذلك الزمان الذي جاء وصفُهُ في الحديث، وهذا التعوُّذ يقتضي ذمَّ أهلِهِ، وأوَّل صفةٍ ذُكِرت من أوصافهم أنهم لا يتَّبعون العالم.

والمرادُ به: العالمُ، أي: النَّاصح المحقِّق؛ الذي يقول ما يقول مُدعمًا بالحجَّة والبرهان، ومستدلًّا بالكتاب والسُّنَّة، فيأتي علىٰ الناس زمانٌ يتركون مثل هذا العالم، ويَتَّبِعون سَفيهًا من السُّفهاء، أو جَاهلًا من الجُهَّال؛ ممَّن لا عِلمَ له بشَرعِ الله، ولا أحكامِ دِينه، فيحلُّ بهم الضَّياعُ والدَّمار.

(٢) **الحليم**: هو الرجُل العاقل الرَّزين، المتَأنِّي في الأمُور، فمثْلُ هذا الرَّجل -في ذلك الزَّمان- لا يُستحىٰ مِنه، ولا يُقدَر له قدرٌ، ولا يوقَّر؛ لفسَاد الناس، واختلال مبادئهم.

(٣) المقصود بالعَجم: اليَهُود والنَّصَارىٰ والمَجُوس ومَن لا دِينَ لهم، وكم في قلوبهم من الفساد، فإذا حصل التشبُّه بهم فهذا مَكمَن الدَّاء، وأساسُ الوبَاء؛ وإذا أُصيبَ القلبُ بهذا الوبَاء اختَلَّت الأعضاءُ كُلُّها، وتغيَّرت المَوَازين، ولهذا تَجِدُ الشَّبابَ في بعضِ المُجتمعات من الذين أصبحَت قُلوبهم قلوبَ الأعاجم، قد تشبَّهوا بالكفار؛ في لباسهم وعاداتهم وأعيادهم وغير ذلك.

(٤) وهذا المرضُ يصيبُ القلبَ عندما يَضعُف تدَيُّن المرء وتَعبُّده لله، ويضعُفُ خوفه ومراقبته لله ﷻ؛ فيُولعُ بمحاكاة الكفَّار، والتشَبُّه بهم، والإعجاب بعاداتهم وغير ذلك. =

أخبرنا إبراهيم بن الهيثم الناقد: ثنا أبو معمر القطيعي: ثنا سفيان، عن الزهري، عن أبي سَلَمة[(١)]، قال: لو رَفَقْتُ بابن عباس لأصَبْتُ منهُ عِلمًا[(٢)].

= **والمُرادُ**: أن هذه القُلوبَ أصبحت لا فِقه فيهَا ولا دِين، ولا مراقبة لله، ولا خوف من عقابه، فحَالهم كمَنْ لا دِينَ له -والعياذ بالله-.

وهذا الحديث بهذا اللفظ غير ثابتٍ، ففيه ابنُ لهيعة؛ وهو سيئُ الحِفظ، وشيخهُ: جميل الأسلمي مجهول الحال، ولم يثبت لقاؤه بأحدٍ من الصحابة رضي الله عنهم.

وقد وردَ حديثٌ مشابهٌ له في المعنىٰ عن عبد اللهِ بنِ عَمرٍو رضي الله عنهما قال: قالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «**ليأتينَّ علىٰ النَّاس زمانٌ قلوبهم قلوب العجم**»، قلتُ: وما قلوبُ العَجَم؟ قال: «**حبُّ الدنيا، سنَّتُهم سُنَّةُ الأعْراب؛ ما أتاهم من رِزْقٍ جعلوه في الحيوان، يرونَ الجِهادَ ضَرَرًا، والزكاة مغرمًا**»، [أخرجه الطبراني في «المُعجَم الكبير» [(١٣/ ٣٦)، برقم (٨٢)] وصحَّحه الألباني في «السِّلسلة الصحيحة» (٣٣٥٧)].

(١) هو أبو سَلَمة بن عبد الرحمن بن عَوف، أحد الفُقهَاء السَّبعة في بعض الأقوال، وهو من جِلَّة الفقهاء وأكابر العُلماء، قد تلقَّىٰ العلم والفِقه عن عددٍ مِن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومنهم حَبْرُ هذه الأمة الصحابيُّ الجليل عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما.

(٢) هذا الأثر أخرجه الدَّارمي أيضًا في «السُّنن» (٤٢٦) وزَاد في آخره: «**كثيرًا**»، وهو يدلُّ علىٰ ما قرَّره المصنِّف في مطلع الباب؛ أنَّ رِفقَ الطالب بشَيخه ممَّا يعود علىٰ الطالب بمزيد الإفادة من شيخِهِ؛ لأنَّ الشيخَ إذا رأىٰ حُسنَ خُلُقٍ من أحد طُلابه زاد انبسَاطُهُ له، وأُنسُهُ به، وبهذا تزداد استفادَةَ الطالب منه، ولكن إذا كان الطالب مُجَادلًا، شديد التَّعامل، سيِّئ الأخلاقِ فإنَّ هذا أدعىٰ أن تقِلَّ استفادته من الشيخ.

وقد ذُكِرَ أنَّ أبا سلمة كان ذا نهمةٍ شديدة في تحصيل العلم، ورغبةٍ قويَّةٍ في التَّفقُّه، فكان لذلك يُناظرُ ابنَ عبَّاس في المسائل، لكنَّه نَدِمَ علىٰ ذلك أخيرًا، وقال عبارته السابقة. =

حدثنا أحمد بن سهل الأشناني: ثنا الحسين بن علي بن الأسود: ثنا يحيىٰ بن آدم: ثنا شريك، عن ليث، عن مجاهد في قوله: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، قال: «الفُقَهاءُ والعُلماءُ»(١)، وحدثنا يحيىٰ بن آدم، عن مفضل بن مهلهل، عن مغيرة، عن إبراهيم مثله.

ينبغي لمن لقَّنه الأستاذُ ألا يُجاوز ما لقَّنه، إذا كان ممَّنْ قد أحبَّ أن يتلقَّنَ عليه، وإذا جلسَ بين يدي غيره لم يتلقَّن منه إلا ما لقَّنَهُ الأستاذ؛ أعني بحرف غير الحرف الذي تلقَّنه من الأستاذ، فإنه أَعْوَدُ عليه وأصحُّ لِقراءته(٢).

= فقد يظنُّ الطالب -أحيانًا- أنَّ تطويل النِّقاشِ مع الشيخ، واستِعْجال الأمور ممَّا يُحصِّل به العلم، ولكنَّ الواقِعَ أنَّ هذه التَّصرُّفات قد تحول بينه وبين الفائدة، والعلم يُنال بالصبر والتأنِّي والحِلم والأدب.

(١) قد ورد عن السَّلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ في معنىٰ هذه الآية تَفسِيرَان: (**الأول**) أن المراد بأولي الأمر: العُلماء والفقهَاء، (**والثاني**): أن المُراد بأولي الأمر: الحُكَّام والأمَراء.

وكلا القَولين حَقٌّ وتشمله الآية، فالعلماءُ لهم طاعة بما آتاهُم الله عَزَّ وَجَلَّ من علم، والحُكَّام لهم طاعَة بمَا آتاهم الله من سُلطة وإمرَة وحُكم، ولا تَنتظمُ مصَالحُ المسلمين إلا بجَماعة، ولا جماعة إلا بإمامة، ولا إمامة إلا بسَمع وطاعة.

فلا تنتَظِمُ أمور الناس إلا بهذين الأمرين، وإلا لأصبح الناس في فوضَىٰ؛ فعدم الرجوع للعلماء وطاعتهم فيما يرشدون النَّاس إليه مآله ضياع الدِّين، وانفِلات الأخلاق، وعدم طاعة الحُكَّام والأمراء مآله إراقة الدِّماء، وخراب البِلاد.

فهذه أمور آخذٌ بعضُها ببعض ولابد منهَا، فقوله تعالىٰ: ﴿وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ يتناولُ: العلماء والفقهَاء، والحكَّام والأمراء، كلٌّ منهم له طاعَة جاء الأمر بها في كتابِ الله وسُنَّة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٢) أي: لا يَدخُل من بداية الأمر في الخلاف بين القراءات؛ فإن هذا يُؤدِّي إلىٰ الاختلافِ والاضطرابِ وعَدَم الضَّبط، **بل الأصلُ**: أن يكون تَلقِّيه علىٰ الشَّيخ الأول علىٰ حَرفٍ واحِد، حتىٰ يُتِمَّه ويضبطَهُ ويُتقِنَه، لينتَفِع وتصحَّ قراءته، ولا تشتبه بغيرها.

وقد قال النبي ﷺ: «**اقرؤوا كما عُلِّمْتُم**»[(١)]. حدثنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد: ثنا أبو هشام الرفاعي: ثنا أبو بكر بن عياش: ثنا عاصم، عن زر، عن عبد الله -يعني: ابن مسعود رضي الله عنه- قال: قلت لرجل: أقرئني من الأحقاف ثلاثين آية، فأقرأني خلاف ما أقرأني رسول الله ﷺ، فقلت لآخر: أقرئني من الأحقاف ثلاثين آية؟ فأقرأني خلاف ما أقرأني الأول، فأتيت بهما النبي ﷺ فغضب، وعلي ابن أبي طالب رضي الله عنه جالس، فقال علي رضي الله عنه: قال لكم: «**اقرؤوا كما علمتم**». [أخرجه أحمد (٨٣٤)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٢٢)]

وحدثنا ابن صاعد أيضًا: ثنا أحمد بن سنان القطان: ثنا يزيد بن هارون: أنا شريك، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله رضي الله عنه قال: أقرأني رسول الله ﷺ سورة، فدخلت المسجد، فقلت: أفيكم من يقرأ؟ فقال رجل من القوم: أنا، فقرأ السورة التي أقرأنيها رسول الله ﷺ، فإذا هو يقرؤها خلاف ما أقرأني رسول الله ﷺ، فانطلقنا إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: يا رسول الله، اختلفنا في قراءتنا، فتغير وجه رسول الله ﷺ، فقال عليٌّ رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ يقول: «**إنما هلك من كان قبلكم بالاختلاف، فليقرأ كل امرئ منكم ما أُقرِئَ**»[(٢)] [أخرجه أحمد (٣٩٧١)، بسنَدٍ جيِّد].

---

(١) أي: كُلٌّ يمضي على القراءة التي تلقَّاها، ويقرأ كما عُلِّم، وليحذروا من الاختلاف.

(٢) وحديث ابن مسعود أَصْلُهُ في [«صحيح البُخَاري» (٢٤١٠ و ٣٤٧٦)] قال: «سمعتُ رجلًا قرأ آية، سمعتُ من النبي ﷺ خلافها، فأخذت بيده، فأتيت به رسول الله ﷺ فقال: **كلاكما مُحْسِن**. قال: **لا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**».

ودلَّ الحديث على التَّحذير من الاختِلاف إذا كان لكُلِّ القولين أصلٌ شَرعي، وكلٌّ منهما حقٌّ، وقائمٌ على مُستنَد صحيح، وهذا يُسمَّى في الشريعة: «خلاف التنوُّع»، أي لا تضادَّ بين القولين، بل كلاهما صحيحٌ ثابتٌ، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «**كِلاكُما مُحْسِنٌ**»؛ أي: كِلَاكمَا مُصِيب، مأجورٌ في قِراءته.

وفي الشَّريعة العديد من المسائل هي مِن قبيل خلاف التَنوُّع، فهذا لا يجوز فيه الاختلاف والنَّكير، وأمَّا إذا كان الخلاف متضادًّا، كأن يكون أحد القولين لا أصل له في الشريعة، ولا دليل عليه في الكتاب أو السنَّة، فيَجبُ أن يُنكَر على مَن جاء به، ويُردَّ عليه قوله. =

مَنْ قَنَعَ بتلقين الأستاذ ولم يجاوزه، فبالحَرِيِّ أن يُواظِبَ عليه، وأَحَبَّ ذلك منه، فإذا رآه قد تلقن ما لم يلقنه زهد في تلقينه، وثقل عليه، ولم تحمد عواقبه(١).

وأحب له إذا قرأ عليه ألا يقطع حتىٰ يكون الأستاذ هو الذي يقطع عليه، وإن بدت له حاجته، وقد كان الأستاذ مراده أن يأخذ عليه مائة آية، فاختار هو أن يقطع القراءة في خمسين آية، فليخبره قبل ذلك بعذره، حتىٰ يكون الأستاذ هو الذي يقطع عليه(٢).

= فمن جاء بقراءات شاذة، لا تقُوم علىٰ أصول القراءة الصحيحة، فيجبُ الإنكار علىٰ مَن قرأ بها، ولا تُقبَل منه، بخِلافِ القراءات الثابتةِ الصَّحيحَةِ.

(١) أي: إذا استقرَّ الطالب علىٰ شيخٍ متقنٍ واحدٍ، ولم يُجاوزه إلىٰ غيره، فإنَّه حَرِيٌّ أن يعتادَ علىٰ المواظبة علىٰ مجلس القراءة، ويستفيد من الشيخ الفائدة المرجوَّة، وتنضبطَ الأمور عندهُ، ولا يحصل عنده التبَاسٌ أو اشتبَاهٌ.

بخلافِ ما إذا أخذَ عن شيخٍ مُقْرِئٍ ثمَّ تركَهُ إلىٰ غيره ظنًّا أنه أحسنُ منه، ثُم يترك الثَّاني لأنه وقفَ علىٰ شيخٍ أفضل، وهكذا، فيَضطَرِبُ، وتلتبس عليه القراءة، فلا يضبطُ منها حرفًا، وقد ينقطِعُ ولا يستمِرُّ في الحِفظ.

وإذا عَلمَ الشيخُ الأوَّل بهذا الفِعل فإنه قد يَزْهَدُ في إقرائه، وتقلُّ إفادته للطالب؛ لأن انتقال الطالب للقراءة علىٰ غيره مظنَّةٌ عدمِ استِمراره في القراءة عنده.

(٢) فإذا كانَ الشيخُ قد حدَّدَ له أن يقرأ مائةَ آية، فلا يقرأ أقلَّ ممَّا حدَّدَه الشيخ، ولو قُدِّر أنَّ عند الطالب شغلًا فعليه أن يخبرَ الشيخَ قبل بدء القِراءة، ولا يقطع قراءته فجأةً.

بل قبل أن يبدأ في القراءة يقول: (إنَّ القدر المخصَّص لي مائة آية، ولكنَّ اليوم عندي حاجة أريد قضاءها، فهل تأذن لي أن أقرأ خمسينَ آية فقط؟)، وعلىٰ هذه الحال سيكون الشيخُ هو مَن يقطعُ قراءته، فعندما يصلُ إلىٰ خمسين آية سيقول له: (حَسْبُكَ) ويأذن له أن ينصَرفَ لقضاء حاجته، فهذَا فيه من اللُّطفِ ما لا يَخفىٰ.

وينبغي له أن يُقْبِلَ على من يلقنه أو يأخذ عليه، ولا يقبلَ على غيره[١].

فإِنْ شُغِلَ الأستاذُ عنه بكلام لابدَّ له منه في الوقت مِنْ كلامِهِ، قطعَ القِراءةَ حتى يعودَ إلى الاسْتِماع إليه.

وأُحِبُّ له إذا انْقَضَتْ قراءته على الأستاذ، وكان في المسجد، فإن أحب أن ينصرف انصرف وعليه الوقار[٢]، ودرس في طريقه ما قد تلقن[٣].

وإن أحبَّ أن يجلسَ ليأخذ على غيره فعل[٤].

وإن جلس في المسجد، وليس بالحَضْرةِ مَن يأخُذُ عليه:

فإمَّا أن يركعَ، فيكتَسِبَ خيرًا، وإما أن يكون ذاكرًا لله تعالى، شاكِرًا له على ما عَلَّمَهُ مِنْ كِتابه.

وإما جالس يحبِسُ نفسَهُ في المسجد، يكرَهُ الخروجَ منه؛ خشية أن يقعَ بصَرُهُ على ما لا يَحِلُّ له، أو معاشرة من لم تحسن معاشرته، فجَلَسَ في المَسْجِدِ، فحُكْمُهُ أن يأخُذَ على نفسه في جلوسه في المسجد: ألا يخوض فيما لا يعنيه، ويحذر الوقيعة في أعراض الناس[٥].

---

(١) أي: لا بدَّ أن يُقبل الطالب حال القِراءة على الشيخ، وليس من الأدب أن يلتفتَ الطالبُ حال قِراءته إلى صاحبه أو زميله، بل يُقبِلُ على شيخِهِ ويقرأ.

(٢) أي: إذا انتهَى الطالب من القراءة على شَيخِهِ وأراد الانصراف فينبغي أن ينصَرفَ وعليه الوَقَار، فإنَّ هذا من تعظيم القرآن.

(٣) أي: يسْتَغِلُّ طريق عودته من مجلس الإقراء بأن يُكَرر ويَستذكرَ ما تَلقَّن وحَفِظَ.

(٤) أي: إذا كان في المَسجد حَلقَة علمٍ أخرىٰ في الفقه أو التفسير أو غير ذلك، فالأفضل أن يجلسَ فيها؛ حِفظًا لوَقته وتَحصيلًا للعلم والفائدَةِ.

(٥) فالمَسْجِدُ يُعتبرُ وقاية من كثيرٍ من الفِتن والمعاصي، كخُلطَةِ من لا تُحمَدُ خلطته ومُعاشرته، ومع ذلك فالذي يجلسُ في المسجدِ، ويُرابطُ فيه لابدَّ أن يتنبَّه للأمور التي أشار =

ويحذر أن يخوضَ في حديثِ الدنيا، وفضول الكلام، فإنه ربما استراحت النفوس إلىٰ ما ذكرت، مما لا يعود نفعُهُ، وله عاقبة لا تحمد[(١)]، ....

= إليها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فلا يُضيِّع وقتَه فيما لا يعنيه أو ما لا يُفيد، ولا يقع في المحرَّمات الشَّرعية، كالوقوع في أعراض المسلمين بالغيبة والاستِهزاء والسُّخرية، ونحو ذلك، فإنَّ هذه المناهي محرَّمة في أصلها، وحُرمتها في المسجد أعظم؛ لما للمسجد مِن مكانةٍ وحُرمة؛ ولأنَّ المساجِد إنما بنيت لإقامة ذكر الله، كما قال تعالىٰ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [النور:٣٦-٣٧].

فأثنىٰ الله علىٰ هؤلاء الرِّجال بأنَّهم يذكرون الله ويعبدونه في المساجد في أوَّل النَّهار وآخره، وأنهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، فلم يُقدِّموا رغباتهم وشهواتهم علىٰ طاعة ربِّهم وأداء حقِّه.

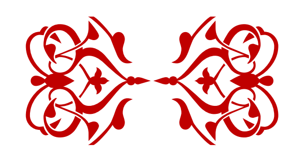
(١) وذلك لأن المساجِدَ لم تُبنَ لذَلك، رُغمَ أنَّ النُّفوس قد تستروح لمثل هذه الأحاديث واللَّعب والمِزاح، وتَجِدُ في هذه الأمور متعة، ولكن ثبتَ عن رسُول الله ﷺ أنه قال فيمَن ينشُدُ ضالَّتَهُ في المسجد: «...**فَإِنَّ المَسَاجِدَ لَم تُبنَ لِذَلِكَ**» [أخرجه مسلم (٥٦٨)].

وقد أخذَ أهلُ العِلم من هذا الحديث قاعدةً متعلِّقةً بالمساجد: أنه لا ينبغي أن يُستعملَ المسجدُ إلا لما بُنِيَ له، فالمساجِدُ بُنِيَت للصَّلاة والقُرآنِ والذِّكر والشُّكر والحَمد والعِلم والتعَلُّم والتفَقُّه، وأمَّا حديث الدنيَا والمَزح واللَّهو، فليس محلُّها المسجد، والاستِرواح بها قد يجرُّ إلىٰ أمورٍ لا تُحمَدُ عقباها علىٰ المسلم، وقد يزيدُ الأمر فيقَعُ العبدُ في المحرَّمات والمنكرات بسبب هذه الأحاديث وهو جالسٌ في المسجد؟!

ويدخُلُ فيما سبق اللَّهو والمحادثات الحاصلة في الهواتف والجوالات الحديثة، وما يتبعُ ذلك من التصاوير وظهور الموسيقىٰ من هذه الأجهزة في بُيُوت الله تعالىٰ!! =

ويستعمل من الأخلاق الشريفة في حضوره، وانصرافه ما يشبه أهل القرآن(١).

والله الموفق لذلك».



= وهذه للأسف من المصائب التي ابتُلي بها كثيرٌ من المسلمين في هذا الزمان، وصار أذاها لا يقتَصرُ على صاحِب هذا الجهاز، بل أذاها تعدَّاه إلى من حوله من المصلِّين والذَّاكرين، وأثَّرت على خشوعهم وعبادتهم.

(١) أي: يتحلَّى في حُضُوره للمَسجد، وحُضُوره في مجالس العلم، بأخلاق أهل القرآن التي تقدَّمت في هذا الكتاب، سواء كان شيخًا أم تلميذًا، ويستَصحِبُ هذه الأخلاق في انصِرافه من المسجد أو مجلس العِلم، فأهل القرآن قُدوة للنَّاس.

باب أدب القراء عند تلاوتهم القرآن مما لا ينبغي لهم جهله[(١)]

وأحب لمن أراد قراءة القرآن من ليل أو نهار أن يتطهر، وأن يستاك، وذلك تعظيم للقرآن[(٢)]؛ لأنه يتلو كلام الربِّ ﷻ[(٣)]، وذلك أن الملائكة تدنو منه عند تلاوته للقرآن، ويدنو منه الملك، فإن كان مُتَسَوِّكًا وضع فاه على فيه، فكلما قرأ آية أخذها المَلَكُ بفيه، وإن لم يكن تَسَوَّكَ تباعَدَ المَلَكُ منه[(٤)].

---

(١) عقَدَ المصنِّفُ ؒ هذا البابَ في بيان الآدابِ التي يَنبغي أن يتحلَّىٰ بها مَن يتلُو كتابَ الله ﷻ، فإنَّ التزامَ آدابِ تلاوة القرآن من تَعظيم كلام الله ﷻ، وكُلما كانَ العبدُ مُعظِّمًا لهذا القُرآن، مُتأدِّبًا بالآداب التي ينبغي أن يتحَلَّىٰ بها من يَقرأ القرآن؛ كان ذلك أمكنَ وأبلغَ في تحقيق الفائدة له، وحُصُول البركة والانتفاع بإذنِ الله ﷻ.

والمُصنِّف ؒ ساق جُملةً من الآداب العَظيمة نَثَرها في هَذا المَوضع، ثُم سَاق عليهَا ما تَيسَّر من النصُوص المأثُورة عن النبيِّ ﷺ، والأقوَال المَنقُولة عن السَّلف الصَّالح ؒ.

(٢) فيُستَحبُّ لمن أن أراد أن يَقرأ القُرآن أن يكون علىٰ طَهارة، وأن يُطيِّبَ فمَهُ بالسِّواك؛ لأنَّ الأفواه سِكَكُ القُرآن وطُرُقُه، فيَنبغي أن تكُونَ نَظيفَة، كما قال عَليُّ بن أبي طالبٍ ؓ: «إِنَّ أَفواهَكُم طُرُقٌ للقُرآنِ، فَطَيِّبُوها بالسِّواكِ» [أخرجه ابن ماجه (٢٩١)، وصححه الألباني].

والمَرءَ إذا جالس إخوانَه وأقاربه حَرِصَ علىٰ إزالة الروائح الكريهة من فمه، فتِلاوَةُ كلام الله ﷻ أولىٰ بذلك وأحرَىٰ وأجدَرُ، لاسِيَّما عند تغيُّر رائحَةِ الفَم، وعند القيام من النومِ.

(٣) وكلام الرَّبِّ عظيمُ القدر، وجليل الشَّأن، وتعظيمُهُ من تقوىٰ القُلوب، كما قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢]، فمِنْ تعظيم القرآن أن تكون تلاوته بعد إزالة الروائح الكريهة، وتطييب الفم وتنقيته.

(٤) وهذا سببٌ آخر لاستِحباب تغيير رائحة الفم الكريهة قبل تلاوة القرآن؛ وهو أنَّ المَلائكة تَدنُو منه عند تلاوَته للقرآن، وقد تتأذَّىٰ من رائحة الفم الكريهة، فقد صحَّ عن نبيِّنا الكريم ﷺ قال: «... **فإنَّ الملائِكةَ تتأذَّىٰ ممَّا يتأذَّىٰ منهُ بنو آدمَ**» [أخرجه مسلم (٥٦٤)].

=

فلا ينبغي لكم يا أهل القرآن أن تباعدوا منكم المَلَك، واستعملوا الأدب، فما منكم من أحد إلا وهو يكره إذا لم يتسوك أن يجالس إخوانه(١).

وأحِبُّ أن يكثرَ القراءة في المصحف، لفضل مَنْ قرأ في المُصْحَف(٢).

= فعلى التَّالي لكتاب الله أن يستحضِرَ أنَّ الملائكةَ تدنُو منه عند قراءة القرآن؛ فلا يؤذيهم بالرَّوائح الكريهة، فهو وإن لم يَرَ الملائكةَ بعينه إلا أنَّه على يقين من حضورهم ودُنُوِّهم، فالنبيُّ ﷺ أخبرَ أنَّ الملائكة تدنو وتقترب من مجالس العِلم والذِّكر.

فعن أُسَيدِ بن حُضَير، أنه كان يقرأ سورةَ البقرة في ليلةٍ، وكانت فرسُهُ مربوطةً في بيته، فكُلَّما قرأ من القرآن اضطَربَتْ فرسُهُ وهاجت، فإذا سَكَتَ عن القراءة هدأت الفرسُ، ورفعَ رأسَهُ إلى السماء فرأى مِثلَ الظُّلَّة وفيها أمثال المصابيح، فسأل النبيَّ ﷺ عن ذلك عندما أصبح، فقال له ﷺ: «**تلكَ الملائكةُ دَنَتْ لصَوْتك، ولو قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ ينظرُ النَّاس إليها، لا تَتَوارى مِنْهم**». [أخرجه البخاري (٥٠١٨)]

(١) فكما يتحرَّى المسلمُ الأدبَ مع النَّاس فواجِبٌ عليه أن يتأدَّب مع الملائكة الكِرام في ضَوءِ ما جاءت به الأدلة عن رَسُول الله ﷺ.

(٢) فيُستَحبُّ أن يقرأ من المُصحفِ نظرًا وإن كَان يَحفَظُ القرآنَ عن ظَهرِ قَلبٍ، وذلك لأنه يَجتمعُ له عندمَا يقرَأ في المُصحَف أمرانِ: القرَاءَةُ والنَّظَرُ في المُصحَف؛ فلسانُهُ يتلو القرآن، وعينُهُ تنظُرُ إلى كلام الله ﷻ في المُصحَف، فكُلٌّ من اللِّسان والعَين في عبادة.

وقد ورد حديثٌ مرفوعٌ بلفظ: «**النَّظَرُ في المُصحَفِ عِبادَةٌ**»، ولكنَّه حديثٌ شديدُ الضَّعف، وقد حكمَ عليه بعضُ أهل العِلم بالوَضْع. [انظر: «السلسلة الضعيفة» (٣٥٦)].

وهذا الحديث وإن كان غير ثابتٍ، إلا أنَّ معناه حَقٌّ بلا ريب، فنظَرُ العين في المصحف مع التأمُّل في معاني القرآن والتفكُّر فيها عبادةٌ يؤجر عليها فاعِلها، ولكنَّه لا يُحصِّل بذلك أجر التِّلاوة، فإنْ جمعَ بين التِّلاوة والنَّظر في المصحف فقد جمعَ بينَ الخيرين. =

ولا ينبغي له أن يحملَ المُصْحَفَ إلا وهو طاهر[١]، فإن أحبَّ أن يقرأَ في المصحف على غير طهارة[٢]، فلا بأس، ولكن لا يمَسَّهُ[٣]، ولكن يصفح المصحف بشيء[٤]، ولا يمَسُّهُ إلا طاهرًا.

وينبغي للقارئ إذا كان يقرأ فخرجت منه ريحٌ؛ أمسك عن القراءة حتى تنقضيَ الريحُ[٥]،

= وهذا الذي ذكره المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ -من تفضيل القراءة في المُصحَف وإن كان حافظًا له- هو المَشهُور عن السَّلف كما نبَّه على ذلك الحافِظُ النَّووي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «الأذكَار» (ص١٠٧).

ولكن يُنَبِّه أهلُ العلم في هذا المقام: أنَّ التفضيلَ المتقدِّم في حال تساوي الأمر عند القارئ من جهة التدبُّر والخشوع؛ لأنَّ الغايةَ الكبرىٰ مِن قراءة القرآن هي التفكُّر والخشوع والاتِّعاظ، فإن كانت القراءة من الحِفظ هي الأقرب لخشوع القارئ ولانتفاعه فهي أفضل من القراءة بالمصحف، وإن استوىٰ الأمران فالأفضَل القراءة من المُصحَف -كما تقدَّم-.

(١) أي: من الحدثين؛ الأكبَر والأصغَر.

(٢) الطهَارة المَنفيَّة في هذا الموضع هي الطهَارة من الحَدَث الأصغَر لا الأكبَر؛ لأنَّ الجُنُبَ ليس له أن يَقرأ القرآن؛ سواء من المُصحَف أو من حفظه.

(٣) أي: إن كان على غير طهارة من حدثٍ أصغر فلا بأس أن يقرأ القرآن بدون أن يمسَّ المصحف، كأن يكون المصحفُ مفتوحًا أمامه وهو ينظر فيه ويقرأ، أو كالقراءة من الأجهزة الحديثة الإلكترونية.

(٤) أي: لا بأسَ أن يُقَلِّبَ صفحَاته بشَيءٍ؛ إما عُود يكون في يَدِه، أو قَلم، أو نَحو ذلك، والمحظور هو أن يُبَاشر لَمس المُصحَف بِيَده وهو على غَير طَهَارة؛ لقول النَّبي ﷺ فيمَا كَتَبه لعَمرِو بن حَزم: «**ألا يَمَسَّ القُرآنَ إلا طاهِرٌ**» [أخرجه مالك في «الموطأ» (٤٦٨)، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (١٢٢)].

(٥) أي: إذا كان القَارئ يَقرأ القُرآن وخَرَجَتْ منه رِيحٌ، فينبغي له أن يُمسكَ عن القراءة وقتَ خُروج الرِّيح؛ أدَبًا مع كتَاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتَعظيمًا له، فإنْ توضأ بعده فهو أفضل، وإن أكمل القراءة بدون وُضوء فلا بأس عليه، ولكن لا يمس المصحف.

ثم إنْ أَحَبَّ أن يتوضأ ثم يقرأ طاهرًا فهو أفضل، وإن قرأ غير طاهر فلا بأس به(١).

وإذا تثاءب وهو يقرأ، أمسك عن القراءة حتىٰ ينقضي التثاؤب عنه(٢).

ولا يقرأ الجنب ولا الحائض القرآن، ولا آية، ولا حرفًا واحدًا(٣).

وإن سبَّحَ، أو حَمِدَ، أو كبَّر، أو أذَّنَ، فلا بأسَ بذلك(٤).

---

(١) لما تقدَّم آنفًا من أنَّ قِراءَةَ القرآن من حدثٍ أصغر لا بأس بها، ولكن لا يمس المصحف بيده.

(٢) فالسُّنَّة إذا عرَضَ له التثاؤب أثناء القِراءة؛ أن يتوقَّف عن التِّلاوة، ثمَّ يُحاوِلَ منعَ التثاؤب، فإن لم يمكنه منعه، أغلق فمَهُ وقتَ التثاؤب ما استَطاعَ، فإنْ لم يتمكَّن منه واضْطُرَّ إلىٰ فتح فمه أغلقَ فمَهُ بيدِهِ.

ومِن الخَطأ الشائعِ ما أشار إليه المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ من أنَّ بعضَ الناس لا يتوقَّف عن قراءة القرآن أثناء التثاؤب ممَّا ينتج عنه أمران:

* الإتيان بالآيات في حال التثاؤب وهذا فيه عدمُ مُراعاة الأدبِ مع القرآن.
* تَفويتُ حُسْنِ التلاوة للقُرآن؛ وكمال الأداء؛ فإن الذي يقرأ الآيات أثناء التثاؤب لا يَأتي بالحروف والمخارج مستقيمةً، وقد يترتَّب عليها لحنٌ في القِراءة.

(٣) وسَيذكر المصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ فيما يأتي الدليلَ علىٰ منع الحائض والجنب من قراءة القرآن.

(٤) قال: «**وإن سَبح**»؛ أي: الجُنُب، وكذلك الحائض، «**أو حَمِدَ أو كَبَّر أو أذَّن فلا بأسَ بذَلك**»؛ لأنهُ ليس من شَرط ذلك الطهَارة، لكن الإتيَان بها علىٰ طهارَة أتمُّ وأكمَلُ.

ولا يدخُل التسبيح والتحميد والتكبير، وكذا الأوراد والأذكار التي يقولها المسلم عند حصول دواعيها وأسبابها فيما يُمنع قراءته علىٰ الحائض والجنب؛ لأنهُ لا تشترط الطهارة لهذه الأمور، وإن كان الإتيان بها علىٰ طهارَة هو الأتمُّ والأكملُ.

وأُحِبُّ للقارئ أن يأخُذَ نفسَهُ بسجود القرآن؛ كُلَّما مَرَّ بسجدةٍ سَجَدَ فيها[(١)].

وفي القرآن خمس عشرة سجدة، وقيل: أربع عشرة، وقد قيل: إحدىٰ عشرة سجدة[(٢)].

والذي أختار أن يسجد كلما مرت به سجدة، فإنه يرضي ربه ﷻ، ويغيظ عدوه الشيطان.

روي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة، فسجد، اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله؛ أُمِرَ ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأُمِرْتُ بالسُّجود فعصيت، فلي النار» [أخرجه مسلم (٨١)].

---

(١) فسجدةُ التِّلاوة ليست بواجبة، بل هي من المستحبَّات، ولكن ينبغي علىٰ قارئ القرآن أن يأخُذَ نَفسَهُ بالحَزم فيجتَهِدَ بأن لا يُفوِّتَ هذه السَّجدة المُباركة، فيسجُدُ في كُلِّ موضعٍ يُشرع السُّجود فيه عند القراءة، فإنَّ في المحافظة علىٰ هذه السَّجدة فضيلتين:

(**الأولىٰ**) طاعة الله تعالىٰ، وامتثال سنَّة النبيِّ ﷺ فينال بذلك رضا الله تبارك وتعالى.

(**الثانية**) إغاظة الشَّيطان، وإرغامٌ له، كما سيُبيِّنه المصنِّف رحمه الله قريبًا.

(٢) اتَّفق العُلماءُ علىٰ عشرة سجدات، واختلفوا في خمسة، والرَّاجِحُ أنَّها سجدات ثابتة، والخمس التي وقع فيها خلاف؛ هي الثَّلاثة التي في المُفَصَّل، وسَجدة (ص): ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ۩﴾ [ص:٢٤]، والسَّجدة الثانية في آخر سُورَة الحَج.

وقد جمع الشيخ حافظ الحكمي رحمه الله سجدات التِّلاوة الخمسة عشر بقوله:

نَسْجُدُ في خمسة عشر موضِعا ... إنْ نقرأِ القرآنَ نصًّا رُفِعَا

الاعْرافُ رَعْدٌ نَحلُ الاسْرَاءُ كذا ... مريمُ مع سَجْدَتي الحَجِّ خُذا

فرقانُ مَعَ نَملٍ وسَجْدةٍ تلي ... صادٌ وفُصِّلَتْ، وفي المُفَصَّلِ

نصًّا ثلاثُ سَجَداتٍ قد أتتْ ... نَجْمٌ والانْشِقاقُ واقرأ ثَبَتَتْ

وأُحِبُّ لمن كان يدرس وهو ماش في طريق(١)، فمرت به سجدة أن يستقبل القبلة، ويومئ برأسه بالسُّجود، وهكذا إن كان راكبًا فدَرَسَ، فمرَّتْ به سجدة سجد، يومئ نحو القبلة إذا أمكنه(٢).

وأُحِبُّ إن كان جالسًا، أن يستقبلَ بوجهه القبلةَ إذا أمكنه ذلك(٣)؛ لقول النبي ﷺ: «خيرُ المجالس ما استُقْبِلَ به القبلة(٤)». [أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٧٨١) وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٢٧٨٦)]

وأُحِبُّ لمن تلا القرآن أن يقرأ بحزن ويَبْكي؛ إن قَدِر، فإن لم يَقْدِر تباكى(٥).

---

(١) فقراءة القرآن تجوز في كُلِّ حال، سواءٌ كان المرءُ ماشيًا أم رَاكبًا أم مُضطجعًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران:١٩٩]، وأكملُ الهيئات أن يقرأه جالسًا، مستَقبِلًا للقِبلة -كما سيُبيِّنه المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ-، وما سِوَاه جائزٌ.

(٢) أي: إذا لم يتيسَّر له السجودُ بِوَضع الجبهَةِ علىٰ الأرضِ، فإنه يُومِئُ برأسه إيمَاءً، كما يومئ في سجود النافلة في السَّفر.

(٣) فأفضل الجِهات التي يستقبلها من يريد قراءة القرآن هي القِبلة؛ لأنها وِجهَة المُسلمين في صَلاتِهِم، وهي أكملُ الوجهات في الدُّعَاء والمُناجاة لرَبِّ العالمين جَلَّ وَعَلَا.

(٤) سبقَ ذكر الحَديث عند المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص: (١٢٩)، وسَبَقت الإشارة إلىٰ ضَعفه.

ولكنَّ معناه صحيحٌ بلا ريب، فإنَّ الأكملَ والأتمَّ في قِرَاءة القُرآن والذِّكر والدُّعاء أن يكُونَ المَرء مُستقبلًا للقِبلَة، وصحَّ عن النَّبي ﷺ أنه قال: «**إنَّ لِكُلِّ شيءٍ سَيِّدًا، وإنَّ سَيِّدَ المجالِسِ قُبالَةُ القِبلَةِ**». [أخرجه الطبراني «المعجم الأوسط» (٢٣٥٤) وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٤٥)].

(٥) قال العلامة ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وصف البُكاء الذي يكون عند قراءَةِ القرآن: «وهو بكاءُ اشتياقٍ ومَحبَّةٍ وإجلالٍ مُصَاحبٌ للخوفِ والخَشيَة». [«زاد المعاد» (١/ ١٧٦)]

لأن البكاء تارةً يكون عن مَحبَّة وفَرَح بالشَّيء والسُّرور العَظيم به، وتارة يكُون البكاء عن هَيبَةٍ وخوفٍ.

=

وأُحِبُّ له أن يتفكر في قراءته، ويتدبر ما يتلو(١)، ويستعملَ غَضَّ الطرفِ عما يُلْهِي القلوبَ(٢)، وأن يترك كلَّ شغل حتى ينقضِيَ درسُهُ، كان أحبَّ إليَّ، ليحضر فهمه، ولا يشتغل بغير كلام مولاه(٣).

وأحبُّ إذا درسَ، فمرت به آية رحمة، سأل مولاه الكريم(٤)، ....

= وبيَّن المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ الأفضلَ أن يقرأ القرآن بحُزْنٍ ويبكي، فإن لم يمكنه البُكاء تباكى، وقد وردَ في هذه المسألة حديثٌ لكنَّه ضعيفٌ لا يثبت، وهو قوله ﷺ: «**إنَّ هذا القُرآنَ نزلَ بِحُزنٍ، فإذا قَرَأتمُوهُ فابكُوا، فإن لم تَبكُوا فتباكوا، وتغَنَّوا بِهِ فَمَن لَم يَتَغَنَّ بِهِ فَلَيسَ مِنَّا**» [أخرجه ابن ماجه (١٣٣٧) وضعفه الألباني].

(١) لأنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يقول: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

ويقول تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

فأهمُّ ما ينبغي على المسلم عندَ قراءَة القرآن أن يتفكَّرَ في المعَاني والدِّلالات والأمثَال المَضرُوبة في كتابِ الله جَلَّ وَعَلَا حتَّى يَعقل عن الله الخطَاب، ويَفهم المراد.

(٢) فما جعل الله جَلَّ وَعَلَا لرجل من قَلبَين في جَوفه، فإذا كان يقرأ القرآن، وهو مطلقٌ بصرَهُ لكلِّ من جاء وذهب كيفَ سيتفكَّرُ في معاني الآيات، وكيف سيتدبَّر كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟!

ولهذا كانت القِراءةُ من المُصحَف أفضل من القراءة عن ظهر قلب؛ لأنَّ فيها حفظًا للبَصر عن النَّظر لغير كلام الله تعالى؛ وهذا -بلا شك- أعونُ للقلب في تَحقيق التدبُّر والخُشوع وعَقل الخطَاب.

(٣) ومن ذلك ما يفعله بعضهم من العَبَثِ في الجوَّالِ أثناء قراءته، فهذا -لا شكَّ- ممَّا يُبعِدُ عن التدبر للقرآن والتأثُّر به.

(٤) فيقول: اللهُم إني أسألك من فَضلك.

وإذا مرت به آية عذاب استعاذ بالله ﷻ من النار(١)، وإذا مر بآية تنزيه لله تعالىٰ عما قاله أهل الكفر سبَّحَ الله -جلَّت عظمته-(٢)، وإذا كان يقرأ، فأدركه النعاسُ، فحكمه أن يقطع القراءة ويرقد، حتىٰ يقرأه وهو يعقل ما يتلوه(٣).

قال محمد بن الحسين رحمه الله: جميعُ ما أَمرتُ به التالي للقرآن موافق للسنة وأقاويل العلماء، وأنا أذكر منه ما حضرني إن شاء الله.

حدثنا الفريابي: ثنا قتيبة بن سعيد: ثنا الليث بن سعد: ثنا عقيل بن خالد، عن الزهري قال(٤): قال رسول الله ﷺ: «إذا تسوك أحدكم، ثم قام يقرأ، طاف به الملك يستمع القرآن حتىٰ يجعل فاه علىٰ فيه، فلا تخرج آية من فيه إلا في في الملك، وإذا قام يقرأ ولم يتسَوَّك، طاف به الملك، ولم يجعل فاه علىٰ فيه(٥)».

---

(١) فيقول: اللهُم إنِّي أعوذُ بك من النار، أو أستَعيذُ بالله من عذابه، أو اللهم أعذني، ونحوها.

(٢) أي: إذا مرَّ بآيةٍ فيها ذكرٌ لما يضيفُه أعداء الله من النقائص والعُيوب كقولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [سورة البقرة:١١٦]، وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤] فإنه يقول: سبحان الله!

ومعناه: أُنَزِّه الله، وأُقَدِّسه عن جميع النَّقائص والعُيوب.

وهذا المَعنىٰ الذي ذكره المصنِّف رحمه الله ورد في حديث حُذَيفَةَ بن اليمان رضي الله عنه قال: «صَلَّيتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذاتَ ليلة، فافتتحَ البقرَةَ، فقلتُ: يركعُ عند المائة، ثم مضىٰ، فقلتُ: يصلي بها في ركعة، فمضىٰ، فقلتُ: يركعُ بها، ثم افتتحَ النِّساءَ، فقرأها، ثم افتتحَ آلَ عِمران، فقرأَها، يقرأُ مترسِّلًا، إذا مرَّ بآية فيها تَسْبيحٌ سَبَّحَ، وإذا مَرَّ بسؤال سأل، وإذا مَرَّ بتعوُّذٍ تعوَّذَ...» [أخرجه مسلم (٧٧٢)].

(٣) وسيأتي بحثُ هذه المسألة عند الحديث المتعلِّق بها من كلام المصنِّف (ص: ١٧٠).

(٤) وإسنادُ هذا الحديث صحيحٌ إلىٰ الزُّهري؛ لكنَّه مُرسَلٌ.

(٥) لأنَّ المَلائكةَ تتأذىٰ مما يتأذَّىٰ منه ابنُ آدم -كما سبق بيانُه-(ص: ١٦١).

حدثنا الفريابي: ثنا قتيبة: ثنا سفيان بن عيينة، عن الحسن بن عبيد الله النخعي، عن سعد ابن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن السلمي: أن عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يحث عليه، ويأمر به -يعني: السواك-، وقال: إن الرجل إذا قام يصلي، دنا الملك منه يستمع القرآن، فما يزال يدنو منه حتى يضعَ فاهُ على فيه، فما يلفظ من آية إلا دَخَلَتْ في جَوْفِهِ»[(١)].

حدثنا أبو محمد عبد الله بن العباس الطيالسي: ثنا إسحاق بن منصور الكَوْسَج قال: قلت لأحمد: القراءةُ على غير وضوء[(٢)]؟ قال: لا بأسَ بها، ولكن لا يقرأ في المُصْحَفِ إلا متوضئٌ.

قال إسحاق -يعني: ابن راهويه-: هو كما قال سنة مسنونة».

حدثنا أبو نصر محمد بن كردي: ثنا أبو بكر المَرُّوذيُّ قال: كان أبو عبد الله[(٣)] ربما قرأ في المُصْحَفِ وهو على غير طهارة، فلا يَمَسُّهُ، ولكن يأخُذُ بيده عودًا، أو شيئًا يصفح به الورق.

حدثنا عبد الله بن العباس الطيالسي: ثنا المشرف بن أبان: ثنا ابن عيينة، عن زرٍّ قال: قلت لعطاء: أقرأُ القرآنَ فيَخْرُجُ منِّي الرِّيحُ؟ قال: تُمْسِكُ عن القِراءَةِ حتى تنقضِيَ الريحُ[(٤)].

حدثنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد: ثنا الحسين بن الحسن المروزي: أنا عبد الله بن المبارك: ثنا عثمان بن الأسود، عن مجاهد قال: إذا تثاءَبْتَ وأنت تقرأ، فأَمْسِك حتى يذهبَ عنك[(٥)].

---

(١) وهذا الأثر عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمعنى الحديث السَّابق، وقد أخرجه أيضًا ابنُ أبي شيبة في [«المصنف» (١٧٩٩)]، وعبد الرزاق في [«المصنف» (٤١٨٤)]، والبزار في [«مسنده» (٦٠٣)]، وإسنادُهُ ثابتٌ، وهو وإن كان موقوفًا إلا أنَّ له حُكمَ الرَّفع؛ لأنَّ فيه إخبارًا عن أمور غيبيَّة لا تُقال بالرَّأي، وقد صحَّحَ الألباني رفعَهُ [في «السلسلة الصحيحة» (١٢١٣)].

(٢) أي: ما حُكمُها، وتقدَّم الكلام على هذه المسألة (ص: ١٦٣).

(٣) أي: الإمامُ أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٤) تقدَّم الكلام على هذه المسألة أيضًا (ص: ١٦٣).

(٥) تقدَّم الكلام على هذه المسألة (ص: ١٦٤).

أخبرنا أحمد بن يحيىٰ الحلواني: ثنا محمد بن الصباح الدولابي: ثنا وكيع: ثنا هشام، عن أبيه، عن عائشة ﵂: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا نعس أحدكم فليرقد، فإنَّ أحدَكم يريدُ أن يستغفرَ، فيسُبُّ نفسَهُ(١)**»** [أخرجه البخاري (٢١٢)، ومسلم (٧٨٦)].

حدثنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز: ثنا علي بن الجعد: ثنا شعبة: أخبرني عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن سَلِمة يقول: دخلتُ علىٰ علي بن أبي طالب ﵁ فقال: كان رسولُ الله ﷺ لا يَحْجُبُهُ -أو قال: لا يَحْجُزُه- شيءٌ عن قراءة القرآن، إلا الجنابة(٢)**»**. [أخرجه أبو داود (٢٢٩)، وضعفه الألباني]

---

(١) دلَّ الحديثُ أنَّ النعَاسَ يُضعِفُ الإِدْراكَ والشُّعُورَ عند المَرْءِ، وقد تَخرُج منه كَلمات غير مُنضَبطة أو لا تليقُ حالَ نُعاسه.

فمِن تَعظيم القُرآن: أن يقطعَ الإنسانُ القراءةَ إذا غَلبَهُ النُّعَاسُ ليأخُذَ حظَّهُ من الرَّاحة والنَّوم، ثمَّ يواصِلُ قِراءَته بعد ذلك.

(٢) دَلَّ الحديثُ علىٰ أن الجُنبَ لا يجوزُ له أن يقرأَ القُرآن وهُو علىٰ جنابتِهِ؛ بل عليه أن يرفَعَ عن نفسِهِ الحَدَثَ بالغُسل.

لأنَّ قولَهُ: «**إلا الجنابة**» أي: أنها تحجُزُ النبيَّ ﷺ عن قراءة القرآن، وهذا ظاهِرٌ في أنَّ الجُنُبَ ليس له أن يقرأ القُرآن.

وحديثُ عليِّ بن أبي طالب في إسنادِهِ عبدُ الله بن سَلِمَة؛ وهو صدوقٌ تغيَّر حفظه، ولهذا ضعَّف بعضُ أهل العلم الحديثَ لأجله، ولكنَّ كثيرًا من العُلماء يُثبِتونَهُ ويحتجُّون به، لاسيَّما وقد وردت أحاديثُ أخرىٰ بمعناه، وهي وإن كانت لا تخلو من مقالٍ في أسانيدها، ولكنَّها تتقوَّىٰ بمجموعها.

وتقدَّم أنَّ الحكمَ مقصورٌ علىٰ قراءة القرآن للجنُبِ، وأمَّا إذا سَبَّح الله ﷻ، أو هَلَّل، أو حَمِدَ الله، أو كَبَّر، أو دَعا الله ﷻ، أو جَاء بالأذكَارِ والأوراد المَسنُونة، فلا بأس بذلك.

أخبرنا أحمد بن يحيىٰ الحلواني: ثنا يحيىٰ بن عبد الحميد الحمامي: ثنا إسماعيل بن عياش، عن موسىٰ بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقرأ الجنب ولا الحائض شيئًا من القرآن(١)» [أخرجه الترمذي (١٣١)، وضعفه الألباني في «إرواء الغليل» (١٩٢)]

---

(١) دلَّ هذا الحديثُ علىٰ ما دلَّ عليه الحديث السَّابق؛ مِن كون الجنُبِ لا يجوزُ له أن يقرأ شيئًا من القرآن حتىٰ يغتسلَ ويرفع الحدث.

وزاد في هذا الحديث المرأة الحائض؛ أي: لا يحلُّ لها أن تقرأ شيئًا من القرآن حتَّىٰ تتطهَّر من حيضها، ومِثْلُها النُّفساء، ولكنَّ حديثَ ابنِ عمر ضعيف الإسناد، بل قال فيه شيخُ الإسلام ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حديثٌ ضَعيفٌ باتِّفاق أهل المَعرفَة بالحَديثِ؛ روَاه إسمَاعيلُ بن عيَّاش عن مُوسَىٰ بن عُقبَة عن نَافع عن ابن عُمَر، وأحاديثُهُ عن أهلِ الحِجَاز يَغلطُ فيها كَثيرًا».

[«مجموع الفتاوىٰ» (٢٦/ ١٩١)]

ومسألةُ قراءة الحائض والنُّفساء للقرآن فيها خلافٌ بين أهل العِلم:

فمن أهل العِلم من يَرىٰ عدمَ جَواز قراءَةِ الحائض والنفسَاء للقُرآن كالجُنُب؛ لحديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا السابق، وتقدَّم أنه لا يصحُّ إسناده.

ومنهم من يَرىٰ جوازَ قِراءتها للقرآن من غير أن تَمَسَّ المُصحَف؛ فتقرؤه من حِفظِها، أو تنظرُ في المُصحَف دُون مسٍّ له؛ لأنه لا يَمَس القرآن إلا طَاهر؛ وهذا القول هو الصحيح، لأمور عِدَّة:

❊ **أولا**: لعدم ثبوت الحديث الذي ورد فيه ذكر الحائض والنُّفساء.

❊ **ثانيًا**: أنَّ مُدَّة الحَيضِ والنِّفاس طويلة جدًّا، وهي محتاجةٌ إلىٰ قراءة القرآن ومُراجعة حفظها، فلو تركَتِ النُّفساء القرآن أربعين يومًا لضَاع منهَا كَثيرٌ من القرآن.

❊ **ثالثًا**: أنَّ الجنُبَ جَنَابتُه بيده، فمتىٰ تيسَّر له أن يرفع الحدث اغتسلَ وقرأ القرآن، بخِلاف المَرأة الحائضِ والنُّفَساء فليسَت طهارتها بِيدها، فكان من يُسر الشَّريعة وسماحتها أن رخَّصت لها بالقراءة.

=

قالَ محمد بن الحسين: جميعُ ما ذكرتُهُ ينبغي لأهل القرآن أن يتأدبوا به، ولا يغفلوا عنه(١)، فإذا انصرفوا عن تلاوة القرآن اعتبروا نفوسهم بالمحاسبة، فإن تبينوا منها قبول ما ندبهم إليه مولاهم الكريم؛ مما هو واجب عليهم من أداء فرائضه، واجتناب محارمه، حمدوه في ذلك، وشكروا الله ﷻ على ما وفقهم له(٢)، وإن علموا أن النفوس معرضة عما ندبهم إليه مولاهم الكريم، قليلة الاكتراث به؛ استغفروا الله ﷻ من تقصيرهم، وسألوه النقلة من هذه الحال، التي لا تحسن بأهل القرآن، ولا يرضاها لهم مولاهم، إلى حال يرضاها، فإنه لا يقطع من يلجأ إليه(٣).

= **قال شيخُ الإسلام ابن تيميَّة** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وليس في مَنعِها من القُرآن -أي: المَرأة الحَائضُ- سُنَّة أصلًا، فإن قولَه: «**لا تَقرأ الحَائض ولا الجُنُبُ شَيئًا من القُرآنِ**» حديثٌ ضَعيف باتِّفاق أهل المَعرفَة بالحَديثِ». [«مجموع الفتاوىٰ» (٢٦/ ١٩١)]

وسُئلت اللجنة الدائمة للإفتاء عن هذه المسألة فكان جوابهم: «أمَّا قراءة الحائض والنفسَاء للقرآن بلا مَسٍّ للمصحف **فلا بَأس به في أَصَحِّ قَولَي أهل العلم**؛ لأنه لم يَثْبُتْ عن النبيِّ ﷺ ما يمنعُ من ذَلك». [«فتاوىٰ اللجنة الدائمة» (٤/ ١٠٩- المجموعة الأولىٰ)]

(١) أي: جميعُ ما ذكرتُه من آداب التلاوة ينبغي علىٰ كلِّ مَن يتلو كتاب الله ﷻ أن يتأدبَ بها، وألَّا يغفَلَ عنها، وأن يَحرِصَ عليها.

(٢) أي: إذا انتهىٰ التالي من وِردِه في القرآن فعليه أن يُحاسِبَ نفسَهُ في ضوء الآيات التي تلاها؛ هل انتفع بها؟ وهل هو مُلتزمٌ بما فيها من هدايات وأحكام، فإن كان قد وجدَ أنَّه من العاملين بها حَمِدَ الله ﷻ وشكره علىٰ هذه النِّعمة.

(٣) أي: مَن حاسبَ نفسَهُ بعد تلاوة القرآن ووجَدها مفرِّطةً في جنب الله ﷻ، عاملةً بخلاف الآيات التي تلاها فالواجبُ عليه أن يستغفر ربَّه من تفريطه، وأن يلجأَ إليه، ويسأله الإعانة علىٰ القيام بها، فإنَّ الله لا يردُّ من دعاه، ولا يُخيِّبُ مَن ناجاه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ومن كانت هذه حاله، وجد منفعة تلاوة القرآن في جميع أموره، وعاد عليه من بركة القرآن كل ما يحب في الدنيا والآخرة إن شاء الله(١).

حدثنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد قال: ثنا الحسين بن الحسن المروزي: ثنا عبد الله بن المبارك قال: أنا همام، عن قتادة قال: «لم يُجَالس هذا القرآن أحدٌ إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، قضى الله الذي قضى: ﴿شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾(٢)».

أخبرنا إبراهيم بن موسى الجوزي: ثنا يوسف بن موسى القطان: ثنا عمرو بن حمران، عن سعيد، عن قتادة في قول الله ﷻ: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾، قال: البلد الطيب: المؤمن سمع كتاب الله، فوعاه وأخذ به، وانتفع به؛ كمثل هذه الأرض أصابها الغيث، فأنبتت وأَمرَعَتْ(٣)، ....

---

(١) أي: من التزم الطَّريقة السابقة في كلِّ مرةٍ يقرأُ فيها القرآن –بأن يُحاسِب نَفسَه؛ هل هو عَاملٌ بما تلا من آيات فيحْمَدِ الله، أو هو مقصِّرٌ فيستغفر من ذلك– فإنَّه سينتفع انتِفاعًا عظيمًا، وسترجع عليه بركات القرآن ونوره وهداه في دنياه وأخراه.

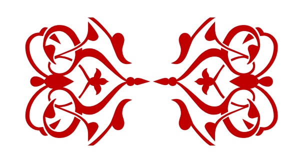
(٢) أي: لم يُجَالس القرآن أحدٌ بالتِّلاوة والقرَاءَة إلا كان أحد رجُلين؛ إمَّا أن يتدبَّر آياته فتزيده إيمانًا وانتِفاعًا، أو يتلوه ولا يبالي بوَعْده ووَعيده وأحكامه، ويستمرُّ في بُعدِه عن الله ﷻ، فتكون هذه الآيات حجَّةً عليه، ويزداد تفريطُهُ، وينقُصُ إيمانُهُ بذلك.

(٣) في هذا المَثَلِ تشبيهٌ للمؤمن بالبلد الطَّيِّب؛ والمراد بالبلدِ الطيِّب: الأرضُ الطيبةُ الخَصْبة، فإنَّها إذا أنزل اللهُ عليها الماء اهتزَّت وربَت وأنبتَتْ من كُل زَوجٍ بَهِيج، فكذلك قَلْبُ المؤمن الطيِّب فإنه إذا قرأ القرآن ودخلَ في جوفه، أثمر في قلبِه الإيمانَ، وفي جوارحِه العملَ الصالح.

ولهذا سَمَّى الله ﷻ وَحيَهُ رُوحًا، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾؛ لأن به حياة القُلُوب، كما أنَّ الماء حياةٌ للأرض الميِّتة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾.

﴿وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف:٥٨] أي: إلا عسرًا، فهذا مثل الكافر قد سمع القرآن، فلم يعقله، ولم يأخذ به، ولم ينتفع به، كمثل هذه الأرض الخبيثة أصابها الغيث، فلم تنبت شيئًا، ولم تَمْرَعْ شيئًا(١)».



(١) أي: ومثل الكافر عندَما يسمعُ الآياتُ منَ القُرآن فإنه لا ينتفع بها، ولا تُثمرُ شيئًا في قلبه؛ فهو كالأرض الخبيثة التي لا نفعَ فيها، فمهما سُقيَت بالماء فإنها لا تُنبِتُ ولا تُخصِبُ شيئًا، بل قد يزدادون طُغيانًا واستِكبارًا وبعدًا عن الله تعالى.

قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥]

بابٌ فِي حُسنِ الصَّوتِ بِالقُرآن(١)

أخبرنا الفِريابيُّ: ثنا صَفوان بن صالح: ثنا محمد بن شُعيب: أنا الأوزاعيُّ، عن إسماعيلَ ابن عبيد الله: أنه حدَّثَه عن فَضالةَ بن عُبَيد ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشدُّ أَذَنًا(٢)...

---

(١) ختمَ المصنِّف ﵀ هذا الكتاب الجليل بهذا الباب، في بيان مشروعيَّة تحسين الصَّوت بالقرآن؛ والمُراد بتحسين الصَّوت؛ أي: تَزيينُهُ وتَجميلُهُ وتنغِيمُهُ عند تلاوَة القرآن الكريم، والقَصْدُ بهذا التَّحسين والتَّزيين للصَّوت: التقَرُّب إلىٰ الله ﷻ؛ لأنَّ تحسينَ الصوت بالقرآن عبادة -كما سيأتي في النُّصوص- فلابدَّ فيها من الإخلاص لله تعالىٰ.

ولا يُفهم من مشروعية تحسين الصَّوت بالقرآن ما يقعُ من بعض القُرَّاء من التكلُّف المَذمُوم في إخراج الحروف وصفاتها، وكذا مَن يزيد في التَّمطيط والمدود في قراءته حتىٰ يقعَ في اللَّحن والخطأ، بل المشروع في التَّحسين أن يكُونَ في حُدود الطبيعة والاعتدال، مع مراعاة أحكام وقواعد القراءة والتَّجويد.

(٢) أي: استماعًا؛ فالأَذَن هو الاستماع، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾ [الانشقاق:٢]. فمعنىٰ: ﴿وَأَذِنَتۡ﴾ أي: استمعت لربِّهَا، وحُقَّ لها أن تستمعَ.

وأوردَ المصنِّفُ ﵀ قول الأوزَاعيِّ في بيان معنىٰ هذه الكلمة.

ودلَّ الحديثُ أنَّ الله ﷻ أشدُّ استماعًا إلىٰ الرجُل الحَسَن الصَّوت بالقرآن، وفي هذا حثٌّ وترغيبٌ كبيرٌ علىٰ تَحسين الصَّوت وتَجميلِهِ بالقُرآن؛ تَقَرُّبًا إلىٰ الله ﷻ، وطَمعًا في سماعِ ربِّ العالمين لتلاوة القرآن من عَبده بالصَّوت الحسن الجميل.

فإذا استَحضر المسلمُ في كُلِّ مرَّة يتلُو فيها كلامَ الله: أنَّ الربَّ العظيمَ ﷻ يستَمِعُ لتلاوته، وأنَّه كُلَّما حسَّن تلاوَته كان الله ﷻ أشدَّ استِماعًا له، فإنَّ ذلك باعِثٌ علىٰ إخلاص هذا العمل لله ﷻ، والتَّقرُّب له بذلك وحدَهُ، وهو باعِثٌ علىٰ الخشوع في التِّلاوة وحُسن الصوت معينٌ علىٰ التفكُّر والتدبُّر.

=

إلى الرَّجُلِ الحَسَنِ الصَّوت بالقرآن، من صاحب القَيْنةِ(١) **إلى القَيْنةِ»** [أخرجه ابنُ ماجه (١٣٤٠)، وضعَّفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٢٩٥١)]

قال الأوزاعي: أَذانًا؛ يعني: استِماعًا».

= فلا يُنافي الإخلاصَ والتقرُّبَ إلى الله إذا اعتنى القارئُ في صلاته بتَحسين صَوته بالقراءة من أجل انتِفاعه بالقرآن وطلب الخشوع له، ومن أجل نفعِ النَّاس وإعانتهم على الخشوع والتأثُّر بالقرآن؛ لأن حُسنَ الصَّوت بالقرآن مُعينٌ على حُسن التأمُّل والتدبُّر -كما تقدَّم-.

أمَّا إذَا كان تَحسين الصَّوتِ للرِّياء وطلب مَحمَدةِ الناس وثَنائِهم وإعجابهم، ونحو ذلك، فهذا ممَّا يُذَمُّ به فاعِلهُ ولا يُحمَد، وهو سببٌ لبطلان عمله.

ودلَّ الحديث أيضًا على إثباتِ صِفَة السَّمع لله ﷻ على الحقيقة، فالله ﷻ وَسِع سمعُهُ الأصوات كلها، ولو أنَّ الناسَ - من أوَّلهم إلى آخِرهم، إنسهم وجنِّهم - اجتَمَعوا في مكانٍ واحدٍ، وتكلَّم كُلُّ واحِدٍ بحَاجته، لَسَمِعَهُم ربُّ العالمين دُون أن يَختَلط عليه صوتٌ بصَوتٍ، أو لُغَةٌ بِلُغة، أو حَاجة بحَاجَة.

كما قال الله تعالى في قصَّة المجادلة: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾، قالت عائشَة ﵂: «الحَمدُ للهِ الذِي وَسِعَ سَمعُه الأصوَاتَ...». [أخرجه البخاري تعليقًا بصيغة الجزم ووصله النسائي (٣٤٦٠)]

(١) **القَينَة**: هي الجَارية المُغنِّية؛ التي تغنِّي لصاحِبها وهو يتوجَّه لها بسَمعِهِ؛ لجمال صوتها.

ولكنَّ الحديثَ لا يصحُّ بهذا اللفظ عن النبي ﷺ ففي إسناده رواية إسمَاعيل بن عُبيد الله، يَروي عن فضَالة ﵁، وبينهما انقطَاعٌ، ويُغني عن هذا الحديث ما أخرجه البخاريُّ [رقم: (٧٥٤٤)]، ومسلمٌ [رقم: (٧٩٢)] من حديث أبي هريرة ﵁ عن النبيِّ ﷺ قال: «**ما أَذِنَ اللهُ لشيءٍ ما أَذِنَ لنبيٍّ حَسَنِ الصَّوتِ بالقرآنِ يجهرُ به**»، فهو دالٌّ على ما تقدَّم، ولكن بدون تشبيه الاستِماع بصاحب القينة إلى قينته، والله أعلم.

وأخبرنا الفريابيُّ: ثنا أبو قُدامة وعمرو بن علي قالا: ثنا يحيىٰ بن سعيد، عن شعبة: حدثني طلحة بن مُصَرِّف، عن عبد الرحمن بن عَوْسَجَة، عن البَراء بن عازِب ﵁، عن رسول الله ﷺ قال: «زيِّنوا القرآنَ بأصواتِكم»(١) [أخرجه أبو داود (١٤٦٨)، وصححه الألباني].

حدثنا جعفر الصندلي: ثنا صالح بن أحمد بن حنبل، عن أبيه قال: قلت له: قوله ﷺ: «زيِّنوا القرآن بأصواتكم»، ما معناه؟ قال: التزين أن يحسنه».

قال محمد بن الحسين: ينبغي لمن رَزَقَهُ اللهُ حُسْنَ الصوت بالقرآن أن يعلمَ أنَّ اللهَ ﷻ قد خَصَّهُ بخير عظيم(٢)، ....

(١) في هذا الحديث أمرٌ من النبيِّ ﷺ بتزيين القرآن بالصوت الحسن، فإنَّ الصوت الحسن ممَّا يُعين علىٰ التدبُّر والتفكُّر في كلام الله ﷻ -كما تقدَّم في الحديث السابق.

وقد جاءت زيادةٌ صحيحة في هذا الحديث: «**فَإِنَّ الصَّوتَ الحَسَنَ يزِيدُ القُرآنَ حُسنًا**»

[أخرجها الدارمي (٣٥٠١)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧٧١)]

والصوتُ الحَسن ينبغي أن يكونَ في حُدود طبيعَةِ صَوت الإنسان، لا أن يَخرُج بذلك عن حَدِّ الاعتدالِ إلىٰ التكَلُّف؛ فإن هذا مذمومٌ.

❁ **وقد قَسَّم العلماءُ ﵏ تَزيين القرآن بالصَّوت إلىٰ قسمَيْن:**

القسم الأوَّل: ما كان في حدود الطَّبيعة، مع مراعاة أحكام التَّجويد والقراءة، دون تصنُّعٍ متكلَّف، فيقرأ الإنسانُ بما سَمَحتْ به طبيعته، فهذا النوع هو المحمود المذكور في النُّصوص.

القسم الثاني: ما كانَ صناعة من الصَّنائع، وليس في الطَّبع ما يَسمَح به؛ بل لا يَحصُل إلا بتكَلُّف ومُراعاة للأوزان وللمقامات، فهذا مذمومٌ، وقد حذَّر منه السَّلف، وسيأتي بيان ذلك من كلام المصنِّف قريبًا (ص: ١٨٠).

(٢) **فأنعمَ الله عليه** بنعْمة الصوت التي حُرمَها مَن يكون أبكَمَ، **وأنعمَ عليه** بسَلامة الصَّوت من الآفات التي تعتريه كاللَّثغة أو اعوجاج بعض الحروف، **وأنعمَ عليه** بعد ذلك بحُسن الصوت وحلاوته، فهي ثلاث نِعَم.

=

فليعرِفْ قدرَ ما خصَّه الله به(١)، وليقرأْ لله، لا للمخلوقين(٢)، وليحذَرْ من المَيلِ إلىٰ أن يُسْتَمَعَ منه ليَحظىٰ به عند السامعين، رغبةً في الدنيا، والميل إلىٰ حُسْنِ الثناء، والجاه عند أبناءِ الدُّنيا، والصلاة عند الملوك دون الصلاة بعوام الناس(٣)، فمن مالت نفسُهُ إلىٰ ما نهيتُهُ عنه خِفْتُ أن يكونَ حُسْنُ صوته فتنةً عليه(٤)، وإنَّما ينفعُهُ حُسْنُ صوته إذا خشي الله ﷻ في السِّرِّ والعَلانية، وكان مرادُه أن يُستَمَعَ منه القرآنُ لينتبِه أهلُ الغفلةِ عن غفلتهم، فيَرغبوا فيما رَغَّبَهم الله ﷻ، وينتهُوا عما نهاهم، فمن كانت هذه صفتُه انتفعَ بحُسْنِ صوته، وانتفعَ به الناسُ(٥).

= فاستحضارُ هذه النِّعَم ممَّا يعينُ العبدَ علىٰ شكر المنعِم، ويعرف لله تبارك وتعالى فضلَهُ ومنَّته عليه، فيحرصُ علىٰ تسخير هذه النِّعمة في طاعة الله تعالىٰ، وابتغاء مرضاته، ولكن إذا غابَ عن ذِهْنِ الإنسَان استحضار نِعَمِ الله عليه انتقل به الحال إلىٰ الغُرورِ والعُجبِ والخُيلاء، وأُمورٍ لا تُحمَدُ عُقْباها.

(١) كما جاء في حَديث سيِّد الاستغفار قوله ﷺ: «**أَبوءُ لكَ بنِعمَتِكَ**» [أخرجه البخاري (٦٣٠٦)]؛ أي: أعتَرفُ وأُقِر بنعمتك، والاعترافُ بالنِّعَم سببٌ لشكر المُنعِم عليها جَلَّ وعَلَا.

(٢) أي: ليكُنْ ترتيله للقرآنِ وتزيين صوتِه به تقرُّبًا إلىٰ الله وحدَه جَلَّ وعَلَا.

(٣) وتقدَّم أنَّ تحسينَ الصوت وتزيينَه بالقرآن عبادةٌ وقُربةٌ لله ﷻ، وكُل عِبادة يدخُلها الرِّياء وطلب السُّمعة وثناء النَّاس، فهي باطِلة وحابطة، فإنَّ اللهَ سبحانه وتعالى لا يَقبل من العمل إلا ما كان خالصًا، وقُصِدَ به وحدَهُ لا شريك له، كما في الحَديث القُدُسي: «**أَنَا أَغنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّركِ؛ مَن عَمِلَ عَمَلًا أَشرَكَ مَعِي فِيهِ غَيرِي تَركتُهُ وَشِركَهُ**» [أخرجه مسلم (٢٩٨٥)].

فعلىٰ المسلم أن يُخلِص عبادته لله ﷻ وحدَه، وأن يتقرَّب بتزيين صوته في قراءة القرآن إلىٰ الله ﷻ وحدَه.

(٤) فيكون الصوت الحسن فتنةً علىٰ القارئ وسببًا لهلاكه، وقد يكون سببًا لفتنة غيره أيضًا.

(٥) نبَّه المصنِّف إلىٰ قُربةٍ أخرىٰ يُستحبُّ لقارئ القرآن الذي رزقه الله حُسنَ الصَّوت أن يستصحِبَها؛ وهي تزيين صوته بالقرآن رجاء أن ينتفعَ الناسُ بسبب قراءته، فإنَّ حُسن التِّلاوة =

حدثنا عمر بن أيوب السقطي: ثنا عبيد الله بن عمر القواريري: ثنا عبد الله بن جعفر: ثنا إبراهيم، عن أبي الزبير، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أحسنَ الناس صوتًا بالقرآن، الذي إذا سمعتَهُ يقرأُ حَسِبْتَهُ يخشى الله عز وجل». [أخرجه ابن ماجه (١٣٣٩)، وقال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٤٥٠): صحيحٌ لغيره]

حدثنا الفريابي: ثنا محمد بن الحسن البلخي: ثنا ابن المبارك: أنا يونس بن يزيد، عن الزهري قال: بلغنا أن النبي ﷺ قال: «مِنْ أحسن الناس صوتًا بالقرآن من إذا سمعته يقرأ أُرِيتَ أنه يخشى الله(١)».

= والصَّوت له تأثيرٌ في إيصال مواعظ القرآن وزواجِره إلىٰ القُلوب، وزيادة الإنصات والخشوع للسامعين، وهو بابٌ من أبواب الدعوة إلىٰ الله تبارك وتعالى، وكم مِنْ مسلمٍ أقبلَ علىٰ الله تعالىٰ، وأناب إليه، وأقلع عن معصيته بعد تأثُّره بآياتٍ من القرآن سَمِعَها من قارئٍ حسَنِ الصوت.

وممَّا يدلُّ علىٰ استِحباب هذه النيَّة عند تلاوة القرآن قولُ أبي مُوسَىٰ الأشعري رضي الله عنه عندما عَلِمَ أنَّ النبيَّ ﷺ كان يَستَمع لتلاوته: «**لو كُنتُ أَعلَمُ لحَبَّرْتُهُ لك تحبِيرًا**». [أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٧١٩٧) وقال الألباني في «التعليقات الحِسَان» (٧١٥٣): حسن صحيح]

فمراده بالتَّحبير: ما يدعو السَّامع إلىٰ مَزيدٍ مِنَ التدبُّر والتأمُّلِ لمعَاني القُرآن، فهذه نيَّة محمودة، ولا يُذَمُّ القارئ عليها، والله أعلم.

(١) **قوله**: «**أُريتَ**»: تفسِّرها الرواية التي قبلها: «**حَسِبتَ**».

ودلَّ الحديثُ أنَّ أحسنَ النَّاس صوتًا بالقرآن مَن كان يخشىٰ الله تبارك وتعالى في تلاوته وقراءته، وإنَّما تُوصَف القراءة بذلك إذا كان القارئُ يقرأُ القرآن بخشوعٍ وتدبُّرٍ وتفكُّرٍ وخشْيةٍ لله تعالىٰ، ففي الغالب أنَّ الخشوعَ في القراءة والتَّدبُّر فيها ينتَقِلُ من القارئ إلىٰ السَّامع، فيكون لهما أثرٌ عليه في خُشوعه.

وثبتَ في صفة قراءة النبيِّ ﷺ في الصلاة ما رواه عبد الله بن الشِّخير، قال: «رأيتُ رسولَ الله ﷺ يصلي وفي صدرِهِ أزيزٌ كأزيز الرَّحىٰ مِنَ البكاء». [أخرجه أبو داود (٩٠٤) وصححه الألباني]. =

قال محمد بن الحسين: وأكره القراءة بالألحان والأصوات المعمولة المطربة[(١)]، فإنها مكروهة عند كثير من العلماء، مثل: يزيد بن هارون، والأصمعي، وأحمد بن حنبل، وأبي عبيد القاسم بن سلام، وسفيان بن عيينة، وغير واحد من العلماء، ويأمرون القارئ إذا قرأ أن يتحزن، ويتباكى، ويخشع بقلبه[(٢)].

= وهذه الصِّفة تدلُّ على خشوع النبيِّ ﷺ في قراءته، وخشيته من الله تبارك وتعالى، ممَّا نتجَ عنه هذا الصُّوت من أثر البكاء.

وأمَّا مَن يقرأُ القرآن دون الالتفات إلى المعاني والهدايات التي فيه ففي الغالب أنَّ قراءته لا تؤثِّرُ في السَّامعين كثيرًا، ومِن ذلك ما يحصُل عند بعض القُرَّاء عندما يجلِسُ أمامَ مجموعةٍ من النَّاس ويطرِّبُ وينغِّم في القرآن دون الالتفات إلى معاني الآيات، وإنَّما همُّه أن يُطْرِبَ مَن أمامه، ويُظهِرَ لهم قوَّة صوته، وجمالَ أدائه، فإذا رفع صوته بقراءة آيةٍ كبَّر الحاضِرون لنبرة صوته!! فمثل هؤلاء لم يلتفتوا يقينًا إلى معاني كلام الله تعالى، لا القارئ ولا السَّامعون، ولاشكَّ أنَّهم قد حُرموا بذلك خيرًا عظيمًا، بل حُرموا أعظمَ فائدة للقرآن وهي الاتِّعاظ به، والاهتداء بهداياته ونوره.

(١) **قوله: «المَعمُولة»**: أي: التي هي ليست ممَّا يخرج بالطَّبيعة والسَّجيَّة، بل صاحِبها يتعمَّد عملَها عن تكَلُّف، ومراعاةٍ لضوابطها، **وقوله: «المُطرِبَة»**: التي تعتمِدُ على الألحَان والأوزان، ويقصَدُ بها مجرَّدُ الطَّرب.

(٢) وهي القراءة التي تقدَّم بيانها في الباب السَّابق؛ والتي تُبنى على الخشوع وخشية القلب من الله تبارك وتعالى، والتفكُّر والتدبُّر في المعاني والدَّلالات حال القِراءة، بخِلاف مَن يراعي أثناء قراءته تحسين الصَّوت والأوزانَ والتَّطريب بها، فهذا ذمَّه السَّلف.

ويدخلُ فيما سبقَ ما استجَدَّ في الأزمنةِ المُتأخِّرة بما يُسَمَّى: بـ«**عِلم المَقامات**»، وهذا علمٌ مُستَحْدَثٌ؛ لا وجُود له عند الصَّحابة والتابعين لهُم بإحسان، على أنَّ عصر الصحابة والتَّابعين قد ضمَّ أحسنَ القُرَّاء أداءً في تلاوة القرآن، ولم يكن هذا العلمُ قد وُجِدَ عندهم. =

= بل إنَّ عِلمَ المقامَات نشأ في أوساط الفنِّ والمُوسيقىٰ، ويجعلون هذه المقامات تختلف باختلاف أوزان النَّغمات والأصوات والآلات الموسيقية، ونحو ذلك، ولا شكَّ أنَّ استِجلاب هذه المقامات والأوزان إلىٰ كتاب الله تعالىٰ، أو إلىٰ الأذَان من البِدَع المحدثة، التي يجبُ تنزيه القرآن عنها.

قال شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «**أما ما أُحدِثَ بعدَهم من تكلُّفِ القِراءةِ علىٰ ألحَانِ الغنَاءِ فهذا يُنهَىٰ عنه عند جُمهُور العلماء؛ لأنه بدعة**، ولأنَّ ذلك فيه تشبيهٌ للقرآن بالغناء، ولأنَّ ذلك يُورِثُ أن يَبقَىٰ قلبُ القارئ مَصْرُوفًا إلىٰ وزنِ اللفظ بميزان الغِناءِ، لا يَتدبَّرُهُ ولا يَعقِلُه، وأن يَبقَىٰ المستمعون يُصغُون إليه لأجل الصوتِ المُلحَّن كما يُصْغَىٰ إلىٰ الغناء، لا لأجلِ استماعِ القرآن وفهمِه وتدبُّرِه والانتفاع به». [«جامع المسائل» (٣/ ٣٠٤)]

وقال تلميذه ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في «زاد المعاد» (١/ ٤٧٤) في بيان الفرق بينَ التَّغني والتطريب المشروع، والآخر المُحدث المذموم:

«**وفصل النِّزاع**، أنْ يقال: التَّطريبُ والتَّغني علىٰ وجهين:

أحدهما: ما اقتضتْهُ الطبيعةُ، وسَمَحَتْ به من غيرِ تكلُّفٍ ولا تمرين ولا تعليم، بل إذا خلّي وطبعَهُ، واستَرْسَلتْ طبيعتُهُ جاءَت بذلك التَّطريب والتَّلحين؛ **فذلك جائز**، وإن أعانَ طبيعتَهُ بفَضْلِ تزيينٍ وتَحسينٍ، كما قال أبو موسىٰ الأشعريُّ للنبي ﷺ: «لو عَلِمْتُ أنك تَسْمَعُ لحبَّرتُهُ لك تحبيرًا»، والحزينُ ومَن هاجَهُ الطَّرَبُ والحُبُّ والشَّوقُ لا يملِكُ مِنْ نفسِهِ دفعَ التَّحزين والتَّطْريب في القراءة، ولكنْ النُّفُوسُ تقبلُهُ وتستَحْليه؛ لموافقته الطبعَ، وعدَمِ التَّكلُّفِ والتصنُّع فيه، فهو مَطْبُوعٌ لا مُتَطبَّعٌ، وكَلِفٌ لا متكَلَّفٌ؛ فهذا هو الذي كان السَّلَفُ يفعلونَه ويستَمِعونَه، وهو التَّغني المَمْدوحُ المَحْمُودُ، وهو الذي يتأَثَّرُ به التَّالي والسَّامع ...

الوجه الثاني: ما كان من ذلكَ صِناعةً مِنَ الصنائع، وليس في الطبعِ السَّماحةُ به، بل لا يحصُلُ إلا بتكلُّفٍ وتصنُّعٍ وتمرُّنٍ؛ **كما يتعلَّمُ أصواتَ الغِناء، بأنواع الألحانِ البَسِيطة** =

= **والمركبة، على إيقاعاتٍ مَخْصُوصة، وأوزان مُخْتَرعة، لا تحصُلُ إلا بالتَّعَلُّم والتكلُّف،** فهذه هي التي كَرِهَها السَّلفُ وعابوها وذموها ومنعوا القراءَة بها، وأنكروا على من قرأ بها ...

وبهذا التفصيل يزول الاشتباه، ويتبيَّنُ الصوابُ من غيره، **وكلُّ مَن له عِلمٌ بأحوالِ السَّلفِ يعلمُ قطعًا أنهم بُرآء مِنَ القِراءة بأَلحان الموسيقى المُتَكلَّفة، التي هي إيقاعات وحركات موزونة معدُودَةٌ مَحْدُودة**، وأنهم أتقى لله من أن يقرؤوا بها ويُسَوِّغوها...».

وقال الحافظ ابنُ كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في «تفسيره» (١/ ٦٤): «المطلوبُ شرعًا إنَّما هو التَّحسينُ بالصَّوت الباعث على تدبُّرِ القرآن، وتفهُّمِه، والخُشُوعِ والخُضُوعِ والانقيادِ للطاعة، **فأَمَّا الأصواتُ بالنَّغمات المُحْدَثة المُركَّبة على الأوزان والأوضاع المُلْهِية، والقانون الموسِيقائي؛ فالقرآنُ يُنَزَّهُ عن هذا ويُجَلُّ ويُعَظَّمُ أن يُسْلَكَ في أدائِه هذا المذهبُ**».

ويدخُلُ في هذا أيضًا ما يفعلُهُ بعضُ القُرَّاء؛ وهو مُحاكاةُ قارئٍ آخر، وتقليدُه لنبرة صوته، فهذا ممَّا ذَمَّه السَّلفُ أيضًا، لأنَّه إنَّما يحصُل بتكلُّف وتصنُّعٍ وتقليدٍ.

قال الشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللَّهُ في رسَالته «بدَع القُراء القَديمَة والمُعَاصِرة» (ص٣٠): «فإنَّ النَّاظِرَ لا يرى حرفًا واحدًا في تسنُّن الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فمَن بَعدَهم بمُحَاكاة حَسَن الصَّوت في صَوته بالقُرآن، ولو كَان ذلك واقعًا لنُقِلَ».

وكلامه رَحِمَهُ اللَّهُ **حقٌّ**؛ فلو أنَّ تقليدَ الأصوات كان مشروعًا لبادرَ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، إلى تقليد أصحاب الأصوات الحسنة، وقد أخبر النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ أبا موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أُوتي مِزمارًا من مزامير آل داود؛ لجمال صوته، وحُسْنِ تلاوته، ولم يُنقل أنَّ أحدًا من الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أو التَّابعين لهم بإحسان قلَّده، فلمَّا أعرضوا عن ذلك -مع ما عُرف عنهم من حرصهم على الخير- دلَّ ذلك أنَّ هذا العملَ من التَّكلُّفات التي حدثَتْ في الأزمِنَة المُتأخِّرة، والله أعلم.

وفي زماننا برزَ أشخاصٌ عُرِفوا بتقليد أصوات مشاهير القُرَّاء، حتَّى إنَّ بعضَهم يُقلِّدُ عددًا ليس بالقليل من القُرَّاء، لا يُخطِئُ في مُحاكاة نبرة أصواتهم، وطريقة أدائهم، ثمَّ =

حدثنا الفريابي: ثنا الهيثم بن أيوب الطالقاني: ثنا الوليد بن مسلم، عن أبي رافع إسماعيل بن رافع: حدثني ابن أبي مليكة الأحول، عن عبد الرحمن بن السائب قال: قَدِمَ علينا سعدُ بن مالك بعدما كُفَّ بصرُهُ، فأتيتُه مُسَلِّمًا، وانتَسَبَني، فانتَسَبْتُ له، فقال: مرحبًا بابن أخي، بلغني أنك حَسَنُ الصوت بالقرآن، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ هذا القرآنَ نزلَ بحُزنٍ[1]، فإذا قرأتمُوه فابكُوا، فإن لم تبكُوا فتباكَوا، وتغنَّوا به، فمن لم يتغنَّ به، فليس منَّا[2]». [أخرجه ابن ماجه (١٣٣٧)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٦٥١١)]

وأخبرنا الفريابي: ثنا إسماعيل بن سيف بن عطاء الرياحي: ثنا عون بن عمرو -أخو رياح القَيسي-: ثنا سعيد الجُرَيري، عن عبد الله بن بُـرَيدة، عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «اقرؤُوا القرآنَ بحُزْنٍ، فإنه نزلَ بحُزن». [أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٤٢٢) وفي إسناده: عون بن عمرو القيسي متكلم فيه، وبه أعلَّه العقيلي، فقال: «لا يتابع عليه»]

قال محمد بن الحسين: فأحب لمن قرأ القرآن أن يتحزن أثناء قراءته ويتباكى ويخشع قلبه، فيتفكَّرَ في الوعد والوعيد ليستجلب بذلك الحزن[3].

= يُقال له: (قلِّد فلانًا وقلِّد فلانًا)، ويستمعون إلىٰ تقليدِه لا إلىٰ القرآن، وربَّما ضَحِكوا أو تعجَّبوا، دون أن يقوم في قلوبهم تدبُّرٌ للقرآن، وما لهذا أنزل كتاب الله جل وعلا، وما هذا شأن مَن يُعظِّم كلامَ الله جل وعلا.

(١) قوله: «**نزلَ بحزن**» أي: مَصحُوبًا بما يُؤثِّر في القُلوب، ويجعلها خاشعةً حزينة كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾[الزمر:٢٣].

(٢) هذا الحَديثُ ضَعيف جدًّا، ولكن قوله ﷺ: «**فمَن لم يتَغَنَّ به فليس منَّا**» ثابتٌ في «صَحيح البخَاري» (٧٥٢٧) من حديث أبي هريرة، وأمَّا القراءة بخشوعٍ وتدبُّرٍ فتقدَّم في النُّصوص ما يدلُّ عليها، وأنَّ أحسن النَّاس صوتًا بالقرآن الأكثر خَشيَةً لله سبحانه وتعالى.

(٣) وإنَّما يحصل ذلك إذا اجتهدَ في أن يعيش مع معاني الآياتِ، ويتأمَّل في الوعدِ والوعيد، والتَرغيب والتَّرهيب، والبشارة والنِّذَارة، فبهذا يستَجلبُ الخشوع والحُزن في تلاوته.

ألم تسمع إلى ما نَعتَ الله ﷻ مَن هو بهذه الصفة، وأخبر بفضلهم فقال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ(١)﴾ [الزمر:٢٣] **الآية.**

ثم ذمَّ قومًا استمعوا القرآنَ فلم تخشعْ له قلوبُهم، فقال ﷻ: ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ﴾ [النجم:٥٩-٦١]**، يعني: لاهين(٢).**

ثُمَّ يَنبَغِي لِمَن قَرَأَ القُرآنَ أن يُرَتِّلَ القرآن ترتيلًا كما قال اللهُ ﷻ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [المزمل:٤]**، قيل في التَّفسيرِ: بَيِّنهُ تبيينًا(٣).**

واعلم أنه إذا رتله وبينه انتفع به من يسمعه منه، وانتفع هو بذلك؛ لأنه قرأه كما أمر؛ قال الله ﷻ: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ(٤) لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ [الإسراء:١٠٦]**. يقال: على تؤدة.**

---

(١) فيقشَعر الجلدُ عند ذكر الإنذار بالنار والعُقُوبة، ثمَّ يلينُ الجِلدُ عند ذكر النَّعيم والرَّحمَة والثَّواب، فهكذا حال المؤمنين مع القرآن ترغيبًا وترهيبًا، خَوفًا ورجاءً، وإنَّما يتحقق هذا بحُسن التَّدبُّر لكَلام الله ﷻ.

(٢) فذَمَّهم الله ﷻ بالغفلة عن تدبُّر القرآن، وعدم البكاء من زواجره ووَعيده.

ونحوُهُ قوله تعالىٰ في سُورة المُؤمنون: ﴿قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ۝٦٦ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ۝٦٧ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ [المؤمنون:٦٦-٦٨]؛ أي: لو أنهم تَدبَّروا القولَ وعقلوا الخِطاب لما نَكصُوا علىٰ أعقابهم، ولمَا رَجعُوا إلى الوراء؛ لأنَّهم حينئذٍ سيتأثَّرون بالقرآن وينتَفِعون به.

(٣) فالتَّرتيل بمعنىٰ التبيين؛ بحَيث تَخرُجُ الكَلمات بَيِّنةً واضِحَةً، وكذا الحرُوف تخرُجُ من مَخارجها الصَّحيحة، واضِحَةً بَيِّنةً.

(٤) أي: نَزَل مُفرَّقًا، ولم ينزل دُفعةً واحِدةً علىٰ النَّاس، وهو أيضًا فُرقانٌ بين الحَقِّ والبَاطل، فكلا المعنيين يدخلان في هذه الآية.

حدثنا أبو محمد يحيىٰ بن محمد: ثنا أبو الخطاب زياد بن يحيىٰ: ثنا مالك بن سعير: ثنا ابن أبي ليلىٰ، عن الحكم، عن مِقْسَم، عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾: بيِّنه تبيينًا.

حدثنا جعفر بن محمد الصندلي: أنا أبو بكر بن زنجويه: ثنا عبد الرزاق: أنا سفيان، عن عبيد المكتب، عن مجاهد في قول الله عز وجل: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾؛ قال: «علىٰ تؤدةٍ[١]».

والقليل من الدرس للقرآن مع الفكر فيه وتدبره؛ أحبُّ إليَّ من قراءة الكثير من القرآن بغير تدبر، ولا تفكر فيه[٢]، فظاهر القرآن يدل علىٰ ذلك والسنة، وقول أئمة المسلمين[٣].

حدثنا جعفر بن محمد الصَّندلي: أنا الحسن بن محمد الزعفراني: ثنا إسماعيل بن علية، عن أيوب، عن أبي جمرة الضبعي قال: قلت لابن عباس: «إني سريع القراءة، إني أقرأ القرآن في ثلاث»، قال: «لأن أقرأَ البقرةَ في ليلة، فأتدبَّرَها، وأُرتِّلَها أحبُّ إليَّ من أن أقرأَ كما تقول[٤]».

---

(١) أي: علىٰ مَهل ورويَّةٍ، لا هذًّا كهذِّ الشِّعر، وإنَّما بترتيلٍ واضِحٍ ليُعقَل ويُنتَفعَ به، وهكذا كلُّ مسلمٍ مُطالَبٌ أن يقتديَ بالنبي ﷺ في هذا؛ فيقرأَ القُرآن علىٰ تُؤَدة وأناةٍ ومهل، ويُبيِّن الكلمَات والحرُوف.

(٢) أي: قراءة آياتٍ قليلة مع التدبُّر والتأمُّل في معَانيها ودلالاتها أنفعُ للمسلمُ من قراءة الكثير بدون فهمٍ ولا تدبُّر.

(٣) فالآياتُ التي فيها الأمر بالتدبُّر واضحَةُ الدِّلالة علىٰ ذلك؛ ومنها: قولُه تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [محمد:٢٤]، وقولُه تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون:٦٨]، وقولُه تعالىٰ: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

(٤) كلام ابن عبَّاس رضي الله عنهما ليس فيه الحثُّ علىٰ أن يقُلِّلَ المسلم من ورده لقراءة القرآن، بل المسلم يُحَصِّلُ الأجرَ والثوابَ بقدر قراءته، ولكنَّه بيَّن أنَّ الغاية العظمىٰ من قراءة القرآن هي التدبُّر والانتفاع، فقراءة آيات قليلة مع فهم معانيها خيرٌ من قراءة آيات كثيرة دون حصول ذلك. =

حدثنا جعفر أيضًا: ثنا أبو بكر بن زنجويه: ثنا محمد بن يوسف: ثنا سفيان، عن عبيد المكتب قال: سئل مجاهد عن رجل قرأ البقرة وآل عمران، ورجل قرأ البقرة، قراءتهما واحدة، وركوعهما، وسجودهما، أيهما أفضل؟ قال: الذي قرأ البقرة، ثم قرأ: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾(١) [الإسراء:١٠٦].

قال محمد بن الحسين: جميعُ ما قلته ينبغي لأهل القرآن أن يتخلَّقوا بجميع ما حثَثْتُهم عليه من جميل الأخلاق، وينزَجِروا عمَّا كرهته لهم من دناءة الأخلاق(٢).

والله الموفق لنا ولهم إلى سبيل الرشاد، والحمد لله رب العالمين. تمَّ جميع الكتاب

= **قال الإمامُ ابن القيِّم** رحمه الله: «فقراءة آيةٍ بتفكُّرٍ وتفهُّمٍ خيرٌ من قراءة ختمةٍ بغير تدبُّر وتفهُّم، وأنفعُ للقلب، وأدعىٰ إلىٰ حُصول الإيمان وذَوق حلاوة القُرآن». [«مفتاح دار السعادة» (١/ ١٨٧)]

ولهذا صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قامَ ليلةً كاملة بآيةٍ واحدَةٍ يُردِّدها حتىٰ أصبحَ، وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَ﴾ [المائدة:١١٨]. [أخرجه النسائي (١٠١٠)، وحسنه الألباني]

(١) وصُورة السؤال في رجُلين، كِلاهما بدأ الصَّلاة في الوقت نفسِه، وانتهيا من الصَّلاة في وقتٍ واحدٍ أيضًا، فالمُدَّة الزمنيَّة لصَلاة الرجُلَين واحِدَة، لكنَّ أحدَهُما قرأ في تلك المُدَّة بسورة البقرة وآل عمران، والثاني قرأ سورةَ البقرة وحدَها، أيُّهما أفضل؟

فكان الجوابُ أنَّ الذي قرأ بسورة البقرة وحدَها هو الأفضل، لقوله تعالىٰ: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾، وقد سبقَ أنَّ معنىٰ: ﴿عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾؛ أي: علىٰ تُؤَدَة ومهل ورويَّةٍ، فالقراءةُ بتُؤَدَة في الصلاة أفضل -بلا شك-؛ لأنها أعونُ للعبد علىٰ حُسن التدَبُّر والتفكُّر لكلام الله تعالىٰ.

(٢) خَتم المؤلِّف رحمه الله كتابه بحثِّ مَن قرأ كلامه: أن يُعنَىٰ بجَميع ما تَقدَّم من وصَايا وآدابٍ وأخلَاق، فقد حوىٰ علمًا غزيرًا، وفوائدَ ثمينة، وآدابًا كريمة، وأخلاقًا عظيمة، ينبغي أن ينشأ عليها الأبناء والأجيال في دور القرآن، والمقارئ عامَّة؛ ليكونوا -بإذن الله- من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصَّته، وبالله وحده التوفيق، وهو وحده المستعان، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم.

فهرس المحتويات


شرح التِّبْيَان

